



تأليف : سوساكواندو ترجمة : كامل يوسف حسين
مكتبة بغداد

[twitter@baghdad_library](https://twitter.com/baghdad_library)



الأشت

تألیف

شوساکو اندو

ترجمة

کامل یوسف حسین



دار الهلال

**هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
SILENCE
للكاتب اليابانى
SHUSAKU ENDO**

**الغلاف للفنانة
سمحة حسين**

قبل أن تقرأ

هذا كتاب للتأمل .

والتأمل هنا رحيل شرس عبر التخوم ، والتخوم التي يدعونا القاص الياباني شوساكو إندو إلى اقتحامها هي مجموع القضايا الأساسية ، التي تورق ضمير الإنسان الياباني ، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ومناط الدعوة ضرورة إعادة النظر في المقولات التي تشكل النسيج الخالص لهذا الضمير .

وما يعاد النظر فيه عبر «الصمت» لا يعلو أن يكون جوهر الرؤية الشيولوجية ذاته : الله ، الموت ، الخطيئة ، الذنب ، والجسر المتبد عبر التخوم ، طرحا ، ومناقشة ، فتحديا لهذه المفاهيم ، هو التساؤل عما إذا كانت الرؤية الحالية لهذه القضايا هي التصور الأكثر صدقا لها ، من ناحية ، والأنسب لمسيرة المجتمعات المعاصرة ، في مرورها بالمنعطف الرابع للقرن العشرين ، من ناحية أخرى .

وإذا كنا نميل إلى الإحجام عن الاستطراد فيتناول العمل الماثل بين يدي القاريء؛ باعتبار أن النص هو خير متحدث عن نفسه ، فإننا في الوقت نفسه نعتقد أن المهمة التي تفرض نفسها هنا هي تبيان الاطار العام لعالم إندو الروائي ، ومتابعة ما في مسيرة هذا العالم من استمرارية أو انقطاع ، عبر محاولة القاص الياباني المكنة - المستحيلة لاقتحام التخوم .

ولد شوساكو إندو في طوكيو ، عام ١٩٢٣ ، ونال درجة علمية في الأدب

الفرنسي من جامعة كيбо ، وحصل على منحة دراسية من الحكومة اليابانية ، مكنته من مواصلة الدراسة لعدة سنوات في ليون بفرنسا ، عاد إثرها إلى اليابان، حيث شق طريقه في غمار الساحة الأدبية اليابانية . ورفعه سلسلة متواالية من الروايات وكتب الرحلات والمقالات النقدية إلى المكانة ، التي أصبح فيها واحداً من قلة من الروائيين اليابانيين ، يتنافسون على عرش الرواية اليابانية ، الذي شغره بانتحار يوكيو ميشيمى ، وذلك إثر حصوله على سلسلة من الجوائز الأدبية البارزة، في مقدمتها جوائز أكوتا جاوا ، مينيشى، شينتسو ، وتانيزاكى ، وترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والسويدية ، وعدد كبير من اللغات الأخرى .

ولكن أليس من حق القارئ العربي أن يستشرف آفاق عالم إنزو قبل أن يقرأه في لغته؟ يعد عام ١٩٥٨ الذي شهد صدور رواية «البحر والسم» من المعالم البارزة في مسيرة إنزو الأدبية ، ولعل ما حظيت به هذه الرواية من تقدير داخل اليابان وخارجها ، شأن العديد من أعمال إنزو ، لا يعود إلى التكتنل المستخدم في نسج جزئياتها ، بقدر ما يعود إلى توهج القضية التي يجري طرحها ، وتركزها على محاولة بلورة مفهوم جديد لمقوله الخطيرة .

مدخلنا إلى رواية «البحر والسم»^(١) إطار يحاكي ما نراه شائعاً في روايات التحرى ، فالفضول يقود مريضاً إلى محاولة استكناه أسرار حياة طبيب بارع ، يعمل في الريف ، في عزلة وغموض ، يتناهيان وقدراته ، ومع استمرار رحيلنا في حياة الطبيب تسقط منا شخصية التحرى ، أو المريض الفضولي ، فكأنّ الإطار سقط منه ضلع كامل ، في غمار مسيرة الرواية . ولعل ذلك يرجع ، بشكل ما، إلى ما جرى به العرف في الساحة الأدبية اليابانية ، من نشر الأعمال في المجلات

(١) صدرت هذه الرواية ، من ترجمتنا ، في عام ١٩٨٥ ، بيروت ، عن دار التدوير للطباعة والنشر

والدوريات، ثم جمعها ، فى مرحلة لاحقة ، بين دفتى كتاب . وفى هذا العمل ، سيدھشنا أن الطبيب الوحيد ، ذلك القابع مھملا فى أعماق الريف ، الذى أبدى حسا مرهفا بما فى الخطيئة من أهواى ، قد وصل إلى مرحلة الجمود ، حينما بدأت مجموعته فى القيام بعملية تشريح للأحياء من الأسرى الأميركيين ، لكشف آفاق جديدة فى عالم الجراحة ، وبعد سنوات طويلة ، نجده لايزال يتردى فى جحيم هذه الأهواى .

والرواية التى حملت اسم إندو إلى آفاق أبعد ، فى عالم الشهرة ، هي المائة بين يدى القارئ ، والتى قال عنها القاص الانجليزى الشهير جراهام جرين إنها «في رأى واحدة من أجمل الروايات في عصرنا » ، تنتقل من تشريح مفهوم الخطيئة ، إلى وضع مفهومي الألوهية والدين موضع إعادة التناول ، في خطوة تعيد إلى ذهاننا خلاصة ما طالعناه من جمهورية أفلاطون إلى «تقرير لجريكو» ، الذي خط فيه العملاق اليونانى نيكوس كازانتزاكيس خلاصة تجربته في عالم البشر ، قبيل رحيله عنه .

في مقابلة مع إندو ، أجراها جارى ويلز ، ونشر مضمونها في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» ، يقول الروائي الياباني «لقد جعلتني أمي في الثالثة عشرة من عمري ، أرتدى ملابس غريبة ، لا تتناسبني ، ومنذ ذلك اليوم أحاول ، دونما نجاح ، أن أجعل من هذه الملابس كيمونو» .

وتلك حقا مشكلة الضمير الياباني ، كما يتصورها إندو ، على نحو رمزى ، فهو يتتساول عما إذا كان مفهوم الرب ، كما تنقله الكاثوليكية إلى الضمير والوجدان والعقل الياباني، هو المفهوم الصحيح ، وعما إذا كانت الكاثوليكية ذاتها شجرة تضرب ، لدى تفرعها في اليابان ، جنورها في الأرض ، أم أنها تنمو في مستنقع ، وسرعان ما تندى ، وتنهار .

إن القس في رواية «الصمت» يصارع في كل لحظة هزيمته ، ولكن هذه الهزيمة هي ، في تصور إندو ، تمجمه ، وإذا ما قدر له أن يدهس الوجه المنقوش على الإيقونة ، فإنه يؤكد جداره المسيح . ووجه المسيح الباسم ، عبر الإيقونة التي دهستها آلاف الأقدام ، لا يلومنا ، وإنما يؤكد لنا أن المسيح لم يبعث إلا ليحمل عن الفقراء والمضطهددين والضائعين المفتربين انسحاقهم . وبكلمة ، لقد ولد المسيح لتداس صورته . وفي غمار هذا كله ، يوضع مسيح الكنيسة الكاثوليكية ، الملتف بالذهب والحرير ، موضع الشك والتساؤل .

في رواية «الأحمق العجيب» ، يطرح إندو ، لأول مرة ، إشارة إلى مخرج محتمل من المستنقع ، الذي قد يلحق الهزيمة ببطل «الصمت» ، كما يكشف كذلك عن حس بالغ الرهافة بالفكاهة والسخرية اللماحة ، ويضرب صعدا في عالم السرد الروائي . فالبطل جاستون بونابرت ، وهو زائر فرنسي شاب للبيان ، يصادم مضييفه تاكموري وأخته توموي بمحاقته البالغة ، وسذاجته التي لا تعرف الحدود ، لكنه بالمقابل يملك هذا الحب النادر ، للبشر والكائنات كافة ، الذي يدفعه إلى حتفه ، ويدفع الآخرين معه إلى مواجهة أنفسهم ومصارعة تحدي التغيير .

وإندو يواصل النفح في جمرات الذنب ، التي تتوجه في الضمير الياباني ، عبر روايته الصادرة عام ١٩٥٤ بعنوان «حينما أصفر» ، ويشدد على أن اليابان لم يكن فيها ما يدعو للشعور بالذنب ، خلال الحرب العالمية الثانية فحسب ، وإنما في حياتها الراهنة كذلك ، فالبطل أوزو يتذكر شبابه ، قبل الحرب، فيما هو يراقب مسيرة ابنه ، في محاولته تلميع اسمه ، في مجال الطب، وبال مقابل هناك «فلاتفتش» صديق البطل، المتناقض ، والمقيت ، والغارق في عشق مجنون لفتاة ، يعرف تمام المعرفة ألا سبيل إلى استحواذه عليها ، ولا يدرك أوزو عمق الصلة بين

حياته وحياة «فلا تفتیش» ، إلا حين يطلعه الطموح الوحشى ، الذى يأكل فؤاد ابنه، على جوهر الترابط بين الحياتين .

وفي رواية من أكثر رواياته إحكاما ، من الناحية الفنية ، هي رواية «البركان» يوضح إندو التضارب الحاد بين مراكمه الثروات وبين إعادة النظر في أعمق مفاهيم الضمير الياباني ، بما في ذلك القدر والعناية الإلهية . والشخصيات الرئيسية هنا قس مسيحي ، يرغب في بناء دار تابعة للكنيسة فوق جبل ، تتضارب الأقوايل حول ما إذا كان البركان الذي يتوجه خامدا ، أم أنه يوشك على أن يدفع بحممه إلى البحر . وبال مقابل ، يأمل كاهن مرتد أن يثور البركان ، لعله يحطم قشرة الإيمان السطحية ، ويخلق إيمان الأعمق . ويبذل رجل الأعمال الياباني النشط جهده لتلميع صورة السلام فوق الجبل أما رجل الأرصاد الجوية المخضرم فيتصور حياته امتدادا لحياة البركان . ورغم هذا كله ، فإن البطل الحقيقي يظل البركان نفسه ، ويبقى التحدي الذي يطرح علينا قائماً ، حتى السطر الأخير من العمل ، ويظل السؤال معلقا مع ثورة البركان ، التي لا تقع أبدا ، وإن كان يمكن أن تقع في أي لحظة .

وفي عمل يعده النقاد المهتمون بالأدب الياباني من أكثر الأعمال قدرة على إثارة الاهتمام والجدل ، هو روايته الأخيرة «الساموراي» يستمد إندو مادته ، شأن الحال في «الصمت» ، من حادثة تاريخية واقعية ، ففي أكتوبر ١٦١٣ انطلق أربعة من الساموراي ، راحلين عبر البحر إلى المكسيك ، في سفينة أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وبصحبتهم راهب إسباني كمترجم لهم ، وكان الهدف من هذه البعثة الغريبة الحصول على امتيازات تجارية في الغرب ، مقابل حق المبشرين الأوروبيين في التبشير بال المسيحية على أراضي اليابان ، ومع وصول البعثة إلى طريق مسدود في المكسيك ، رحلت إلى إسبانيا وإيطاليا ، ورغم

تحول الساموراي الأربعة إلى المسيحية ، واستقبال فيليب الثالث عامل أسبانيا والبابا بولس الرابع لهم ، فإن رحلتهم لم تثمر شيئاً ، فعادوا إلى اليابان في ١٦٢٠

وقد استخدم إنديو هذا الفصل ، الذي أوشكت يد النسيان أن تطويه ، من تاريخ اليابان ، أساساً تنطلق منه روایته ، ورغم التزامه بالهيكل التاريخي، فقد حول مغامرة الساموراي الأربعة إلى سجل يمس القلب للرحلة الروحية التي قام بها أحدهم ، وهو هاسيكورا روكيومون ، وللصراع الضارى الذى يعيش فيه الراهب رفيق الرحلة .

غير أن الجانب الذى يستحق إلقاء ضوء مكثف حقاً ، فى عالم شوساكو إنديو، أكثر من غيره ، يتمثل فى عمل غير روائى هو كتابه «حياة المسيح» .

يبدو هذا الكتاب ، الذى يقع فى مجلد صغير الحجم ، محدود الصفحات ، كما لو كان ، عند النظرة الأولى ، مؤلفاً تعليمياً ، أولياً ، موجهاً إلى غير المؤمنين بال المسيحية ، لكن الكتاب ، فى جوهره ، وكما لاحظ أحد النقاد ، هو إعادة كتابة مؤلف فرانسوا مورياك ، الذى يحمل العنوان نفسه : «حياة المسيح» ، وقد كان كتاب مورياك ، بدوره رد فعل لكتاب إرنست رينان ذات الصيت ، الذى يحمل العنوان ذاته كذلك.

لقد تحدث رينان فى كتابه عن المسيح ، فصوره عاشقاً للطبيعة ، شاعراً ، طلاقاً ، يتغنى بها ، شخصية رعوية ، ترقد الأسود فى رحابها إلى جوار الحملان ، وتستحيل بدورها إلى حملان هادئة صغيرة مرتحة . وما أحدثه مورياك كان طرح هذه المشاهد ذاتها ، وقد لفها الليل ، فالمسيح هنا يتحرك ليلاً فى قلوب البشر المعتمة ، لا يجلب العقل ليقنع ، وإنما المحبة لتفجر .

وإندو يقلب موازين الأضاءة ، في حياة المسيح ، لأنه يرى أن البراءة الوهاجة، التي تاق رينان إليها ، هي العدو الحقيقي للمسيح ، وينتقد بشدة المبشرين ، الذين قدموا المسيح لليابان ، باعتباره الأب المنتقم ، في التقاليد اليهودية والغربية ، ويشدد على الجانب الضعيف ، بل والأحمق ، في شخصية المسيح ، بل هو لا يتردد في القول بأن صورته إنما خلقت لتذوتها أقدام المعدبين . ولما كانت التقاليد اليابانية والضمير الياباني يرفضان تقدس ما داسته الأقدام ، ويأبىان مواجهة الحرج ، باعتباره موتا آخر ، فإن إندو يضع كلاماً من جوهر هذه التقاليد ، ونسيج هذا الضمير ، وأبعاد هذه القدسية ، جميعها ، موضع التساؤل والمراجعة .

وهكذا ، فإن «صمت» إندو هو صمت صارخ ، متربع بالتساؤلات ، مفعوم بالرحيل الشاعر نحو آفاق جديدة منفتحة .

المترجم

مُفْتَح

بلغ النبأ الكنيسة في روما ، أن كريستوفافيريرا ، الذي أرسلته جمعية اليسوع في البرتغال إلى اليابان ، قد ارتد عن المسيحية ، بعد تعرضه للتعذيب في «الحفرة» ، في نجازاكى كان داعية مخضراً ، يحظى بأسمى آيات التوقيير ، أمضى ثلاثة وثلاثين عاماً في اليابان ، وشغل منصب الأسقف السامي ، وكان مصدراً للإلهام ، بالنسبة للقس وللمسيحيين المخلصين على السواء .

وكان عالماً متضللاً في اللاهوت ، يتمتع بقدرة كبيرة ، في عهد اضطهاد شق طريقه إلى إقليم كاميجاتا لمواصلة عمله كداعية . ومن هذا الإقليم ، بعث خطاباً إلى روما ، يفيض بروح شجاعة لا تقهقر لم يكن ثمة مجال للظن بأن مثل هذا الرجل سيتخلى عن عقيدته ، أيا كانت الظروف الرهيبة التي تفرض عليه تساؤل الناس في جمعية اليسوع ، وكذلك في الكنيسة بعامة ، مما إذا لم يكن الأمر بأسره نباءً مختلفاً ، ابتدعته قريحة الهولنديين ، أو اليابانيين .

لم يكن الأمر راجعاً إلى أن الكنيسة في روما كانت تجهل الظروف المتأزمة ، التي كانت البعثة اليابانية تمر بها ، فلم تدع الرسائل التي بعث بها الدعاة مجالاً للشك في هذا . ومن ١٥٨٧ قلب الحاكم هايديوشى سياسة أسلافه رأساً على عقب ، وبدأ اضطهاداً مفزعًا للمسيحية ، بدأ الأمر أول ما بدأ حينما عوقب ستة وعشرون قساً ومعتنقاً للمسيحية ، في نيشيزاكا بنجازاكى ، أعقاب ذلك طرد المسيحيين على امتداد البلاد من دورهم ، وتعذيبهم ، ثم اعدامهم بضرراوة ، واتبع الشوجون توكيوجاوا السياسة ذاتها ، فأمر بطرد الدعاة كافة من اليابان

في عام ١٦١٤

تحدث التقارير ، التي بعثها المبشرون ، عن الكيفية التي تم بها ، في السادس والسابع من أكتوبر في ذلك العام عينه ، جمع سبعين قسا يابانيا وأجنبيا في كيياتشي بكيوشو ، وأرغموا على أن يستقلوا خمس سفن شراعية صينية ، كانت في طريقها إلى ماكاو مانيلا . أبحروا في طريقهم إلى المنفى . كان يوما مطيرا ، والبحر عاصفا ، في لون الرماد ، فيما كانت السفن التي لفها المطر مدرارا تشق طريقها خارج المرفأ ، مارة إلى جوار قنة الجبل الناتئة في البحر ، وتحجب وراء الأفق .

غير أن سبعة وثلاثين قسا أعرضوا عن مرسمون النفي القاسي هذا ، ورفضوا التخل عن رعيتهم ، ومكثوا سرا في اليابان . كان فيريرا واحدا من أولئك القسسين ، الذين اعتصموا بالسرية . واصل إبلاغ رؤسائه ، عن طريق الرسائل ، باعتقال الدعاة والمسيحيين والعقاب الذي أُنزل بهم ، ولا تزال باقية اليوم رسالة كتبها من نجازاكى في ٢٢ مارس ١٦٣٢ إلى الأسقف القائم بجولة تفقدية أندرو بالميرو ، مدليا فيها بوصف مسهب للأوضاع السائدة في ذلك الوقت

«في رسالتى السابقة ، أطلعت نيافتكم على موقف المسيحية في هذه البلاد ، والآن سأمضي قدما في إبلاغكم بما وقع منذ ذلك الحين . أسفر الأمر كله عن اضطهاد جديد ، قمع جديد ، معاناة جديدة ، دعوني أبدا الصورة التي أرسمها هنا بقصة للرجال الورعين الخمسة الذين اعتقلوا منذ عام ١٦٢٩ جراء تدينهم ، إن اسمائهم هي بارتلميو جوتيرز ، فرانشيسكو دي جيسوس ، فانسنت دي سان انطونيو ، المنتوى إلى سلك رهبنة القديس أوغسطين ، أنطونيو ايشيدا ، من جمعيتنا ، وجابريل دي سانتا مجدلينا الفرنسيسكاني .

حاول تاكيناكي أونيمى، حاكم نجازاكى ، أجبارهم على أن يرتدوا عن دينهم والهزلء بديتنا الحنيف ومعتنقيه ، إذ كان يأمل بأنه على هذا النحو سيطير بشجاعة المؤمنين ، لكنه سرعان ما أدرك أن الكلمات وحدها لن تهز أبدا ثبات

أولئك القسّس ، ولذا اضطر إلى اتباع مسلك مختلف ، أى إلقاءهم في جحيم الماء المغلى في أونزين .

أصدر أوامر بأن يجلب القسّس الخمسة إلى أونزين ، وأن يحيق بهم العذاب ، إلى أن يتخلوا عن دينهم ، على ألا يعدموا بحال . وبالاضافة إلى القسّس الخمسة ، أمر بتعذيب بياتريس داكوستا ، زوجة انطونيو داسيلفا وابنتها ماريا ، حيث إنهم بدورهما ، ورغم محاولات الاقناع كافة ، رفضتا التخلّي عن دينهما .

وفي الثالث من ديسمبر ، غادر الجمع نجازاكى ، في الطريق إلى أونزين ، حملت المرأةن في محتفين ، فيما وضع الرجال الخمسة على ظهور الخيل ، وعلى هذا النحو ، ودعوا المدينة . لدى وصولهم إلى الميناء ، على مبعدة من نجازاكى قيدت أذرعهم وأيديهم ، وغلت أقدامهم ، ووضعوا على سطح سفينة ، مقيدين في إحكام إلى أحد جوانبها .

بلغوا في ذلك المساء مرفأ أوباما ، عند سفح أونزين . في اليوم التالي ، تسلقوا الجبل ، حيث زج بالسبعة ، كل على حدة ، في كوخ صغير وظلوا ليلا ونهارا في عزلتهم . أذرعهم مقيدة والاغلال تحيط بأقدامهم فيما ضرب الحراس نطاقا من الحراسة حولهم . واصطف الحراس كذلك على امتداد الطريق إلى الجبل ، ولم يسمح لأحد ، دون تصريح من المسؤولين ، باجتياز ذلك الطريق .

في اليوم التالي، بدأ التعذيب بالطريقة التالية . واحدا إثر الآخر عزل السبعة عن يحيط بهم ، وجئ بهم إلى حافة بحيرة متقدة الماء ، وأتيح لهم النظر إلى الماء الغالى ، وهو يلقى برذاذة عاليا في الهواء . عندئذ أهيب بهم التخلّي عن تعاليم المسيح ، وإلا عانوا في أبدانهم ذاتها الألم المخيف الذي يبعثه الماء الغالى المتداهم بهم . جعل الطقس البارد البخار المتصاعد من البحيرة ، التي غطت الفقاقيع سطحها ، يبدو مفزعا حقا ، وكان من شأن مرأة فحسب أن يجعل رجلا قويَا

يصاب بالاغماء ، لولا رحمة الله . لكنهم جميعا ، بفضل من الله ورحمة ، أبدوا شجاعة منقطعة النظير ، بل وطلبو إيقاع العذاب بهم ، معلنين في ثبات أنهم لن يتخلوا عن دينهم الحنيف . ولدى سماع المسؤولين لهذا الرد الجسور ، مزقوا ملابس السجناء ، وقيدوهم من أيديهم وأرجلهم إلى أعمدة ، واغترفوا الماء الغالي بمغارات ، وصبوه على أجسادهم المعرابة . كانت هذه المغارف ذات صفات من الثقوب وملينة بها ، حتى تستغرق هذه العملية وقتا يعتقد به ، ويطول أمد المعاناة .

تحمل أبطال المسيح هذا العذاب الرهيب ، دون إجفال أو تراجع ، وحدها الصغيرة ماريا ، التي قهرها فيض معاناتها ، انهارت إلى الأرض من فرط العذاب . صاحوا : «ارتدت .. ارتدت» . حملوها إلى الكوخ ، أعادوها ، على جناح السرعة ، إلى نجازاكي . أنكرت ماريا أنها أرادت الارتداد ، بل توسلت إليهم حقا أن يعذبوها مع أمها والباقين ، لكنهم لم يلقو بالا إلى تосلاتها .

ظل الستة الآخرون ، على الجبل ، طوال ثلاثة وثلاثين يوما . خلال هذا الوقت ، كان القسيسان أنطونيو وفرانشيسكو وكذلك بياترييس قد عذب كل منهم ست مرات في الماء الغالي . عذب الأب فانسنت أربع مرات ، والأبوان بارتلميو وجابريل مرتين لكل منها غير أنه ، في غمار هذا كله ، لم تند أنه ألم أو تنهيدة عن أي منهم .

أبدى الأبوان أنطونيو وفرانشيسكو وكذلك بياترييس داكوستا بصفة خاصة ، والذين لم تفلح أفانين العذاب والوعيد والاغراءات من كل الأنواع في التقليل من جسارتهم ، شجاعة جديرة بالرجال . وبإضافة إلى التعذيب بالماء الغالي أخضعت بياترييس للمزيد من التجريد ، بإجبارها على الوقوف ، طوال ساعات ، فوق صخرة صغيرة عارية ، أمام استهزاء وإهانات العامة ، لكنها لم تتراجع ، حتى حينما بلغ سخط جلاديها أقصاه .

لم يكن بالمستطاع تعذيب الآخرين ، بالنظر إلى ضعف حالتهم الصحية ، بضراوة بالغة ، حيث لم يكن الحاكم يرغب في إعدامهم ، وإنما في جعلهم يرتدون ، ولهذا السبب حقاً ماضى إلى حد جلب طبيب للجبل للقيام على شأن الجروح .

غير أن أونيمى أدرك أخيراً أنه لن يحظى بالفوز أبداً ، بل كان الأمر على العكس ، فقد أبلغه اتباعه ، لدى رؤيتهم لشجاعة القسس ، أن ينابيع أونزين كافة ستجف قبل أن يكون بالإمكان اقناع رجال بمثل هذه القوة بتغيير عقيدتهم ، لذا قرر بإعادتهم إلى نجازاكى ، في الخامس من يناير ، أودع بياتريس دارا سيئة الصيت ، فيما زج بالقسس في السجن المحلي ، ولا يزالون هناك .

وكان من شأن هذا الكفاح بأسره نشر مذهبنا في صفوف الجمهور ، وتدعيم إيمان معتنقى المسيحية ، وأسفر الأمر كله عما يخالف مقاصد الطاغية» .

هكذا كانت رسالة فيرييرا . وما كان بوسع روما أن تصدق أن هذا الرجل يمكن ، أيا كان العذاب الرهيب الذي يعرض له ، أن يدفع إلى التخلّى عن عقيدته ، وأن يغفر وجهه بالتراب أمام الخارجين من رحاب الدين .

في ١٦٣٥ تجمع أربعة قسس حول الأب روبينو في روما ، كانت خطتهم أن يشقوا طريقهم إلى اليابان ، التي تعيش نضالاً مستميتاً في مواجهة الاضطهاد ، القيام بأعمال الدعوة سراً ، وللتکفير عن ردة فيرييرا ، التي جرحت بعمق بالغ كبراءة الكنيسة .

في البداية ، لم يحظ مشروعهم الجنوني بموافقة رؤسائهم ، فعلى الرغم من أن السلطات الكنسية قد تعاطفت مع الحماسة والحمية الحوارية ، التي دفعت إلى وضع مثل هذه الخطة ، إلا أنها شعرت بالتردد في إرسال المزيد من القسس إلى

مثل هذه البلاد، وإلى بعثة يكتنفها مثل هذا الخطر . من ناحية أخرى ، كانت تلك بلادا غرست فيها البذرة الطيبة كأوفر ما يكون منذ أيام فرانسيس كزافييه ، وكان تركها دون قادة روحيين ، والتخلي عن المسيحيين بها ، وتركهم لقدرهم ، أمرا لا يخطر على البال فضلا عن هذا ، فإنه في أوروبا تلك الأيام لم يكن اجبار فيريرا على التخلّي عن عقيدته ، في هذه البلاد النائية ، عند حواف العالم ، فشل فرديا ، وإنما هو هزيمة ، تبعث الشعور بالهوان ، بالنسبة للعقيدة ذاتها ، ولأوروبا كل . تلك كانت طريقة التفكير السائدة ، هكذا وبعد متابع ومصاعب شتى سمح للأب روبينو وزملائه أخيرا بالابحار .

غير أنه بالإضافة إلى هذه المجموعة ، كان هناك ثلاثة قسّس آخرون ، يعتزمون دخول اليابان سرا ، بالطريقة ذاتها ، لكنهم كانوا برتغاليين ، وكان السبب الذي يحدوهم للرحيل مختلفا ، إذ كانوا من طلاب فيريرا ، وقد تلقوا العلم على يديه ، في دير كامبولايد العتيق . بالنسبة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، فرانشيسكو جاربي ، جوان دي سانتا مارتا ، سbastián Rودريجيز ، كان من المستحيل تصديق أن معلّمهم فيريرا ، الذي يعجبون به أشد الاعجاب ، عُفر وجهه بالتراب ، كأنه كلب ، أمام اليابانيين حين واجه احتمال أن يلقى استشهادا مجينا ، وبهذه المشاعر خاطبوا السلك الرهباني البرتغالي .

سيمضون إلى اليابان ، ويتحرون الأمر بأعينهم . ولكن في هذه الحالة ، كما في إيطاليا ، تمهل رؤساؤهم في إبداء الموافقة . غير أنهم أخيرا ، وقد غلبهم إلهاف القسس الشبان ، وافقوا على إرسال هذه البعثة الخطرة إلى اليابان . كان

ذلك في عام ١٦٣٧

انطلق القسس الشبان الثلاثة ، وبالتالي ، يعدون لرحلتهم الطويلة الشاقة . كان من المعتاد ، في تلك الأيام ، بالنسبة للدعاة البرتغاليين الذين يمضون للشرق ، أن

يلحقوا بالأسطول المنطلق من لشبونة إلى الهند . كان رحيل هذا الأسطول الهندي إحدى الواقع الأكثر إثارة ، على امتداد العام ، في لشبونة . انتصب أمام نواضر الرجال الثلاثة ، في ألوان صافية الحياة ، مشهد مشرق ، هو من الدنيا في منتهاها ، ويبان تمتد في أقصى أطرافها . حين يغض الماء أطراف الخريطة ، يرى تجسيد أفريقيا ، ثم الهند ، تعقبها الجزر التي لاحصر لها ، وبلاط آسيا منتاثرة جميعها ، ثم في أقصى الشمال الشرقي ، ومثلما يرقانة الفراشة تماما ، يمتد شكل اليابان الدقيق . لكي يصل الماء إلى هذه البلاد عليه أولا أن يمضى إلى جوا في الهند ، ثم عبر البحر لأميال عديدة ، ولأسابيع وشهور على الماء أن يواصل المسير . منذ زمان القديس فرانسيس كزافييه ، كانت جوا البوابة التي يلجهها العمل في الدعوة بكامله في الشرق ، بها معهدان دينيان ، يدرس فيما الدعاة الأوروبيون الأوسع في البلد الذي يقصدونه . وفي بعض الأحيان ، كان الدعاة يضطرون للانتظار ستة أشهر ، وربما عاما ، قبل أن تناح لهم سفينة ، تقلهم إلى مقصدتهم .

جالد القسس الثلاثة ، بكل قوتهم ، للإلام بالظروف السائدة في اليابان ، قدر استطاعتهم ، ومن حسن الطالع أن العديد من التقارير ، التي أرسلها الدعاة البرتغاليون منذ عهد لوئي فروا ، كانت متوافرة ، فكشفت لهم النقاب عن الكيفية التي تبني بها الشوجون الجديد أيمتسو سياسة القمع ، على نحو فاق ما لجأ إليه أبوه وجده ، ومنذ عام ١٦٢٩ ، وبصفة خاصة في نجازاكى ، أوقع الحاكم تاكيناكا أونيمى ب المسلمين أكثر ضروب المعاناة الفظيعة تجردا من الإنسانية ، حين ألقى بهم في بحيرات الماء الغالى ، وهو يدعوهم إلى التذكر لعقيدتهم وتغيير دينهم . قيل إنه في اليوم الواحد كان عدد الضحايا يبلغ أحيانا مالا يقل عن ستين أو سبعين ضحية ، وبما أن فيريرا هو الذي بعث بهذا النبأ ، فما كان يمكن

أن يدور الشك حول صحته . وقد أدرك الدعاة الجدد على أى حال أنهم ينبغي ، من البداية ، أن يتسلحوا بالادرار وبالقناعة بأن منتهى رحلتهم الشاقة قد يضعهم فى مواجهة قدر أكثر اثارة للرعب من أى من ضروب المعاناة، التى تحملوها فى الطريق .

ولج سbastián Roderíguez فى ١٦١٠ فى بلدة تاسكو ، الشهيرة بنشاطها التعدينى ، رحاب حياة الرهبان ، فى السابعة عشرة من عمره . زامله جوان دى سانتا مارتا وفرانشيسكو جاربى ، وكلاهما صديق له ، فى الدراسة بمعهد كامبولايد الدينى . منذ الأيام الأولى للدراسة بالمعهد الثانوى ، أمضوا أوقاتهم عاكفين على الدرس . وعاشت فى وجданهم جميعا ذكريات متوجهة ، عن معلمهم الكهل فيريرا ، الذى درسوا اللاهوت على يديه .

كان فيريرا هذا بذاته فى مكان ما الآن من اليابان . هل تغير ذلك الوجه بعينيه الزرقاوين الصافيتين .. هل تغير على أيدي الجنادين اليابانيين ؟ ذلك كان السؤال الذى طرحوه على أنفسهم . استعصى عليهم أن يصدقو أن هذا الوجه يمكن أن يكون مشوحاً ، الآن ، جراء الاهانات التى انهالت عليه ، وما كان بمقدورهم أن يظنوا أن فيريرا قد أشاح عن رب ، ونأى عنه بجانبه ، ونبذ تلك الرقة الرقيقة التى كانت تسم أفعاله جميعها . أراؤوا أن يبلغوا اليابان ، من أى سبيل ، وأن يعرفوا كنه حقيقة المصير الذى قدر فيريرا .

في الخامس والعشرين من مارس ١٦٣٨، أبحر الأسطول الهندى من نهر تاجوس ، وسط دوى المدافع ، التى أطلقت من قلعة بيليم . كان الدعاة الثلاثة على متن السفينة سانتا إيزابيلا ، حيث صعدوا إلى سطح سفينة القيادة ، بعد أن باركهم الأسقف جواو داسكو . حينما بلغوا مصب النهر الغربى ، وانطلقا فى

رحا بزرقة البحر ، التي عانقتها الظهيرة ، انحنوا على جانب السفينة ، يرقبون القنة الناتئة والجبل مستمع كالذهب . ثمة ، امتدت جدران دور المزارع حمراء اللون ، الكنيسة ، ومن برجها حملت الريح نوى الأجراس ، التي قرعت تحية وداع للسفن الراحلة إلى عباب البحر .

الآن ، إلى رحلتهم حول افريقيا ، في الطريق إلى الهند . بعد ثلاثة أيام من الرحيل ، لطمتهن عاصفة هوجاء ، على الساحل الغربي لافريقيا .

في الثاني من أبريل ، بلغوا جزيرة بورتو سانتو ، بعدها وصلوا جزر الماديرا ، في ٦ إبريل بلغوا جزر الكناري ، حيث صادفوأ أمطاراً لاتنقطع ، تهمي من السماء ، التي لا تخدش سكونها هبة ريح . في السكون العارى تماماً من الرياح ، كانت الحرارة أقصى مما يحتمله البشر . عندئذ ، وبالإضافة إلى كل ما يعانونه ، انتشر المرض بينهم . على سطح «سانتا إيزابيلا» وحدها ، وفي مخادعها ، وقد ما يزيد على مائة ضحية يتوجهون . عكف روبيجيز ورفيقاه مع البحارة على العناية بالمرضى ، وتقديم العون في حجامتهم .

الخامس والعشرون من يوليو ، عيد القديس جيمس ، دارت السفينة أخيراً حول رأس الرجاء الصالح . في هذا اليوم ، هبت من جديد رياح هوجاء ، فتحطم قلع السفينة ، وهوى على سطحها ، بصوت عال ، استرعنى حتى المرضى مع روبيجيز ورفيقيه لإنقاذ القلع الأمامي من الخطر ذاته . ما إن أفلحوا في محاولتهم ، حتى ارتطمت السفينة بصخرة ، ولو أن السفن الأخرى لم تكن قريبة ، فتهاجر بالعون ، لقدر «سانتا إيزابيلا» أن تفرق ل ساعتها ، في ذلك الموضع .

بعد العاصفة هدأت الرياح . جثم القلع عارياً من الحياة . وحده ظله قاتم السواد سقط على وجود وأجساد المرضى ، الراقدين كالأموات على السطح . على

هذا النحو ، انقضت الأيام بعضها في أثر بعضها الآخر ، ووقدة الشمس المتألقة
تنصب سياطا على البحر ، الذي لا ترقش وجهه تجعيدة موجة .

أطالت هذه الأحداث الفاجعة أمد الرحلة ، حتى ندر الطعام والماء ، أخيرا في
النinth من أكتوبر ، بلغوا مقصدتهم جوا .

تمكنوا ، بعد الوصول ، من الإلمام بأنباء أكثر تفصيلا عن اليابان ،
بالمقارنة بما كان متاحا في الوطن . قيل لهم إنه منذ ينایير من العام الذي
أبحروا فيه قام خمسة وثلاثون ألف مسيحي باتفاقية في شيمابارا . وفي
غمار الصراع الذي نشب آنذاك مع قوات الباكونفو ، ذبح المنتفرون حتى آخر
رجل ، رجالا ، نساء ، شيبا ، شبابا ، ذبحوا جميعا . كنتيجة للحرب ؛ أقفرت
المنطقة ، حتى أن العين ما كانت لتقع على ظل بشري ، فيما طورد المخلفون من
المسيحيين ، واحدا إثر الآخر . غير أن النبأ الذي صدم رودريجيز ورفيقيه ،
أشد ما تكون الصدمة ، كان قيام اليابان ، كنتيجة لهذه الحرب ، بقطع علاقاتها
التجارية ومعاملاتها كافة مع بلادهم ، فقد حظر على السفن البرتغالية دخول
مرافئ اليابان .

بلغ هؤلاء القسسين الثلاثة ماكاو ، مدركين أن السفن البرتغالية ليس بمقدورها
حملهم إلى اليابان . فداخلهم اليأس .

كانت مدينة ماكاو ، فضلا عن كونها قاعدة العمليات البرتغالية في الشرق
الأقصى ، قاعدة للتجارة مع الصين واليابان ، ومن ثم كان هناك احتمال أن
ضربة من ضربات الحظ الحسن يمكن ، إذا ما انتظروا هناك ، أن تساعدهم في
مواصلة الرحيل .

ما أن وصلوا ماكاو ، حتى تلقوا نصيحة واضحة من الأسقف فاللينانو ، القائم

بأعمال التفتيش هناك ، في ذلك الوقت . قال إنه لا موضع للحديث الآن عن الدعوة في اليابان ، كما أنه لا يعتزم ارسال أى داعية إلى بلاد تحقق بها مثل هذه الأخطار إذ ينبغي أن يقال إنه منذ العهد الذي بدأ فيه الاضطهاد في اليابان عهدت بادارة الاسقفية التابعة لجمعية اليسوع في اليابان بكاملها إلى هذا الرئيس ، فاللينانو ، الذي أسس قبل عقد من الزمان ، في ماكاو ، كلية لإعداد الدعاة المتجهين إلى الصين واليابان .

فيما يتعلق بفيريرا ، الذي كان الرجال الثلاثة يعتزمون البحث عنه ، عقب وصولهم إلى اليابان ، أدلى فاللينانو بما يلى منذ عام ١٦٣٣ انقطعت الانباء كافة عنبعثة السرية ، فجأة وبشكل بات ، حتى البحارة الهولنديون العائدون من نجازاكي أن فيريرا أسر ، وعذب ، في الحفرة ، عقب ذلك ساد الغموض كل شيء ، واستحال بحث الوقائع الصحيحة . كان مرد ذلك أن البحارة الهولنديين غادروا اليابان في اليوم ذاته الذي علق فيه فيريرا بالحفرة الشئ الوحيد الذي يمكن أن يقال عن يقين هو أن فيريرا تعرض لمحكمة تفتيش ، على يد إينوي ، سيد شيكوجو ، الحاكم الذي عُين حديثا . وعلى أى حال ، فإن ارسالية ماكاو لايمكناها أن توافق على سفر القسس إلى اليابان ، في مثل هذه الظروف . ذلك كان الرأى الصريح ، الذي أعرب عنه فاللينانو .

بمقابلتنا اليوم أن نطالع بعض رسائل سbastian Rodriguez في مكتبة «معهد الدراسات التاريخية للأراضي الأجنبية» بالبرتغال . تبدأ أولى هذه الرسائل في الوقت الذي حدث فيه فاللينانو رودريجيز ورفيقيه عن الموقف في اليابان .

الفصل الأول

رسالة سباستيان رو دريجيز

السلام على المسيح والثناء له .

كنت قد أبلغتك كيف أنشأنا وصلنا إلى جوا ، في التاسع من أكتوبر ، الآن في الفاتح من مايو ، بلغنا ماكاو . في غمار هذه الصعوبات والمشاق جميعها ، التي تكبدها جراء الرحلة ، حل الاعياء البالغ بجوان دى سانتا مارتا ، ويبدو أنه أصيب بالملاريا ، هكذا ، فإننى وفرانشيس جاربى نعمل بأقصى ما فى وسعنا فى كلية الارسالية هنا . ويفقينا أننا قوبلنا بترحاب رائع .

غير أن المشكلة هي أن الأب فالينانو عميد الكلية ، الذى أنفق عقدا من الزمان هنا ، يعارض تماما رحلتنا إلى اليابان . في غرفته المطلة على الخليج ، حدثنا تفصيلا ، وهاك لب ما قاله : « إننى مضطر لرفض إرسال المزيد من المبشرين إلى اليابان ، فالرحلة عبر البحر باللغة الخطورة ، بالنسبة للسفن البرتغالية ، وستصادفون العوائق شتى ، قبل أن تطأ أقدامكم تلك البلاد » .

ليست معارضته مجافية للمنطق تماما ، وذلك في ضوء الحقيقة القائلة بأن الحكومة اليابانية قامت منذ ١٦٣٦ ، وفي ضوء تشكيكها في أن البرتغاليين كانوا على صلة ما بتمرد شيمابارا ، بقطع العلاقات التجارية كافة معهم ، وبصورة شاملة . لم يقتصر الأمر على هذا ، وإنما في غمار الرحلة من ماكاو كانت البحار القريبة من اليابان تعج بالسفن الحربية الانجليزية والهولندية ، التى دأبت على فتح النار على سفننا التجارية .

قال جوان دى سانتا مارتا ، طارفا بعينيه ، محموما مع ذلك فإن ارساليتنا السرية يمكن بعون الله أن تكلل بال توفيق . فى تلك الأرض الموبوءة فقد المسيحيون قسsem ، وغدوا مثل قطيع أغنام بلا راع ، لابد لأحد أن يمضى ليهبهم الشجاعة، وليتيقن من أن شعلة الإيمان الواهنة لن تنطفئ .

لدى سماع هذه الكلمات ، مر ظل عابر بوجه فالينانو ، فالتزم الصمت . يقينا أنه كان حتى اليوم حائرا بين واجبه كرئيس ومصير المسيحيين التعساء المضطهددين ، من ثم لم ينبع العجز بكلمة ، وأراح جبينه على يديه .

من غرفته ، كان بمقتول المرء أن يشاهد مرفأ ماكاو ، فى البعيد ، كان البحر داميا ، تحت الشمس الغاربة ، طفت سفن شراعية سوداء على سطح الماء ، متباشرة هنا وهناك ، محاكية لطخا سوداء .

- ثمة شيء آخر ، لدينا واجب إضافي ، فنحن نتشد العثور على الحقيقة ، فى شأن معلمنا فيريرا .

- لم نحط بالمزيد عن فيريرا ، والأنباء المتعلقة به غامضة ، على أى حال ليس لدينا ، فى الوقت الراهن ، أى خطط لتبيان وجه الحقيقة من الزيف ، فيما قيل عنه.

- أهو حى ؟

- حتى هذا لا نعرفه ..

قالها فالينانو ، رفع رأسه ، وندت عنه تنهيدة عميقه ، وهو يضيف :

- فجأة انقطعت التقارير ، التى كان يبعث بها إلى فى انتظام منذ عام ١٦٣٣ ، وليس بمقتولنا ، فى الوقت الراهن ، أن نقول شيئاً عما إذا كان قد أصيب بمرض ، هلك فى أعقابه ، أو أنه يرقد فى سجن الخارجين من رحاب الدين أو -

كما تتصورون - ظفر بشهادة مجيدة ، أو أنه لا يزال حيا ، يحاول ارسال تقرير ما ، دون أن يستطيع ذلك .

لم يتفوه فاللينانو بكلمة واحدة ، عن الشائعات التي دارت حول أن فيريرا قد انهار ، تحت وطأة عذاب أعدائه ، كان شأننا يتوقف إلى تفنيد مثل هذه الاتهامات الوهمية ، التي كيلت لصديقه القديم .

تحدث فاللينانو ، الآن ، ببعض التأكيد

- فضلا عن ذلك .. فقد ظهر في اليابان حاليا شخص ، هو مصدر رعب حقا للسيحيين ، اسمه اينو .

تلك كانت المرة الأولى التي نسمع فيها اسم اينو . استطرد فاللينانو ، قائلا إنه بالمقارنة بوحشية اينو يبدو رجل مثل تاكيناكا ، الحاكم السابق لناجازاكى ، الذي ذبح العديد من المسيحيين ، شخصا سانجا .

لكى نطبع على أسطع ذاكراتنا اسم هذا الياباني ، الذي ستقاه يقينا ، عقب نزولنا ساحل اليابان ، مرارا وتكرارا رحنا نردد المقاطع الغربية
إ - ي - نو - ي .

توافرت لدى فاللينانو معلومات كثيرة عن هذا الرجل ، من التقرير الأخير الذى بعث به المسيحيون فى كيشو . غدا عمليا ، منذ تمرد شيمابارا ، العقل المفكر لحملة اضطهاد المسيحيين ، كان على العكس من سلفه تاكيناكا ، خبيثا كالحية ، حتى أن المسيحيين الذين لم يعرفوا وجوهم بالتراب ، حتى الآن ، فى مواجهة التهديدات وأفانين العذاب ، راحوا يتلقون واحدا إثر الآخر أمام الأعيان الماكرة .

- والحقيقة المحزنة أنه كان من معتنقى ديننا ، بل إنه من عملوا بالكنيسة . ربما يكون بمقدوري تزويدكم بالمزيد من المعلومات عن هذا الجلاد ، فيما بعد ، لكن ما أريد أن أحدثك عنه الآن هو أن فاللينانو ، رغم كونه رئيساً حذرا ، قد تأثر بالحافنا أخيرا ، وبصفة خاصة من جانب جاربي ، ووافق على إرساليتنا السرية إلى اليابان . هكذا سبق السيف العزل . من أجل هداية اليابان ، ومجد رب ، شققنا طريقنا إلى الشرق ، الآن نواجه مستقبلاً تكتنفه يقيناً مخاطر ومحاصب ، أعظم من تلك الرحلة البحرية حول أفريقيا وعبر المحيط الهندي ، ولكن «إذا اضطهدوكم في مدينة ، فاهربوا إلى غيرها » في فؤادي تصاعدت يوماً كلمات سفر القيامة ، حول أن الكيرباء والمجد والقوة لله وحده .

سبق لي أن حدثتك بأن ماكاو تقع عند مصب نهر شوكيانج العظيم ، شيدت على إحدى الجزر العديدة التي تملأ مدخل الخليج ، وشأن مدن الشرق كافة ، لا يحيطها سور ، بحيث يستحيل تحديد موقع تخومها . تمتد دور الصينيين كالغبار ، ولكن أيا كان عدد مدن وبلدان وطننا التي تتصورها ، فلن يتاح لك تخيل ما هي عليه . ويقال إن عدد السكان حوالي عشرين ألفا ، لكن هذا الرقم غير صحيح ، على وجع التقريب ، والأشياء الوحيدة هنا ، التي يمكن أن تذكرك ببلادنا ، هي قصر الحكم والمتاجر البرتغالية والشوارع المرصوفة ، ثمة قلعة مسلحة بالمدافع ، تشمخ مواجهة الخليج ، ولكن من حسن الطالع أنه لم يقع حتى اليوم ما يدعو إلى اطلاقها .

لم يبد الجانب الأعظم من الصينيين اهتماماً بتعاليمنا ، ويقيناً فإن اليابان في هذا الصدد ، على نحو ما قال القديس فرانسيس كزافييه ، «أكثر بلاد الشرق ملامعة للمسيحيين» غير أنه - وبالمقارنة - نتيجة لمنع الحكومة اليابانية لسفن

البابان من الانطلاق الى أراضي أجنبية سقط احتكار الحرير في الشرق الأقصى بأكمله في أيدي التجار البرتغاليين في ماكاو ، حتى أن دخل هذا الميناء الاجمالي يتوقع أن يرتفع إلى أربعين ألف سيرافيم (١) بالمقارنة بمائة سيرافيم في العام الماضي والعام قبل الماضي .

لدى اليوم أنباء رائعة لك . نجحنا بالأمس في مقابلة ياباني ، في السابق ، كان هناك ، فيما يبدو ، عدد كبير من اليابانيين ، من رجال الدين ، والتجار ، يأتون إلى ماكاو ، ولكن مع إغلاق اليابان في وجه العالم الخارجي ، توقفت مثل هذه الزيارات ، بل إن القلة الذين كانوا هنا عادوا إلى بلادهم ، وحتى حينما سألنا فاللينانو ، تلقينا الرد القائل بأنه ليس هناك ياباني في الجزيرة ، رغم ذلك ، عثرنا بالمصادفة المحضة على ياباني ، يقيم وسط الصينيين ، في هذه البلدة دعني أحدثك كيف التقينا .

بالأمس - وكان يوماً مطيراً ، على نحو فظيع - زرنا القطاع الصيني من المدينة ، لزرت إن كان بوسعنا ، بشكل من الأشكال ، أن نحصل على مركب ، يشق طريقه إلى اليابان سرا . أردنا العثور على قبطان وبحارة . ماكاو تحت المطر .. إن المطر يجعل هذه البلدة التعيسة أكثر تعاسة ، كان رماد كاب يلف المكان بأسره ، فيما هجر الصينيون ، الذين تكافأوا في دورهم الصغيرة - التي تبدو كأوجار الكلاب - الشوارع القدر ، حتى خلت من أي ظل لحياة بشرية حينما أحدق في مثل هذه الشوارع أفك (أتساءل لم؟) في أحجية الحياة الإنسانية ، فيلفني الحزن .

مضينا إلى دار الصيني ، الذي جرى تعريفنا به ، وتحدثنا عن شأننا ،

(١) السيرافيم : هو ضرب من العملات الذهبية ، رفيعة القدر ، ويشير قاموس أكسفورد في طبعته المدمجة ، إلى أن الاسم ربما كان مشتقاً من العملة العربية المعروفة باسم «الشريفي»

فأبلغنا، على وجه القطع ، بأن هناك يابانيا في ماكاو ، يرغب في العودة إلى وطنه . استجابة لطلبنا ، انطلق فتاه الصغير ، بحثا عن الياباني .

ماذا أقول عن هذا الرجل ، أول ياباني ألقاه في حياتي ؟ مترنحا جراء السكر ، دلف سكير متعرضا إلى الحجرة ، كان في حوالي الثامنة أو التاسعة والعشرين من العمر ، يرتدي خرقا ، كان اسمه كيشيجورو ، حينما رد أخيرا على أسئلتنا ، علمنا أنه صياد من منطقة هاينز ، قرب نجازاكى ، كان قد ضل طريقه في البحر ، قبل انتفاضة شيمابارا الشهيرة ، فاللتقطته سفينة برتغالية ، لست أدرى ما إذا كان ذلك يرجع إلى خماره ، بدت أمارات الخبث على محياه ، كانت عيناه تدوران في مجراهما ، وهو يتحدث .

- أessianي أنت ؟

ند السؤال عن جاري ، لكن الرجل لزم الصمت فجأة ، كأنه بطلينوس^(١) لم نستطع أن نفهم لم جعله سؤال جاري تعسا إلى هذا الحد . في البداية ، لم يكن يريد الحديث إطلاقا ، لكنه أخيرا استسلم لإلحافنا ، وشرع شيئا فشيئا يحكى قصة اضطهاد المسيحيين في كيوشو ، وهاك هي ، في قرية كوراساكى بمنطقة هاينز ، شاهد أربعة وعشرين مسيحيا يخضعون للعقاب بالمياه ، على يد ديمبو المنطقة^(٢) . ثبتت أعمدة خشبية في البحر ، غير بعيد عن الشاطئ ، وقيد المسيحيون إليها . حينما كان المدى يقبل ، كان الماء يرتفع حتى علامة معينة ، ثم ينحسر . تدريجيا حل الإعفاء البالغ باليسريين ، بعد نحو أسبوع لقوا مصرعهم ، جراء هذا العذاب الأليم . ترى

(١) البطلينوس : حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي يضرب به المثل في الصمت (م . م) .

(٢) ديمبو : هو لقب للنبالة في اليابان الاقطاعية يعادل لقب البادن الأوروبي . وقد ألغى في العصود الحديثة ، لاحظ أن هذا اللقب كان يرتبط ، غالبا إلى جانب النبالة ، بالقيادة الحربية ، والتمسك بالتقاليد العسكرية .

هل استطاع نيرون طاغية روما ذاته أن يبتدع مثل هذا الأسلوب الضارى
فى القتل ؟

مع استمرار حوارنا ، لاحظنا شيئاً غريباً ، بينما كان كيشيجiro يصف هذا المشهد ، الذى يقف له شعر المرء ، انقلبت سحنته ، وفجأة تداعى إلى رحاب الصمت ، لوح بيده ، كأنما انتصب ذكرى مروعة من الماضى لطارده ، وإنى لاتسأله عما إذا لم يكن بعض أصدقائه ومعارفه بين هؤلاء الذين تعرضوا للتعذيب بالماء ، ربما كنا قد وضعنا أصبعنا على جرح ناجر ، كان ينبغي ألا يمس .

طرح جاربى السؤال مجدداً بـال حاج : « طيب . أنت مسيحي على أى حال ؟
ألاست كذلك ؟

قال كيشيجiro هازا رأسه : « لست كذلك . كلا ، لست كذلك » .

- إنك ، على أى حال ، ترغب فى الرجوع لـليابان ، ولدينا المال لـشراء مركب ولجمع قبطان وبخاره ، لذا إذا أحببت العودة إلى بلادك ..

عند هذه الكلمات ، تألقت في خبث ، هاتان العينان اليابانيتان ، السكيرتان ، مصفرتا القذارة . ظل صاحبها مقعياً ، على ركبتيه ، في ركن الحجرة ، وبصوت مرتفع ، كأنما يتحدث دفاعاً عن نفسه ، توسل طالباً السماح له بالعودة إلى بلاده، ولو لرؤية أقاربه المحبوبين ، الذين ظلوا في الوطن فحسب .

على هذا النحو ، بدأت تعاملاتنا مع هذا الشخص عصبي المزاج ، في الغرفة المعتمة ، القذرة ، واصلت ذبابة الطنين والدوار . على الأرض ، جثمت زجاجات الساكي^(١) الفارغة ، التي كان عاكفاً على ما بها . لكنه أمر طيب أن نلتقي بهذا الشخص ، ذلك أننا حينما نرسو على ساحل اليابان ، لن نعرف

(١) الساكي شراب ياباني مسكر ، يعد من الأرز المخمر ، ويقوم عادة حاراً ، يقارب تأثيره ، الأنواع القوية من شراب العرقى المعروف .

يمينا من يسارا ، ينبغي لأحد أن يووينا . سيتعين علينا أن تتصل بالسيحيين ، الذين يمكنهم حمايتنا . هكذا فإن بوسعنا اتخاذ هذا الرجل كدليل أول لنا .

لفتره طويلا ، جلس كيشيجiro مواجهها الحائط ، ضاما ركبتيه ، وغارقا في التفكير في الشروط التي عرضناها عليه ، ثم وافق . الأمر بالنسبة له مغامرة ، تحفل بالمخاطر ، لكنني أظن أنه يحس بأنه إذا ما ضاعت منه هذه الفرصة ، فلن يتمكن أبدا من العودة لليابان .

يبدو بفضل الأب فاللينانو كما لو كنا ، على أي حال ، نوشك على الوصول إلى مركب شراعي ضخم ، ولكنكم هى هشة وعابرة خطط البشر ، فقد بلغنا اليوم نبأ التهام النمل الأبيض للمركب . ويصعب هنا الحصول على الحديد والقطران .

أعکف يوميا على كتابة هذا التقرير شيئا فشيئا ، حتى أنه يبدو كيوميات دون تاريخ ، فعليك بالصبر في قراءته . قبل أسبوع ، حدثتك بأن المركب الذي أفلحنا في الحصول عليه التهمه النمل الأبيض على وجه التقريب ، لكننا الآن والحمد لله، وجدنا طريقة لقهر هذه العقبة ، لسوف نطلق داخل المركب ، ثم نبحر إلى تايوان. فإذا ما بدا أن هذا الإجراء الوقائي لايزال فعالا ، سنمضي مباشرة إلى اليابان ، ونسأله الحماية ، حتى لا تصادفنا عاصفة هائلة ، في بحر الصين الشرقي .

عندى هذه المرة أنباء سيئة لك . سبق أن أخبرتك بأن سانتا مارتا ، الذي أجهدته الرحلة البحريّة الطويلة المؤلمة تماما ، يبدو كما لو كان قد أصيب بالملاريا ، الآن ، مرة أخرى ، عادته حمى وبيلة ، تصحبها رعشة ، تعم البدن كله ، لزم الفراش بإحدى حجرات الكلية الدينية ، لن يكون بمقدورك ، وقد سبق لك أن عرفته

في عنفوان صحته قبلًا ، أن تخيل كيف أصبح مهزولاً ، على نحو بائس ، ومحطم البدن ، عيناه غائمتان ، محمرتان ، إذا ما وضعت منشفة مبللة على رأسه تغدو حارة ، كأنما غمست في ماء حار ، وذهابه للبابان ، وهو في مثل هذه الحال ، أمر لا يخطر بالبال . يقول فاللينانو إننا إذا لم نتركه ليعالج ، فليس بوسعي السماح لنا بالقيام بالرحلة .

قال جاري ليبعث العزاء في نفس مارتا سنمضي نحن أولاً ، نمهد الطريق ، حتى يمكنك القدوم ، فيما بعد ، حينما تبل من مرضك .

ولكن هل بمقتور أحد أن يتباً بما سيقع ؟ لربما يحيا حياة آمنة سعيدة ، بينما يعتقدنا الخارجون شأن الكثيرين من المسيحيين .

ظل مارتا صامتاً . كست لحية كثيفة نامية ذقنه وصدغيه ، راح يحدق في النافذة ، ما الذي دار في ذهنه ؟ بمقتورك ، وأنت الذي عرفته طويلاً ، أن تفهم يقيناً مشاعره ، اليوم ، الذي صعدنا فيه على سطح السفينة ، وتلقينا بركة الأسقف داسكو ، وأبحرنا خارجين من نهر تاجوس ، تبعته رحلة طويلة رهيبة ، حل بسفينتنا الظمة والمرض ، ولم تحملنا كل هذا ؟ لماذا شققنا طريقنا إلى هذه البلدة المتداعية في الشرق الأقصى ؟

نحن القسس طائفة حزينة من البشر ، على نحو ما ، ولدنا في هذا العالم ، لخدمة الإنسانية ، ليس هناك من هو أكثر تعاسة في توحده من القس الذي لا يضطلع بمهنته . كان مارتا ، خاصة منذ وصولنا إلى جوا ، يستشعر أخلاصاً بالغاً للقديس فرانسيس كزافييه ، كل يوم في صلاته بكنيسة القديس في الهند كان يدعو الله أن يتبع له الذهاب إلى اليابان .

رحنا ندعوه الله ، كل يوم ، لعله يسترد صحته سريعاً ، لكن حالته لم تتحسن ،

غير أن الله يهب الإنسان مصيرا يفوق ما يمكن للمعرفة البشرية أن تتصوره أو تبتدعه . حان موعد رحيلنا ، لم يبق عليه إلا أسبوعان ، فليجعل كل شيء على ما يرام .

العمل في اصلاح المركب يتقدم سريعا . تجعله الألواح الجديدة ، التي أضفناها إليه ، عقب المتابع التي سببها النمل الأبيض ، يبدو مختلفا تماما ، يبدو الأمر كما لو أن البحارةخمسة والعشرين ، الذين وجدهم لنا فاللينانو ، سيحملوننا إلى ساحل اليابان ، يلوح هؤلاء الصينيون ناحلين ، بائسين ، كمرضى لم يمسوا طعاما منذ شهور ، لكن قوة أيديهم ، الصالبة كالأسلاك ، لا يصدقها العقل ، بوسعهم أن يرفعوا بهذه الأيدي المعروفة ، أثقل صناديق الطعام في يسر ، تبدو سواعدهم مثل قضبان حديدية ، ونحن على أى حال ، لا ننتظر إلا ریحة مواتية لكي نبحر .

أما عن الياباني ، كيشيجورو ، فإنه يختلط بالبحارة الصينيين ، يحمل المتابع ، يعاون في اصلاح الشراع ، لكننا لا نهدى فرصة لمراقبة شخصية هذا الياباني ، الذي قد يتوقف عليه مستقبلنا بأسره ، عن كتب ، أدركنا الآن أى شخص خبيث هو ، وينبع خبيثه من ضعف شخصيته . اصح إلى ما حدث قبل أيام ، حينما كانت تقع عليه عينا المشرف الصيني ، كان يتظاهر بالعمل بكل قوته ، ما أن يبتعد المشرف ، حتى يبدأ على الفور في التكاسل ، في البداية لم يقل البحارة الآخرون شيئا ، لكنهم حينما طال الأمر ، ما عاد بوسعهم الاحتمال ، فانهالوا عليه ضربا ، ليس ذلك في ذاته بالأمر المهم ، لكن ما أذهلنا هو أنه عندما ضربه ثلاثة من البحارة ، فطروحه أرضا ، وركلوه في غلطة ، علاه شحوب الموت ، جثا على الرمل حيث سقط ، توسل طالبا العفو ، على أقبح صورة بمقدورك تصورها .

مثل هذا السلوك أبعد ما يكون عن أى شئ بوسعك أن تدعوه بالصبر المسيحي ، لكن جبن هذا المستخدي كان على هذا النحو تماما ، رفع رأسه الذى دفن فى الرمال ، وصاح بشئ ما باليابانية ، كان الرمل يغطى أنفه وخديه ، ولعاب قذر ينسال من فمه ، الآن أدركنا لم صمت فجأة كالبطلينوس حينما أتينا أول مرة على ذكر المسيحيين اليابانيين ، ربما حين يتحدث يعاني خوفا مفزعا من كلماته ، أيا ما كان الأمر ، فإن هذه المشاجرة ، التى دارت من طرف واحد ، انتهت ، حينما تدخلنا لصالحه أخيرا ، فساد الهدوء كل شئ ، ومنذ ذلك الحين وكيشيجورو يحيينا بابتسمة مستخذية .

- أمسيحي أنت حقا ؟ شرفاً أنت كذلك؟

كان سؤالاً نموذجياً من أسئلة جاربي ، لم يخل من لمسة مريرة. لكن كيشيجورو أكد بشدة ، وقد بدت عليه الدهشة، أنه كذلك . كان جاربي قد صدق ، بسذاجة بالغة ، جملة وتفصيلاً ، حديث الكثيرين من المبشرين عن «هذه الأمة ، التى لا يهاب أبناؤها حتى الموت» صحيح ، بالطبع ، أن هناك يابانيين تحملوا التعذيب المتواصل خمسة أيام ، دون أن يهتز يقينهم، لكن هناك بالمثل مستخددين، غارقين فى الجبن، مثل كيشيجورو. وإلى مثل هذا الرجل علينا أن نعهد بأنفسنا، بعد أن نبلغ اليابان. كان قد وعد بتوصيلنا إلى المسيحيين، الذين سيقدمون لنا المأوى، لكننى أتساءل ، الآن وقد رأيت سلوكه، إلى أى حد يمكن الوثوق به. لكن لا تظن أنه بسبب النحو الذى أكتب به أننا قد فقدنا طاقتنا وحماسنا. بل الأمر على العكس من ذلك. فحينما أفكر فى أننى قد عهدت بمستقبلى إلى شخص من نوع كيشيجورو لا يسعنى إلا أن أغرق فى الضحك . حينما تتأمل الأمر ، تجد أن اليسوع عهد بمصيره إلى أناس لا يوثق بهم . على أى حال ، فليس هناك بديل، فى ظروفنا الراهنة ، عن الوثوق بكيشيجورو ، لذا فدعنا نثق به.

ثمة أمر واحد يبعث على القلق حقاً، إنه سكير على نحو مفزع ، حين ينتهي يوم عمله، ينفق كل فلس يتلقاه من يد المشرف على الساكي، وسلوكه حينما يطاله الخمار يدخل في باب ما لا يقال، ليس بوسعي الا أن أستخلص أن ثمة ذكرى تطارده، ثمة شيئاً يحاول نسيانه بالشراب.

يتربّد في ليل ماكاو الصوت الحزين المتطاول للنفير، حين ينفح فيه لنوبة حراسة القلعة. هنا ، كما في الوطن ، يجري منح البركة في الكنيسة بديرنا ، بعد العشاء، ثم يدلّف القسّيس والأخوة بالدير، وكل يحمل شمعته في يده، إلى غرفهم وفق العادة المتبعة.

مضى الخدم لتوهم، عبر الفناء. أطفئت الأنوار، في غرفتي جاري وسانتا مارتا. تلك حقاً أقصى بقاع الأرض.

أجلس في نور الشمعة، ويداي فوق ركبتي ، أحدق أمامي. أواصل في ذهني تقلّب فكرة أنتي في أقصى بقاع الأرض، في مكان لست تعرفه، ولن تزوره طوال عمرك، شعور راجف يملاً كيانى، وتحت أهدابي تتنصب ذكري تلك الرحلة الطويلة الرهيبة، فيمتنى صدرى المأ. يقيناً أن وجودى في هذه البلدة الشرقية، النائية تماماً، مجھولة الذكر، يحاکى حلاماً. أو إذا بدأت في التفكير بأنه ليس حلاماً، أحس بأنى أود أن أصرخ بأنه معجزة. أصحّح أنتي في ماكاو؟ ألسنت في حلم؟ ليس بمقنوري تصدق هذا الأمر كله.

على الجدار صرصار ضخم. وصوته المزعج يخدش صمت الليل الجليل.

«اذهبوا إلى العالم كله، واعلنوا البشرة إلى الناس أجمعين، كل من يؤمن ويتعبد يخلص ، ومن لا يؤمن يهلك».

تلك كانت كلمات المسيح ، الناهض من الأموات ، لحواريه، الذين التفوا به

لتناول العشاء. الآن فيما أذعن لهذا الأمر، ينهض وجه المسيح بإزاره عيني. كيف يبدو وجه المسيح؟ هذه النقطة يتجاوزها الانجيل في صمت. تعلم حق المعرفة أن المسيحيين الأوائل كانوا يظنون المسيح راعياً. العباءة القصيرة ، الرداء البسيط دونها، يد تمسك قائمة الحمل ، فيما الأخرى تلتف حول عصا. هذا الشكل مألوف في بلادنا ، فنحن نراه منعكساً في الكثيرين من الناس الذين نعرفهم. تلك هي الكيفية التي تصور بها المسيحيون الأوائل وجه المسيح الرقيق. ثم في الكنيسة الشرقية، يجد المرء الأنف الطويل والشعر المجعد واللحية السوداء. هذا كله يخلق مسيحاً شرقياً. أما فنانو العصور الوسطى فقد صور الكثيرون منهم وجهاً للمسيح متألقاً بسلطان ملك. غير أن الوجه الليلة لاح لى وجه لوحة محفوظة في بورجوسان سيبالخرو. لا يزال متجمداً في ذاكرتى العهد الذى رأيت فيه، للمرة الأولى، هذه اللوحة، حينما كنت طالباً بالمعهد الدينى. كانت إحدى قدميه في القبر وفي يده اليمنى يمسك صليبياً ، يواجه الرائي مباشرةً ، وعلى ملامحه ارتسم تعبير التشجيع الذي علاه حينما أمر حواريه ثلاثة مرات: «ارع خرافي، ارع خرافي، ارع خرافي... . إنه وجه يحفل بالقوة والبأس، استشعرت حباً عظيماً لذلك الوجه، فتنت دائماً بوجه المسيح، تماماً مثلما يفتتن رجل بوجه محبوبته.

أخيراً، لم تبق إلا خمسة أيام فحسب على رحيلنا. ليس لدينا على الإطلاق متع نحمله لليابان ، إلا قلوبنا. لا تشغeln إلا الاستعدادات الروحية وحدها يا للحسرة ! لستأشعر بميل للكتابة عن سانتا مارتا. فلم يهب رب لرفيقنا المسكين بهجة استرداد عافيته. لكن كل ما يفعله الله هو خير لنا. يقيناً أن الرب يعد في خفاء البشارة ، التي ستكون ذات يوم من نصيبه.

الفصل الثاني

رسالة سباستيان رو دريجيز

عليك سلام الله

المجد للمسيح

لست ادرى كيف أتحدث ، فى خطاب واحد قصير ، عن الأحداث التى لاتحصى ، والتى حفلت بها حياتى خلال الشهرين الماضيين ، فضلاً عن أتنى، فى وضعى الراهن، لا أعلم ما إذا كانت هذه الرسالة ستصلك من عدمه . لكن حالي المزاجية غدت على نحو لا يمكننى معه الامتناع عن الكتابة، ذلك أنى أشعر بأن من واجبى أن أترك لك شيئاً مكتوباً على الورق.

بورك مرکبنا، لثمانية أيام من مغادرتنا ماكاو ، بطقس صحو، على نحو غير مأثور، كانت السماء صافية الزرقة وانتفع الشراع بالريح. كان بمقدورنا أن نشاهد جماعات السمك الطائر تتلاقى كالفضة ، فيما هي تتقاذف خارجة من رحم الأمواج، كل صباح كنت أنا وجاربى نقيم قداساً ، على سطح السفينة متقدمين بآيات الشكر لله على رحلتنا الآمنة ، لكن الوقت لم يطل بنا قبل أن تلطمها عاصفتنا الأولى. فى السادس من مايو ، بدأت ريح قوية تهب من الجنوب الشرقي . كان البحارة رجالاً مخضرمين ، أنزلوا الشراع ، رفعوا شراعاً أصغر في مقدمة المركب، لكننا الآن كنا في عماء الليل ، والشىء الوحيد الممكن هو التخلى عن مرکبنا للرياح والأمواج . فى الوقت نفسه، أصاب صدع عظيم مقدمة المركب ، وشرع الماء في التدفق إليها . عكفنا طوال الليل تقريباً على محاولة رأب الصدع ونزح المياه.

ما أن أطل الفجر، حتى هدأت العاصفة، فما ملكت أنا وجاري والبحارة إلا أن القينا بأنفسنا، في إعياء بالغ، بين أكياس المtau، ورحا نحدق في السحب الغليظة، القاتمة، الراحلة نحو الشرق. ثم، استيقظت في فؤادي ذكرى القديس فرانسيس كزافيه، يقيناً أنه كان بدوره في الهدأة، التي تعقب مثل هذه العاصفة، يحدق في السماء الحلبية، ثم في الأعوام الثمانية التي أعقبت ذلك كم من المبشرين والكهنة المتفقهين أبحروا حول ساحل أفريقيا مروراً بالهند، عبروا هذا البحر ذاته، ليبشروا بالإنجيل في اليابان. هناك الأسقف سيركيرا، هناك أورجانتينو جوميز، لوبيز، جريجور ريو.

لو أن المرء بدأ في تعدادهم لما بلغ النهاية. كان من بينهم البعض مثل جيل دي ماتا، ومن لاقوا حتفهم في سفينة غارقة، وأعينهم عالقة باليابان. الآن ألمت بفكرة عن الانفعال الهائل الذي ملا صدورهم، ومكثهم من تحمل هذا العناء الرهيب. حدق هؤلاء المبشرون العظام جميعاً في كل من السحب الحلبية، والسحب الغليظة، القاتمة، الراحلة نحو الشرق. ترى أي أفكار كانت تعن لهم في مثل هذه الأوقات؟ بوسعي أيضاً أن أتصور هذا.

إلى جوار متاع المركب، كان كيشيجورو، استطاعت سماع صوته. خلال العاصفة، لم يقم هذا الجبان الجدير بالاشفاق بأي محاولة، على وجه التقرير، لتقديم المساعدة للبحارة. الآن رقد تاعس الشحوب، وسط المتاع. تناثر حوله قيء أبيض، راح يغمغم بشيء ما، باللغة اليابانية.

نظرنا مع البحارة بازدراء إلى هذا الرفيق. كنا أكثر اعياء من أن نهتم بيابانيته المتعثمة، لكنى بالمصادفة التقطت متداخلة في تراكيب جملة الكلمات «الرحيمة» و«سانتماريا». يقيناً أن هذا الشخص، الذى كان يحاكي خنزيراً دفن وجهه وسط قيءه، لفظ مرتين كلمتي «سانتا ماريا».

تبادلـت أنا وجاري نظرات خاطفة . أمن المـكن أن يعتنق ديناً ... هذا البائـس الذي لم يكتـف طـوال الرـحلة بـعدم تقديم المسـاعدة ، وإنـما كان مـصدراً مـلـموساً للمـتابـع لا . مـستـحـيل ، فـالإيمـان لا يـمـكـن أن يـحـول إـنسـاناً إـلى مـثـل هـذا الجـبان.

رفع كـيشـيجـيـرو وجهـاً اـتسـخ بـقـيـئـهـ، وـحدـجـنا بـنـظـرـةـ أـلمـ ، ثـمـ بـخـبـثـهـ المـعـتـادـ تـظـاهـرـ بعدـمـ فـهـمـ النـظـرـاتـ المـتـسـائـلـةـ، الـتـىـ كـنـاـ نـشـبـتـهاـ عـلـيـهـ. اـبـتـسـامـتـهـ المـسـتـخـذـيةـ. كـانـتـ لـهـ أـكـثـرـ الضـحـكـاتـ الـتـىـ يـمـكـنـكـ تـصـورـهـاـ تـزـلـفـاـ وـخـنـوـعاـ. كـانـتـ تـخـلـفـ دـائـمـاـ شـعـورـاـ مـرـيـراـ فـىـ حـلـوقـنـاـ.

قال جـارـبـيـ ، رـافـعاـ صـوـتهـ

ـ إـنـىـ اـسـأـلـكـ فـاعـطـنـىـ رـدـاـ وـاضـحاـ . أـمـسـيـحـىـ أـنـتـ أـمـ لـاـ ؟

أـوـمـاـ كـيشـيجـيـروـ بـرـأـسـهـ بـقـوـةـ ، نـظـرـ الـبـحـارـةـ الـصـينـيـونـ ، مـنـ مـكـانـهـ وـسطـ أـكـيـاسـ الـمـتـاعـ ، لـلـأـمـرـ كـلـهـ بـمـزـيـجـ منـ الفـضـولـ وـالـازـدـراءـ . إـذـاـ كـانـ كـيشـيجـيـروـ مـسـيـحـيـاـ فـلـمـ يـمـضـىـ إـلـىـ حدـ إـخـفـاءـ الـأـمـرـ بـرـمـتـهـ حـتـىـ عـنـاـ نـحـنـ الـقـسـسـ؟ـ كـانـ تـخـمـيـنـيـ أـنـ هـذـاـ الرـفـيقـ الرـعـدـيدـ يـخـشـىـ أـنـنـاـ لـدـىـ وـصـولـنـاـ إـلـىـ الـيـابـانـ قـدـ نـسـلـمـهـ لـلـمـسـئـولـيـنـ ، كـاشـفـيـنـ النـقـابـ عنـ حـقـيـقـةـ كـوـنـهـ مـسـيـحـيـاـ ، وـمـنـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ ، إـذـاـ لـمـ يـكـنـ مـسـيـحـيـاـ حـقـاـ ، فـكـيفـ يـمـكـنـ تـفـسـيرـ الرـعـبـ الـذـىـ نـذـتـ بـهـ كـلـمـاتـ «ـالـرـحـيمـةـ»ـ وـ«ـسـانـتـاـ مـارـيـاـ»ـ عـنـ شـفـتـيـهـ . إـنـ هـذـاـ الشـخـصـ يـثـيرـ اـهـتـمـامـيـ ، عـلـىـ أـىـ حـالـ،ـ وـأـحـسـ يـقـيـنـاـ بـأـنـنـىـ سـالـمـ بـسـرـهـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ

لـمـ يـلـحـ أـثـرـ لـلـأـرـضـ حـتـىـ الـيـوـمـ ، مـاـ مـنـ دـلـالـةـ عـلـىـ وـجـودـ جـزـيرـةـ ، اـمـتدـتـ السـمـاءـ المـدـلـهـمـةـ بـلـاـ اـنـتـهـاءـ، فـىـ بـعـضـ الـاحـيـانـ كـانـتـ أـشـعـةـ الشـمـسـ تـبـلـغـ المـرـكـبـ ، حـتـىـ لـتـتـقـلـ عـلـىـ الـجـفـونـ. غـلـبـتـنـاـ الـكـآـبـةـ، فـتـعـلـقـتـ أـعـيـنـاـ بـالـبـحـرـ الـبـارـدـ ، حـيـثـ كـانـتـ نـوـاجـذـ الـأـمـواـجـ تـائـلـقـ مـثـلـاـ بـرـاعـمـ بـيـضـاءـ . لـكـنـ اللهـ لـمـ يـتـخلـ عـنـاـ

على حين غرة علت صيحة صاكرة من بحار ، كان قابعاً كالميت في مؤخرة المركب . هناك من الأفق الذي كان أصبعه يشير إليه أقبل طائر ملحاً جاء هذا الطائر الذي حلق عبر المحيط ، ليترأح على الشراع ، وقد أنهكته ، وأودت بعافيته ، عاصفة البارحة . تلت ذلك أغصان لا حصر لها اقتربت طافية على سطح الماء . كان هذا برهاناً حقاً على أن الأرض التي تقنا إليها شوقاً ليست بعيدة ، لكن فرحتنا انقلبت سريعاً إلى شعور بالخطر لئن كانت تلك هي اليابان حقاً ، فإن علينا التأكد من أننا لم نرصد ، حتى من قبل أصغر المراكب . يقيناً أن بحارة مثل هذا المركب سيهرعون في الحال لإبلاغ المسؤولين بأن مركباً ، يقل أجانب ، يقترب من الساحل على

جناح الأمواج

جثمت أنا وجاري وسط المتابع ، مثماً كلبين ، فيما كنا ننتظر حلول الظلام ، رفع البحارة شراعاً صغيراً في مقدمة المركب ، وقاموا بمحاولات جسورة للبقاء بعيداً عن القن، التي لاحت مثل الساحل الرئيسي.

أقبل منتصف الليل . تقدم المركب في سكون . من حسن الطالع أن لم يكن ثمة قمر في السماء ، التي بدت فاحمة السوداد . لم يعثر أحد علينا ، نهد الساحل الرئيسي أمامنا ، لاحظنا أننا نلتج مباشرة مرفأ ، نهضت جبال منحدرة على جانبيه ، الآن غداً بوسعنا كذلك أن نلمح جميعاً من الدور تكايات فيما وراء الشاطئ . كان كيشيجورو أول من خاض الماء نحو الشاطئ ، تبعته ، أعقبنا جاري بالخطو في الماء البارد كالثلج . أهذه هي اليابان ؟ أم هي جزيرة تتبع بلاداً أخرى ؟ لم يكن لدى أى منا صراحة فكرة عن هذا الأمر

اختفينا صامتين ، في حفرة صغيرة ، فيما مضى كيشيجورو ليستطلع الموقف . اقترب وقع أقدام من حيث جثمنا . بينما تشبتنا بثيابنا المبللة ، وأمسكنا انفاسنا ،

رأينا أمامنا مباثرة ، شبح امرأة عجوز ، متلفعة ، تحمل سلة على ظهرها . لم تلحظ وجودنا ، ومضت لطيتها ، انداح وقع قدميها في الليل . مرة أخرى ، هبط الصمت القاتل على الشاطئ استعبر جاربي قائلاً : «لن يرجع . لن يرجع . أين تراه ذهب ذلك الرعديد خفيق العقل؟».

لكنني كنت أفكر في مصير أكثر رهبة . إنه لم يهرب ، وإنما مضى ، شأن يهودا؛ ليخوننا ، سرعان ما يظهر مجدداً ، ومعه الحراس قال جاربي ، مرتلأ من الكتاب المقدس «فجاء يهودا إلى هناك بجنود وحرس أرسل لهم رؤساء الكهنة والفريسيون ، وكانوا يحملون المصابيح والمشاعل والسلاح».

رحنا نفكر في ليل حديقة الجثمانية ، حينما أسلم اليهوع نفسيه ، دونما تراجع للرجال ، لكن الوقت تمطى بصلبه ، في بطء بالغ ، حتى كادت روحي تزهق . كان الأمر مفزعاً حقاً ، تحدى العرق عن جبيني ، منسابة إلى عيني ، ثم هل وقع أقدام . كانت جماعة من الناس تندو ، ونور مشاعلهم يتقد كثيراً في العتمة ، اقتربوا أكثر فأكثر دفع أحدهم بمشعله إلى الأمام ، وفي ضوئه لاح الوجه القبيح ، مسوداً وأصهب معاً ، لعجز ربيعة ، فيما أحاط به خمسة أو ستة من الشباب ، راحوا يطلون علينا بعيون خائفة

- أبت .. أبت ! (١)

رسم العجوز الصليب ، فيما لفظ هاتين الكلمتين ، رنت في صوته غنة رقيقة من الأسى لمحتنا . أما بالنسبة لنا فإن كلمة «أبت» هذه ، التي نطقت بلساننا

(١) الكلمة المستخدمة في النص الأصل هي Padre ، لاحظ أن لها المعنى نفسه في اللغات البرتغالية والاسبانية والانجليزية (د . م) .

البرتغالي المحبوب، كانت شيئاً لم نحلم بسماعه أبداً في هذا المكان غنى عن القول أن العجوز ما كان بمقدوره أن يلم بأكثر من هذا من البرتغالية ، لكنه رشم أمام أعيننا الصليب ، مظهرا رابطة تجمعنا معا، كان هؤلاء حقاً مسيحيين يابانيين نهضت من الرمل ، كأنى فى دوامة أخيراً وضعت قدمى على أرض يابانية اكتسحني ادراك هذه الحقيقة بقوة هائلة

كان كيشيجورو يقف ، متخاذلاً ، خلف الآخرين ، بابتسامته المستخذية المعهودة ، كان يبدو دائمًا كجرذ ، على أهبة الهرب لدى أي طارىء . أدميت شفتى من فرط الشعور بالعار لقد اتخد اليسوع عابرى السبيل موضعًا لشقته ، لأنه أحب البشر كافة ، وها أنذا تخامرني الريبة بهذا الانسان الواحد ، كيشيجورو.

- هلما واصلا المسير!

كان العجوز هو الذي يتحدث ، راح يستحثنا هامساً:

- ليس ب�能ورنا أن ندع الأغيار يروننا.

«الأغيار» كلمة أخرى من لغتنا يعرفها الآن المسيحيون. لقد علمهم أسلافنا منذ عهد كزافيه هذه الكلمات، أى عرق وعنة اقتضاه دفع المحراث في هذه الأتربة القاحلة ثم تخصيبها وزرعها ، حتى بلغت هذه المرحلة الراهنة نعم غرست البذرة، فأنبتت فارعة الآن كانت مهمتها الكبرى مع جاربى أن نكلأهما بالرعاية ، حتى لا تذوى وتهلك.

في تلك الليلة ، أبقونا مختبئين ، تحت سقف دارهم الخفيض . قريباً كانت ثمة حظيرة للماشية تنتقل منها الرائحة الخبيثة إلى حيث رقدنا غير أنهم راحوا يؤكدون لنا ألا خطر هناك لكن كيف استطاع كيشيجيرو أن يعثر على المسيحيين بمثل هذه السرعة ؟

في اليوم التالي ، قمت أنا وجاري ، قبل أن يطل الفجر ، بتبديل ثيابنا ، ارتدينا ملابس فلاحين ، رقينا مع اثنين من الفتيا ، الذين قابلناهم ليلة الأمس ، ج بلاً يمتد خلف القرية. أراد المسيحيون أخفاعنا هناك كان لديهم ثمة مكان أكثر أمناً ، كوخ حطاب. انبعثت غمامه كثيفة على الغابات ، وجثمت فوق الدرب الذي كنا نسلكه. سرعان ما استحال الغمامه رذاذأ

حينما بلغنا مقصدنا ، سمعنا للمرة الأولى ، اسم المكان الذي ألفينا أنفسنا فيه . كان قرية صيد يقال لها توموجى ، لا تبعد كثيراً عن نجازاكي ، تضم حوالي مائة عائلة ، وقد عمّد الجانب الأكثر من أبناء القرية بالفعل في الكنيسة.

تساءلت

- وكيف تجري الأمور الآن؟

- نعم يا أبتي!

قالها موكيشى ، وهو شاب كان برفقتنا ، تبادل هو وصديقه النظرات ، استطرد قائلاً:

- ليس بمحضورنا الآن أن نفعل شيئاً . لئن كشفت حقيقة أننا مسيحيون لقتلنا جميعا .

كيف أصف الفرحة التي غمرت وجهيهما ، حينما وهبناهما الصليبيين ، اللذين كنا نعلقهما حول رقبتيما . انحنى كل منهما ، حتى أوشك أن يمس الأرض ، ضغطا الصليبيين على جبينيهما ، وغابا طويلاً في صلاة . كانوا يفتقدان مثل هذه الصليبان ، فيما يبدو ، من سنوات عديدة

- أمن الممكن أن يكون بين ظهرانينا قس؟

تشبث موكيشى بيدى ، وهو يتحدث

- وماذا عن الرهبان ؟

غنى عن القول أن هؤلاء الناس لم تقدر لهم مقابلة قس أو راهب ، طوال ست سنوات إلى ست سنوات خلت ، ظل راهب يابانى هو ميجيل ماتسودا وراهب من الجزوiet هو ماتيودى كوروس على اتصال بهذه القرية وما جاورها ، عن كتب ، غير أنها فى نوفمبر ١٦٣٣ ، إذ شفهما الكدح والعناء ، انطلقا معاً إلى رحاب ينالان فيه خير الجزاء .

- لكن ما الذى حدث خلال هذه السنوات الست؟ ماذا عن العماد والأسرار المقدسة ؟

كان جاربى هو الذى طرح هذا التساؤل . وقد هز رد موكيشى جوانحنا ، حتى أعمق أغوارنا ، وإنى لراغب حقاً فى أن أرفع إلى رؤسائى عن طريقك ما قاله - وليس لرؤسائى وحدهم وإنما للكنيسة بأسرها فى روما . فيما هو يتحدث ، رحت أستعيد كلمات الانجيل عن بذرة ما تقع على أرض طيبة، فتنمو، وتعطى أكلها ، فى كل سنبلة عشر حبات ، ثلاثون حبة، ستون حبة أو مائة حبة، ذلك أنهم دون قسس أو رهبان يقفون إلى جوارهم، وفي غمار آلام حملة اضطهاد رهيبة ، على يد الحكومة، شاروا سرا صرخ تنظيمهم من أجل تدبر أمر الأسرار المقدسة، فأبقوا على شعلة إيمانهم متقدة.

على سبيل المثال ، فى توموجى تألف هذا التنظيم على النحو التالى تقريباً اختيراً أحد الكهول من المسيحيين ليعهد إليه بمهام القس (أدبى لك هنا ، دون أى تعديل ، ما قاله موكيشى لى) يشغل العجوز الذى قابلناه البارحة عند الشاطئ أرفع المناصب (يدعونه «جيساما») يحيا حياة ورعة ، ويعهد إليه بمهمة عماد الأطفال . يلى الجيساما مجموعة من الرجال ،

يعرفون باسم « توساما » ، مهمتهم تعليم المسيحيين وقيادتهم في الصلاة . ثم هناك مساعدون يعرفون باسم « ميديشى » والجميع منخرطون في صراع الحياة والموت هذا للحفاظ على جنة الائمان متوجهة .

- وهذا كله يحدث في توموجى وحدها ..؟

طرحت هذا السؤال متحمسا ، أضفت

- أعتقد أن القرى الأخرى تبقى صرح الائمان على النحو ذاته ، وبهذا التنظيم عينه

في هذه المرة هز موكىشى رأسه . لم يقدر لي أن أعلم ، إلا في وقت لاحق ، أنه في هذه البلاد ، حيث لعلاقة الدم أهمية قصوى ، يمضى سكان القرية الواحدة ، رغم ارتباطهم الوثيق فيما بينهم ، إلى حد النظر بعين العداء إلى سكان القرى الأخرى

- نعم ، أبى ! لا استطيع إلا الحديث عن أهل قريتنا وحدها ، فالمبالغة في الاتصال بالقرى الأخرى قد تنتهي بتوجيه الاتهام علينا أمام المحاكم .

لكنى ألحقت في رجاء موكىشى وأصدقائه أن يهتموا بأمر القرى الأخرى كذلك . كنت أشعر بأنه ينبغي بأسرع ما يمكن ابلاغ الآخرين بأنه من جديد أقبل قس حاملاً صلبيه في يده إلى هذه الأرض القفر ، التي تخلى عنها الجميع .

منذ ذلك الوقت ، سارت حياتنا بشكل أو باخر وفق النهج التالي ، في قلب الليل كنا نقيم القدس ، على نحو ما كان أسلافنا يفعلون في سراديب الموتى ، ثم حين يطل الصباح كنا نصعد الجبل مرة أخرى ، وننزل في مخبئنا بانتظار مقدم أى من المسيحيين ممن قد تطيب لهم زيارتنا . كل يوم كان اثنان منهم يجلبان لنا طعام يومنا . كنا نصفى للاعترافات ، ندلل بالنصائح ونعلمهم كيف يؤدون الصلاة . خلال النهار ، كنا نبقى بباب كوخنا الصغير

محكم الأغلاق ، ونحضر الاتيان بأذني صوت ، خشية أن يسمعنا عابر سبيل . غنى عن البيان أننا ماكنا لنوقد ناراً ، حتى لا يلمح أحد اثر الدخان ، ثم تحسبا لكل طارىء ، حفر موكيشى وصديقه نوعاً من الكهوف تحت أرض الكوخ ذاتها ..

ليس مما يدخل في نطاق المستحيل أن ثمة مسيحيين لا يزالون موجودين في القرى والجزر الواقعة إلى الغرب من توموجى ، لكننا ما كان بوسعنا أن نتحرك خارج الكوخ نهاراً .. رغمأ عن ذلك ، فقد عقدت العزم ، مهما كانت النتائج ، على السعى وراء القطبيع المتوحد ، الذي هجره الرعاة لعلى أعنث عليه

الفصل الثالث

رسالة سباستيان رو دريجيز

في هذه البلاد ، يفتح شهر يونيو الموسم المطير ، قيل لي إن الأمطار تنهر متواصلة طوال ما يزيد على الشهر ، ولربما حين يهطل المطر يخفف المسؤولون من وطأة رقابتهم ؛ لذا فإنني أعتزم انتهاز هذه الفرصة ، لأضرب في المنطقة المجاورة ، باحثاً عمن بقي من المسيحيين. أريدهم أن يعرفوا بأسرع ما في الإمكان أنهم لم يتركوا بمضيغة.

أبداً لم يقدر لي أن أعرف بمثل هذا العمق كم هي مجده حياة القس ، فهو لاء المسيحيون يشبهون فلكاً في عاصفة ، بينما خارطة يستدل بها ، وإنى لأraham دون قس أو راهب واحد يشجعهم ويعزيهم يفقدون الأمل تدريجياً ، ويضربون في عماء تائهي

بالأمس هطل المطر مرة أخرى . وليس هذا المطر بالطبع إلا رسولًا ينبيء عن مقدم الحرارة ، لكنه طوال اليوم يحدث صوتاً كثيفاً ، فيما هو يهمي في الأجواء المحيطة بكوكخنا ، تهتز الأشجار ، وترتعد ، فيما قطرات المطر تناسب بين فروعها. عندئذ أحاذل أنا وجاري ، لاصفين وجهينا إلى الشقوق الرفيعة في الباب الخشبي ، أن نحدق في العالم المحيط بنا ، فلا نبصر إلا المطر والمزيد من المطر ، عندئذ نستشعر الغضب يتتصاعد في صدرينا . إلام تستمر هذه الحياة؟ ضاق صدرنا معًا ، وتتوتر أعصابنا يقيناً ، حتى أن أيًاً منا إذا أتى أدنى هفوة كان الآخر يرمي به عينيه أفعمتا لوما ، وما تلك إلا نتيجة أعصاب شدت يوما بعد الآخر كوتر قوس

لكن دعنى الآن أقدم لك المزيد من المعلومات التفصيلية عن هؤلاء الناس، أهالى قرية توموجى إنهم فلاحون فقراء ، يحتالون على العيش بزراعة البطاطس والقمح، فى حقول محدودة الرقعة، ليست لديهم حقول لزراعة الأرز، حينما ترى كيف زرعت الأرض عاليًا حتى منتصف الجبل المواجه للبحر يذهبك لا الحدق الذى لا يعرف الوهن لهؤلاء الناس ، وإنما قسوة الحياة التى ورثوها. رغمًا عن ذلك ، فإن حاكم نجازاكى يحصل منهم عوائد متفاقمة التصاعد ، الحق أقول لك إن هؤلاء الفلاحين كدحوا طويلاً، طويلاً ، كالخيل والماشية ماتوا حتى أنفهم . ان السبب فى أن ديننا قد توغل فى هذه الأرض ، مثلما الماء ينداح فى الأرض العطشى، هو أنه منح هذه الجماعة من البشر دفئاً انسانياً ، ما عرفوه من قبل قط، للمرة الأولى التقوا أناساً يعاملونهم كمخلوقات بشرية . كانت رقة الآباء الإنسانية وكرمهם هى التى مست أفئتهم

لم ألتقط بعد أهل توموجى كافة ، فاتقاء للمسئولين، لا يصعد إلا اثنان فقط من أهل القرية إلى كوخنا الصغير كل ليلة الحق أقول إنه رغمًا عنى فإنتى لا أتمالك من الضحك حينما اسمع الكلمات البرتغالية واللاتينية المدغومة فى أفواه هؤلاء الفلاحين الجهلة: «الرب» «الملائكة» و«الرحيم» وما إلى ذلك ، إنهم يدعون سر الاعتراف المقدس «العرف» أما السماء فيدعونها « علين» أما الجحيم فهو «جهنم» ليست أسماؤهم هي وحدها التي يصعب تذكرها ، لكن وجوههم جميعاً تبدو سواءً بسواء. الأمر الذى يسبب حرجاً غير قليل ، فنحن نخالط بين ايشيزو وسايسوكى ، وتشابه علينا أوماتسو مع امرأة أخرى تدعى ساكاي

سبق لي أن حدثتك قليلاً عن موكيشى ؛ لذا أود الآن أن آتى على ذكر اثنين من المسيحيين . ايشيزو رجل فى حوالى الخمسين من العمر ، يأتى إلى كوخنا ليلاً ، يعلو سيماه دائمًا ما يدعوك للظن بأنه حانق ، لا ينبع ببنت شفة ، خلال

شهوده القدس، وبعد الفراغ منه. غير أنه في الحق ليس حانقاً على الاطلاق،
فليس ذلك إلا التعبير الذي يعلو طبيعياً محياه ، هو فضولي على نحو فذ ،
يرقب بدقة كل حركة وإيماءة أتياها أنا أو جاري ، بعينيه الضيقتين ، اللتين
تؤطرهما التجاعيد

قيل لي إن أوماتسو هي شقيقة ايشيزو الكبرى، فقدت زوجها ، منذ عهد بعيد،
وهي أرملة الآن ، جاءت مرتين إلى كوخنا مع ابنة أخيها سين حاملة على ظهرها
سلة طعام لنا . شأن ايشيزو ، هي دائبة السؤال، راحت تصدق في أنا وجاري مع
ابنة أخيها، فيما كنا نتناول وجبتنا، وبالها من وجبة! بمقدورك أن تخيل كم هي
بائسة ... مجرد حبات قلائل من البطاطس المقلية وما ، وفيما كنت أنا وجاري
تببلغ بها ، راحت المرأة تنظران إلينا ، ضاحكتين ، باغبطة باد
ذات مرة ، صاح جاري محتداً

- أحن غريبان حقاً ؟ هل طريقتنا في الأكل مضحكة إلى هذا الحد؟
لم تفهموا كلمة مما قال ، لكنهما انفجرتا ضاحكتين ، وقد تجدد وجهاهما
كالورق

لكن دعني أحدثكم بال المزيد ، عن ذلك التنظيم السرى، الذى أنشأه المسيحيون.
سبق لي أن أوضحت لك ما يتعلق بشأن مركزى الجيساما والتوساما، من حيث
إن الأول مسئول عن سر قربان العماد ، وأن الثانى يقوم بمهمة تعليم المؤمنين
الصلة وتلقينهم تعاليم الدين . وقد وضع شاغلو مركز التوساما ، فضلاً عن ذلك،
تقوياً سنوياً يضم كل أعياد الكنيسة ، وهم يعلمون المؤمنين وفقاً لهذا التقويم،
ومما يقولون يستفاد أنه يتم الاحتفال بأعياد الميلاد والجمعة الطيبة والفحص
جميعها من قبل أولئك التوساما . غنى عن القول إنهم ~~لا يستطيعون~~ أقيونة في احدى الدور،
في هذه الأيام ، حيث إنه لا يوجد قبس ، لكنهم يعرفون ~~أقيونة~~ في أحدى الدور،

ويرثون صلواتهم أمامها (إنهم يؤدون صلواتهم باللاتينية مثلك تماماً ... «أبانا الذي» و«السلام لك يامريم» وما إلى ذلك) وفي فترات الراحة بين صلواتهم ، يتحدثون عن أى شيء وعن كل شيء. لا أحد يعلم متى يمكن أن يقبل المسؤولون مقت testim الدور ، لكن إذا ما حدث ذلك فإن كل شيء معد، بحيث يمكن للمسيحيين القول بأنهم كانوا في لقاء ما بعضهم مع البعض الآخر.

منذ انتفاضة شيماء بارا ، بذل حاكم هذا الإقليم جهداً بالغ الدقة لمطاردة المسيحيين المختفين، في كل يوم يدور المسؤولون متقددين كل قرية بدقة، في بعض الأحيان يقتحمون فجأة داراً ، وفي وقت لا يتوقعه أحد

على سبيل المثال ، صدر منذ العام الماضي مرسوم يحظر على أى كان إقامة سور أو فاصل بين داره ودار جاره . أرادوا أن يتمكن الجميع من الاضطلاع على دخلية بعضهم البعض، حتى إذا لاحظ أمرؤ في سلوك جاره ما يريب أبلغ عنه في التو . وكل من يبلغ عنا نحن عشر القسسين يتلقى مكافأة مقدارها ثلاثة قطعة فضية . أما بالنسبة لمن يرشد عن راهب فالمكافأة هي مائتا قطعة فضية، وكل من يبلغ من مسيحي يتلقي مائة قطعة . ولست بحاجة إلى إبلاغك أى إغراء يشكل مثل هذا المبلغ ، بالنسبة لهؤلاء الفلاحين المعدمين ؛ من ثم فإن المسيحيين لا يثقون بأحد ، على وجه التقرير ، من أهالى القرى الأخرى .

أخبرتك بالفعل أن موكيشى وايشيزو لهما وجهاً تجرداً من أى تعبير . الآن أدرك السر في ذلك ، فهما لا يستطيعان أن يسجلوا على صفحات وجهيهما أى أسى ، أو حتى أى فرح ، لقد جعلت سنوات التقى الطويلة وجوه هؤلاء المسيحيين كالاقنعة . هذا أمر مرير ومحزن حقاً . لم حمل الله مسيحيينا بمثل هذا القدر ؟ ذلك أمر لم أفلح في فهمه .

في رسالتى التالية ، سأحدثك عن بحثنا عن غيريرا ، وكذاك عن إيفونى

(أتدكر ؟ إنه الرجل الذى قال عنه فالينانو ، فى ماكاو ، إنه أول من ينبغى أن
نحسب له حسابا) رجاء ابلاغ آيات توقيرى ووعدى بالصلادة لأجل الرب لوشيوس
دى سانكتس

هطل المطر كررة أخرى اليوم . رقدت أنا وجاربى ، فى الظلمة ، على القش
الذى نتخذه فراشاً ، قمل صغير يزحف على عنقى وظهرى ، فيغدو النوم
مستحيلا ، يتزم القمل اليابانى الهدوء نهاراً ، لكنه فى الليل يجوب أجسادنا
يا للقمل الوحشى الذى لا يرعى حرمة لأحد

لم يحدث أن رقى الجبل أحد إلى كوخنا فى مثل هذه الليلة المطيرة ؛ من ثم
أتىحت لنا فرصة لا لنريح جسدينا فحسب ، وإنما كذلك أعصابنا المشدودة حد
التمزق ، من خلال التوتر اليومى . مصغياً إلى صوت المطر المتسلط من الأشجار
فى الأجمة ، عادت أفكارى تحوم مرة أخرى حول الأب فيريرا

كان فلاحو توموجى يجهلون كل شيء عنه تماماً . لكنه من المؤكد أنه حتى
١٦٣٣ كان الأب يقوم بالبشرارة سراً فى نجازاكى ، غير بعيد عن الموضع الذى
كنا فيه ، فى ذلك العام ، على وجه الدقة . انقطع كالوتر كل اتصال بينه وبين
فالينانو فى ماكاو . ترى ألا يزال حيا ؟ أيمكن أن يكون صحيحا ، على نحو ما
تترخص الشائعات ، إنه عفر جبينه فى التراب كالكلب أمام الخارجين من رحاب
الدين ونبذ كل ما وهب حتى الآن حياته من أجله ، وبفرض أنه حى أتراه بدوره
يصفى لصوت هذا المطر الباعث على الاكتئاب ؟ وبأى مشاعر ؟

فجأة ، التفت إلى جاربى الذى كان غارقا حتى الأذن فى معركته مع القمل
تخفت من عذابى بقولى : «لئن استطاع أحدنا الذهاب إلى نجازاكى ، فربما
عثرنا على مسيحيين يعرفون الأب فيريرا» .

فى الظلمة كف جاربى عن تقطبه والتواه وسعاله . ثم عقب قائلا :

- إذا أمسكوا بنا فستكون تلك هي النهاية ، تلك ليست مشكلة كلينا فحسب وإنما الخطر يمتد إلى هؤلاء الفلاحين حولنا . على أى حال ، لا تننس أننا السناد الأخير للإنجيل في هذه البلاد

ندت عنى تهديدة عميقه ، رفع جسده عن القش ، وركز نظرته على ، بمقدوري أن أحدس النحو الذى يفكر به . مرت أمام عينى وجوه موكيشى وايشيزو وصغار توموجى واحداً إثر الآخر . لكن أما يستطيع أحد المضى إلى نجازاكى بدلاً منا ؟ كلا . لن يحل هذا بيوره شيئاً . إن لهؤلاء الناس أقارب وعوائل ، يختلف وضعهم تماماً عن وضع قس لا زوجة له ولا أطفال .

غامرت بطرح سؤال :

- ماذا لو طلبنا من كيشيجيرو الذهاب إلى نجازاكى ؟
ندت ضحكة جافة عن جاربى . استعدت كذلك ذلك المشهد على سطح المركب شبح كيشيجيرو الرعديد ، بوجهه المدفون فى القذر ، ضاماً يديه ، سائلاً البحارة الرحمة

قال رفيقى معقباً

- جنون ، فليس بوسعك أن تثق به مقدار شعرة عندئذ غرقنا فى صمت طويل . راح المطر يلطم بانتظام سقف كوخنا الصغير ، مثلاً ينساب الرمل عبر ساعة رملية شفيفة . ها هنا يتوحد الليل والعزلة

غمقت :

- ونحن بيورنا سيمسكن بنا ، شأن فيريرا

رد جاربي مسرعاً

- ما يعني أكثر من ذلك هو تلك الحشرات الزاحفة على امتداد جسمى منذ قدومه إلى اليابان ظل على استبشاره دوماً ، لربما كان يحس بأنه من خلال التفاؤل والمرح يمكن أن يمنحك الشجاعة لنا معاً . الحق أقول لك إن شعورى أنهم لن يوقعوا بنا . ما الانسان إلا مخلوق غريب ، يراوده دوماً شعور ، فى قرار مكين من فؤاده ، بأنه أيا كان الخطر الذى سيواجهه ، فإنه سيفلح فى تجاوزه ، يشبه الأمر ، على وجه الدقة ، حينما تتصور فى يوم مطير أشعة خافتة من سنا الشمس تتلاقى على تل ناء . ليس بمقدورى تخيل نفسى لحظة يضع اليابانيون أيديهم علىّ . ففى كوخنا الصغير يساورنى شعور بالأمان الأبدى ، ولست أدرى لم الأمر كذلك . إنه شعور غريب

أخيراً أقلعت السماء ، بعد ثلاثة أيام ، لم يكف المطر خلالها عن الهطول ، بمقدورنا الحكم بذلك فحسب من الشاعر الأبيض ، الذى ينسى من سنا الشمس ، متخللاً ثغرة فى الباب الخشبى لکوخنا

قلت

- دعنا نخرج لحظة !

أومأ جاربي موافقاً ، بابتسمة فرحة

حينما فتحت الباب ، الذى بلله المطر انساب تغريد الطيور من وسط الأشجار ، مثلما غدير يترقرق ، لم يسبق لي قط أن شعرت على هذا القدر من العمق بفرحة أن يكون المرء حياً اقتعدنا الصخور قرب الكوخ ، ونزع كل منا الكيمونو الذى يرتديه . بدا القمل المتشبث بطيات الثوب كتراب أبيض تماماً ، فيما رحت أسحقه واحدة بعد الأخرى بقطعة من الحجر . أحسست باختلاجة

من البهجة تستعصى على الوصف . أترى هذا هو ما يشعر به المسؤولون حينما يمسكون بالمسيحيين ويوربونهم موارد الهاك ؟

لا يزال بعض الضباب يتلألأ فى الغابات ، لكن السماء الزرقاء تلوح بohen من خلاله . بعد طول الاعتكاف فى كوخنا . ها أنذا أقف فى العراء ، كرة أخرى ، أحدق متشفوفاً نحو عالم البشر ، فيما أخوض غمار معركة حامية الوطيس مع القمل

- ليس ثمة ما نخافه

تألقت أسنان جاربى البيضاء ، فيما هو يبتسم ابتسامة مرحة ، معرضًا صدره أشقر الشعر لأشعة الشمس ، أضاف

- لا أدرى لم كانت أعصابنا متواترة على هذا النحو ، علينا مستقبلاً أن نمنع أنفسنا ، فى بعض الأحيان على الأقل ، مسرة حمام شمس

هكذا ، ظلت السماء يوماً بعد الآخر على صفائها ، وفيما ازدادت ثقتنا بأنفسنا غدونا أكثر جرأة تدريجياً ، كنا نسير معاً ، عبر المنحدرات فى الغابة ، وقد فضحتنا رائحة الوريقات الندية والطمى كان جاربى الطيب يدعوا كوخ الحطاب «الدير» . حينما نمضى فى جولة ، يقول ضاحكاً

- لنعد للدير ، ولنتناول وجبة من الفطير والحساء الطيب الدسم ، لكن علينا ألا نقص أمرها على اليابانيين !

كنا نستعيد ذكرى الحياة التى عشناها معك فى دير سانت كزافييه ، فى شبونة ، غنى عن البيان أنه لم تكن لدينا هنا زجاجة نبيذ أو قطعة لحم ، والغداء الوحيد الذى نحصل عليه هو البطاطس المقلية والخضر المسلوقة ، التى كان

فلاحو توموجى يجلبونها لنا . لكن القناعة بأن كل شئ على ما يرام ، وأن الله
سيشملنا بحمايته ، أوغلت أعمق فأعمق فى سويدة قلبى

ذات مساء ، وقع شئ مثير للاهتمام ، كنا جالسين كالمعتاد نثرثر فوق
صخرة بين كوخنا والغابة ، فجأة اندفع طائر جرم ملحاً من وسط
الأشجار فى أشعة الشمس الغاربة ، رسم قوساً عظيماً فى السماء ، ثم
دفَّ نحو التلال النائية

- أحدهم يراقبنا .

قالها جاربى ، بانفاس لامته ، وعيين تسمرتا بالأرض ، وقد اخشوشن صوته
واحتد ، أضاف

- لا تلتفت ، ابق على ما أنت عليه تماماً !

من فوق تل يستحم فى سنا الشمس المتحضرة ، بعيداً هوناً عن الأجمة ، التى
دفَّ الطائر لتوجه متبعدا عنها ، وقف الرجال يحدقان باتجاهنا ، أدركنا على الفور
أنهما ليسا من فلاحي توموجى الذين نعرفهم حق المعرفة ، جلسنا متصلبين
كالصخور ، دون أن تختلج فينا عضلة واحدة ، مرددين ابتهالاً ألا تكشف الشمس
الغاربة وجهينا .

- أئمه أحد هناك ؟

رفع الرجالن بأعلى التل عقيرتيهما ، مناديين عالياً ، عاودا الهاتف
- أئمه أحد هناك ؟

- إنهم يهبطان التل ، ويقبلان إلى هنا
همس جاربى فى صوت خفيض ، جاثماً فى مكانه على نحو ما كان ،
أضاف:

- لا ، لا يقبلان ، إنهم يعودان من حيث جاءوا.

هبطا الوادى ، متضائلين ، فيما هما ينداحان فى البعيد لكن الحقيقة ظلت قائمة ، تقول بأن رجلين وقفوا على التل ، فى نور الشمس الغاربة ، ولسنا ندرى أو قد شاهدانا أم لا

فى هذه الليلة عينها ، رقى الجبل إيشيزو ومعه رجل يدعى ماجويشى كان واحداً من التوساما ، فيما أوضحنا ما وقع فى ذلك المساء ، ضاقت عينا إيشيزو ، ومضت تمھض الكوخ شبراً شبراً . أخيراً انبعث واقفاً فى صمت ، وبعد حوار قصير مع ماجويشى ، شرع الرجلان فى نزع الواح الأرضية . راحت فراشة تحوم حول المصباح الزيتى ، وهما يعملان ، التقط إيشيزو فأسا كان معلقاً على الباب الخشبى وشرع فى حفر الأرض ، طفا ظلا الرجلين على الحائط المقابل ، وهما يعملان الفأس فى الأرض بمهارة ، حفراً حفرة كبيرة تسعنـا معاً ، وضعـا فيها بعض القش ، ثم أغلقاها بالـواح الأرضية مرة أخرى . ذلك ، فيما يبدو ، هو مخبأـنا مستقبلاً ، إذا ما جد طارئـ.

منذ ذلك اليوم ، التزمـنا أقصى الحذر ، محاولـين ألا نظهر خارجـ الكوخ على الاطلاق ، وفي الليل ما كـنا لنسـخدم أى ضوءـ كـأنـا ما كانـ

وـقعتـ الحادثـة الثانية ، بعد خمسـة أيامـ من تلكـ التـى سـبقـ لـى تسـجيلـها . كانـ اللـيل قدـ أـوـغلـ ، عـكـفـنا سـرـاً عـلـى تـعمـيدـ طـفلـ أحـضرـتهـ أـوـماتـسوـ وـرـجلـانـ يـشـغلـانـ مرـكـزـ التـوسـاماـ . كانـ ذـلـكـ هوـ عـمـادـناـ الـأـوـلـ ، مـذـ مـجيـئـناـ إـلـىـ اليـابـانـ . طـبـيعـيـ أـنـهـ لمـ تـكـنـ لـديـنـاـ شـمـوعـ أـوـ مـوـسيـقـىـ فـىـ كـوـخـناـ الصـغـيرـ .. فـالـأـدـاةـ الـوـحـيدـةـ فـىـ الـحـفلـ

كـانـتـ كـأـسـاـ صـفـيرـةـ مـكـسـوـرـةـ الـحـافـةـ مـنـ أـكـوابـ الـفـلـاحـينـ استـخدـمنـاـهـاـ لـلـمـاءـ

الـمـقـدـسـ لـكـنـهاـ كـانـتـ أـكـثـرـ تـأـثـيرـاـ مـنـ طـقـسـ الـقـربـانـ الـمـقـدـسـ فـىـ أـىـ كـاتـدـرـائـيـةـ روـيـةـ

ذـلـكـ الـكـوـخـ الصـغـيرـ الـبـائـسـ وـالـطـفـلـ يـبـكـىـ ، فـيمـاـ الـأـوـمـاتـسوـ يـلـاطـفـهـ ، وـرـجـلـ يـقـفـ

بالباب حارسا ، هزت البهجة عطفى ، بينما كنت اصغى إلى صوت جاربى الوقور، مرتلاً صلوات العماد . هذه هي السعادة ، التى لا يمكن إلا لمبشر فى أرض أجنبية أن يستشعرها . حينما انساب الماء على جبين الوليد، جعد هذا وجهه، وانخرط فى البكاء عالياً ، كان رأسه صغيراً وعياته ضيقتين ، كان وجهه فلاح بالفعل ، سرعان ما يحاكي وجه موكيشى وايشيزو ، لسوف يكبر هذا الطفل ، مثل أبياته واجداده ، ليحتال لعيشـه ، فى ظل وجود بائس فى مواجهة البحر المعتم ، فى هذه الأرض العصبية ، القفر ، سيعيش بدوره كالحيوان، ومثـما الحيوان سيلقى حتفـه. لكن المسيح لم يمت من أجل نوى الرفاه والحسـان ، ذلك أن الأمر العسير هو الموت من أجل البائسين ومن فسـدت حياتـهم .. كان ذلك هو الـادرـاك الذى تكشفـت لـى حـجبـه ، فـلـاحت تـفاصـيلـه بـدقـة ، فى ذلك الحـين.

حينما رحلوا اضطـجـعت فى القـشـ منهـكاً ، كانت رائحة الـزيـتـ الذى جـلبـه الرجالـ الثلاثـةـ لـاتـزالـ سـارـيـةـ فى الكـوخـ . من جـديـدـ دـبـ القـملـ ، وـئـداًـ ، عـلـى ظـهـورـنـاـ وـسيـقـانـنـاـ . غـفـوتـ ، لكنـ غـطـيطـ جـارـبـىـ المـتفـائلـ ، الذى كانـ غـارـقاًـ فى النـومـ سـرـعـانـ ماـ أـيـقـظـنـىـ ، بـعـدـ وـقـتـ بـدـاـ لـىـ قـصـيرـاـ . عـنـدـئـذـ أحـدـهـمـ كانـ يـدـفعـ بـابـ الكـوخـ ، مـحاـوـلاـ فـتـحـهـ قـليـلاًـ ، قـليـلاًـ . فـىـ الـبـداـيـةـ ظـنـنـتـ أـنـهـاـ قدـ لـاتـعـدـوـ أـنـ تكونـ الـرـيـاحـ ، تـهـبـ مـنـ الـوـادـىـ بـأـسـفـلـ ، عـبـرـ الـأـشـجـارـ ، دـافـعـةـ الـبـابـ . زـحـفتـ بـهـدوـءـ مـنـسـلـاـ مـنـ القـشـ ، وـفـىـ الـظـلـامـ وـضـعـتـ أـصـابـعـىـ عـلـىـ أـلـواـحـ الـأـرـضـ الـتـىـ كـانـ تـحـتـهـاـ الـمـخـبـأـ السـرـىـ ، الـذـىـ حـفـرـهـ اـيـشـيزـوـ .

الآنـ تـوقـفـ دـفـعـ الـبـابـ ، وـغـدـاـ بـالـوـسـعـ سـمـاعـ صـوتـ رـجـعـ يـتـنـاهـىـ خـفـيـضاـ ، حـزـينـاـ:

- أـبـتـ ، أـبـتـ .. !

لمـ تـكـنـ تـلـكـ هـىـ اـشـارـةـ التـعـرـفـ المـتـفـقـ عـلـيـهـاـ معـ فـلـاحـيـ تـوـمـوجـىـ ، كـانـواـ

قد وافقوا على الطرق ثلاثة مرات بصوت هادئ على الباب . الآن استيقظ جاربى بدوره أخيراً ، دون أن يأتي حركة ، ارھف سمعه ، بانتظار الصوت التالى:

- أبت ! كل شيء على مايرام ، لا تخف منا !

تردد الصوت الحزين فى مسمعنا كرة أخرى

فى عماء الظلمة ، أمسكنا أنفاسنا صامتين . ترى أى مسئول مجنون هذا الذى ينصب شركاً لنا على هذا النحو ؟

- ألن تصدقنا ؟ نحن فلاحون من فنوكازاوا ، طالت لهفتنا لقاء قس ، نريد أن نعرف بخطاياانا .

ساعهم صمتنا ، فكفوا عن دفع الباب ، كان بوسعنا أن نصفى محزونين لوقع أقدامهم تراجع فى الليل أمسكت بالباب الخشبى بيدي ، واندفعت فى سبيلى إلى الخروج . نعم لسوف أمضى . حتى وإن كان هذا شركاً ، حتى إذا كان هؤلاء الرجال من الحراس ، فإن ذلك لا أهمية له ، قال صوت يخنق مجنوناً فى أغوار فؤادى « إن كانوا مسيحيين فماذا إذن ؟ إنتي قس ، ولد ليكرس حياته لخدمة الإنسان ، أى عار سيلحق بي ، إن تخليت عن مهمتى ، جراء خوف جعلنى رعديداً .

- قف أيها الأحمق ... !

صاح بها جاربى ضارياً

- لست بالأحمق - هذا واجبى

حينما انتزعت الباب ، ألقيت أشعة القمر البيضاء الشاحبة تغمر الأرض والأشجار فى سنا فضى . أى ليل هذا

جثم رجلان ، فى خرق مهللة ، مثلثا الشحاذين ، كأنهما كلبان ، رفعا نوااظرهما نحوى مغمومين

- أبت ، ألن تصدقنا !

لاحظت أن قدم أحدهما كانت ملوثة بالدم ، حيث جرح نفسه ، فيما هو يصعد الجبل . كانا كلاهما واهنين ، وعلى وشك الانهيار اعياء ، لم يكن هذا مثيراً للدهشة ، حيث شقا طريقهما إلى هنا ، قادمين من جزر جوتو على بعد ٢٠ فرسخا ، أى مسيرة يومين

- كانا فوق الجبل منذ فترة ، قبل خمسة أيام اختبأنا هناك ، ونظرنا في هذا الاتجاه.

وأشار أحدهما إلى التل الواقع وراء كوخنا . هكذا فإن هذين الرجلين هما اللذان كانوا يراقباننا في ذلك المساء.

أدخلناهما الكوخ ، وحينما قدمنا لهما البطاطس المجففة التي جلبها لنا ايسيزو ، أمسكاهما في شرابة بأيديهما ، ودفعاهما في فيما كالحيوانات ، بدا جلياً أنهم لم يصيبا طعاماً منذ يومين

وعندئذ شرعنا في الحديث . من بحق الله أخبرهما بأننا هنا كان هذا هو سؤالنا الأول

- أبت ، لقد سمعنا بالأمر من مسيحي بقريتنا ، اسمه كيشيجورو .

- كيشيجورو ؟

- نعم يا أبت !

كانا لا يزالان جاثمين ، مثلا حيوانين ، في ظل المصباح الزيتي ، ونثار البطاطس عالق بشفاههما ، كان أحدهما أدرد على وجه التقرير ، لكنه كان يفتر عن السنة أو الاثنين اللتين بقيتا له ، ويضحك كالطفل، بدا الآخر متصلباً ومتوتراً، في حضرة قسرين اجنبيين

أخيراً قلت

- لكن كيشيجورو ليس مسيحيأً

- أوه ، إنه كذلك ، يا ابنت ، كيشيجورو مسيحي.

ذلك رد لم نتوقعه تماماً ، مع ذلك فقد سبق أن تساءلنا عما إذا لم يكن هذا الشخص مسيحياً في نهاية المطاف

لكن الموقف بأسره شرع يتغير تدريجياً الآن بدا على قدر كاف من الوضوح:

كان كيشيجورو مسيحيأً ، سبق أن ارتد عن المسيحية . قبل ثمانى سنوات وشى به وبعائلته كافة ، كانوا مسيحيين جميعاً ، واش بداع الحسد ، ودفع بهم إلى التحقيق . حينما أمروا بوطء صورة المسيح بأقدامهم ، رفض أخوته وأخواته جميعاً إتيان ذلك . ووحده كيشيجورو صرخ فزعاً ، بعد تهديدات قليلة من الحراس قائلاً بأنه نكص عن دينه . زج باخوته وأخواته على الفور في غيابات السجون ، لكن كيشيجورو نفسه ، وانطلق سراحه ، لم يعد إلى قريته

في يوم الاعدام بالمحرق ، شوهد وجهه المستخرى في وسط الجمع ، الذي أحاط بساحة التنفيذ ، ثم انسحب ذلك الوجه ، واحتجب عن الأنظار ، ملطاً بالوحل ، وباديأً مثل كلب مسعور ، إذ عجز صاحبه عن تحمل مشهد استشهاد أخواته

من هذين الرجلين سمعنا عجباً ، في الناحية المعروفة باسم أويدوماري نجح الفلاحون في الهرب من رقابة المسؤولين ، وظلوا على مسيحيتهم عن بكرة أبيهم، لم يقتصر الأمر على أويدوماري ، فقد كانت نواحى وقرى مياهرا وزاكى وايجامى، رغم مظهرها الخارجى البوذى ، مسيحية فى الحقيقة ، وهى حقيقة

توشك أن تكون معلنة . كانوا منذ وقت طويل ينتظرون اليوم الذى يعبر فيه
القسس البحر البعيد مرة أخرى لمساعدتهم ومنهم البركة

- أبى ، لم نشهد قداساً ، وما اعترفنا بخطاياانا ، كنا نرتل صلواتنا
فحسب.

قالها الرجل دامى القدمين
- أقبل سريعاً إلى قريتنا ، يا أبى ، إننا نعلم صغارنا ترتيل صلواتهم ، وهم
بانظار اليوم الذى تجئ فيه
فتح نو الاسنان الصفراء فمه المثائب ، مثل كهف هائل الغور ، أو ما برأسه
موافقاً . اختج بصيص المصباح الزيتى ونوى . ما كان بمقدورى أنا وجاربى أن
نرفض مثل هذا التوسل . لقد كنا غارقين فى الجبن حتى الآن ، كان أمراً محرجاً
أن نفكر فى ضعفنا بالمقارنة بشجاعة هذين اليابانيين ، اللذين رقدا فى الجبال ،
وأدمنا أقدامهما ليصلوا إلينا

كانت السماء شهباء ، هب نسيم الصباح الحليبي على كوهنا ، رغم كل
إلاحانا ، رفضاً أن يأويا إلى القش ، لينالا قسطاً من الراحة ، وأغفيا مقيعين ،
وأيديهما حول ركبهما ، وأخيراً اخترت أشعة الشمس الشقوق ، بين ألواح كوهنا
الخشبية

بعد يومين ، ناقشنا مع مسيحيي توموجى مسألة ذهابنا إلى جوتو . أخيراً
تقرر أن يبقى جاربى فيما أحاط بمسقطي جوتو لمدة خمسة أيام ، لم
يبعد تحمساً كبيراً لهذه الخطة ، بل ان بعضهم غامر بالاشارة إلى أن الأمر بكامله
مؤامرة لإيقاعنا في شراك ينصب لنا

حل اليوم المحدد ، انسلوا لمقابلتنا عند الشاطئ ، كنت ارتدى ثياب فلاح

ياباني . أقبل موكيشى ورجل آخر لوداعى فى المركب ، الذى أعدوه عند الشاطئ . تجرد الليل من القمر ، لاح البحر غارقاً فى الظلمة ، والصوت الوحيد الذى كان من الممكن سماعه هو حركة المجاديف المنتظمة ، لكن الرجل الذى كان يقودهم لم ينبع ببنت شفة . فيما أبحرنا نحو البحر عريض الصدر ، غلظت الأمواج ، وارتجم المركب .

تملكنى فجأة خوف رهيب ، شك ، ريبة . ألن يبيعنى هذا الشخص المائل هناك ؟ لقد حذرنى أهالى توموجى ، وهم على حق لم يأت نو القدمين الداميتين ؟ والآخر الأدرد ؟ حدقت في الوجه اليابانى المائل أمامى . كان جاماً ، مجردأ من أى تعبير . شأن وجه بوذا ، فغلب الخوف على مشاعرى . مع ذلك ، فإنى ذاهب حتماً ؛ إذ وعدت بأنى سأذهب

امتد البحر المعتم ، ضارباً أطنابه فى رحاب الليل ، تعرت السماء من النجوم . ثم بعد رحيل دام ساعتين فى الظلام ، استشعرت الشباع الأسود لجزيرة ، يتحرك متثاقلاً إلى جوارنا أخبرنى رفيقى أن تلك هى كاياشيمما ، وهى جزيرة قريبة من جوتو .

بلغنا الشاطئ . أحسست بالتشويش الذهنى ؛ جراء دوار البحر والاعياء والتوتر . كان ثلاثة صيادين بانتظار مقدمنا ، حينما تطلعت اليهم ألفيت وسطهم وجه كيشيجiro بالابتسامة العريضة المستخذية ذاتها ، التى عرفتها قبلأ لم يكن ثمة ضوء فى القرية ، لكن كلباً فى مكان ما راح ينبغ فى سعار شديد

لم يبالغ الأدرد فى وصفه لتوق فلاحى جوتو وصياديهما إلى مقدم قس . فحتى الآن مازلت غارقاً فى العمل تماماً ، بل لا يتاح لي وقت لاغفو قليلاً . إنهم يأتون دارى واحداً إثر الآخر متجاهلين تماماً خطر المسيحية ، أعمد الأطفال ، وأصنفى لاعترافات الكبار ، وحتى حين أثابر طوال اليوم كله لا أفرغ منهم جميعاً . إنهم

يذكروني بجيش يزحف عبر صحراء قاتلة الظما ، ثم يصل إلى واحة تفيض بالمياه .. على هذا النحو جاعوا إلى ظمائي ، توافقن إلى الانتعاش ، تحتشد الدار الريفية المتداعية التي استخدمها كنيسة ب أجسادهم ، وعلى هذا النحو يعترفون بخطاياهم ، أفواههم دانية من مسمعي تموج رائحة كريهة ، تكاد تدفعنى إلى القىء ، بل ان المرضى يزحفون إلى هنا للقائى

- أبى ، أما تصغى إلى ؟ ... أبى ألن تسمع منى ؟

وهكذا يمضى الأمر

لكن أشد الأمور طرافة هو كيشيجورو، فلم يعد الرجل ذاته الذى عرفناه ، وإنما أضحتى بطل القرية ، الذى رفع حتى مصاف النجوم ، وهو يمضى مت shamاخاً برأسه فى الهواء ، على أى حال أعتقد أنه لا بأس بتباھيه، إذ لو لاه لما جئت إلى هنا على الاطلاق . لكن ما پاضيه - ردته وما إلى ذلك - يبتو نسيا منسيا. وانى لأتسائل عما إذا لم يكن هذا السكير قد هول فى حديثه للمسيحيين من أمر ماحدث فى ماکاوا ورحلتنا البحرية ، وربما زعم أن وصول القسین الأجنبيین إلى اليابان هو من انجازه الشخصى.

ومع ذلك فلست أميل إلى لومه . وإنى لأمقدت لسانه الذرب لكنى لا أستطيع إنكار أنى مدین له إلى حد كبير ، وقد دعوته مستحثاً للاعتراف، فاعترف بانكسار بخطايا حياته الماضية كافة

أمرته بأن يضع فى ذهنه دائمأً كلمات المسيح : «من اعترف بي أمام الناس، اعترف به أمام أبي الذى فى السماوات ، ومن أنكرنى أمام الناس، أنكره أمام أبي الذى فى السماوات».

هذه تلك تراجیع كيشيجورو ، شأن كلب طالته المسياط، ولطم جبينه بيده ندعا.

إن هذا الرفيق رعديد بطبعته ، ويبدو أنه عاجز تماماً عن التذرع بأدنى قدر من الشجاعة ، غير أن له إرادة طيبة ، وقد حدثه بوضوح بالغ بأنه إذا أراد أن يقهر تهافت إرادته وجبنه ، الذي يجعله يرتعد فرقاً في مواجهة أدنى أشكال العنف، فإن علاجه لا يكمن في الساكت ، الذي يواصل العكوف عليه ، وإنما في قوة الإيمان.

لم يكن الشعور الذي خامرنى منذ بعض الوقت مجافياً للصواب . ما الذى ينشده الفلاحون اليابانيون عندى؟ إن هؤلاء الناس، الذين يكبحون ويعيشون كالدواب ، يجدون للمرة الأولى فى تعاليمنا درباً يمكنهم على امتداده أن يلقوها جانباً بالأغلل التى تشد وثاقهم ، الرهبان البوذيون يعاملونهم كالقطيع ، ولوقت طويل عاشوا مذعنين لمثل هذا القدر

عمدت اليوم ثلاثة من الكبار والصغر ، لا يتسمون جميعاً إلى هذا المكان، ذلك أن المسيحيين شقوا طريقهم عبر الجبال من مياهارا وكوز وشيماء وهاراتسوكا قادمين إلىَّ ، ثم أصغيت إلى خمسين اعترافاً عقب قداس الأحد ، الذى أقmetه للمرة الأولى، رتلت الصلوات ، وتلوتها باليابانية مع الناس . راح الفلاحون يحدقون فىَّ، وعيونهم تتوجه بالحياة وبالفضل ، فيما كنت أتحدث هناك غالباً ما كان ينبئ فى مخيلتى وجه ذلك الذى ألقى عظة الجبل ، وانى لاتتصور الناس الذين اقتعدوا الأرض ، أو جثوا مسحورى اللب بكلماته . أما أنا فقد فتنت بمحياه، لأن الكتاب المقدس لم يأت على ذكره ، ولأنه لم يرد له ذكر فى الكتاب المقدس، على وجه الدقة ، فإن خيالى يحظى بالتفاصيل كافة . منذ نعومة أظافرى ضمت هذا الوجه إلى صدري ، مثلاً يحتضن عاشق وجه محبوبه ، وحينما كنت طالباً بالمعهد الدينى ، كان وجهه السمح ينبعث فى صدري ، إذا مسنى الأرق

على أى حال ، وأيًّا كان الأمر فى هذا الم Sidd ، فبأنى أدرككم هى خطيرة هذه المجتمعات ، فعن قريب أو بعيد ربما يبلغ التحرك بكماله أسماع المسؤولين .

لم يبلغنى هنا أيضاً شيء عن فيريرا . قابلت رجلين مسيحيين ، مكتهلين ، سبق لهما مشاهدته ، خلاصة حوارنا أنه كان قد أنشأ داراً ، فى مكان يدعى شينماتسو قرب نجازاكى ، لإيواء اللقطاء والعجزة ، كان ذلك بالطبع ، قبل أن تتفاقم حملة الاضطهاد ، ولكن من مجرد سماع حديثهما انبعثت نكرى معلمى القديم مترائية أمام عينى .. اللحية صهباء اللون ، العينان الغائرتان هونا فى محجريهما ... بدأت اتساعل عما إذا كان قد خالط هؤلاء المسيحيين اليابانيين المعوزين ، على النحو ذاته الذى خالطنا به نحن طلابه ، ووضع يده على اكتافهم بالدفء ال溫ود نفسه .

طرحـت عامـداً سـؤـلاً ، حول هـذـه النـقطـة :

- أكان ذلك الأب قاسى الطبيع؟

حدجـنـى أحد العـجوـزـين بـنـاظـرـيه ، وهـزـ رـأـسـه بشـدـةـ نـافـيـاً ، كان ما نـدـ عن شـفـقـتـهـ المرـتـجـفـتـينـ قولـهـ :

- لا ، لا ، لا لم أقابل أبداً مثل هذا الشخص العطوف الهاـدـيـءـ في حـيـاتـيـ.

قبيل عودتـى إـلـى تـوـمـوجـىـ ، أوضـحتـ لـهـؤـلـاءـ النـاسـ كـيفـ يـقـيمـونـ تنـظـيمـاـ، كـالـذـىـ سـبـقـ أـنـ وـصـفـتـهـ لـكـ ، أـيـ ذـكـ التنـظـيمـ الذـىـ اـبـتـدـعـهـ أـهـالـىـ تـوـمـوجـىـ سـرـاـ ، حـيـنـماـ حـرـمـواـ مـنـ القـساـوـسـةـ تـامـاـ ، هـكـذاـ عـلـمـتـهـ كـيفـ يـخـتـارـونـ مـنـ بـيـنـهـمـ الجـيـسـامـاـ وـيـنـصـبـونـ التـوـسـامـاـ ، فـفـىـ ظـرـوفـهـ الـراـهـنـةـ تـعدـ تـلـكـ هـىـ الطـرـيقـةـ

الوحيدة لاستمرار تلقين التعاليم لصغارهم وأطفالهم . وقد عكروا حقاً على هذا النهج بحماس عظيم ، وعندما حان تقريرهم لمن يضطلع بأعباء الجيساما والتوساما ، بدأوا في الجدال فيما بينهم كأنهم أهل لشبونة في زمن الانتخاب، ومن بينهم ، بالطبع واصل كيشيجورو في عناد ترشيح نفسه لأى من مناصب الشرف

ثمة نقطة أخرى مهمة ، فقد واصل الفلاحون هنا ، شأن أقرانهم في توموجي، الإلحاد على طالبين صليبياً صغيراً أو أيقونة أو شيئاً من هذا القبيل ، وحينما أجبت بأنني خلقت كل هذه الأشياء ورائي ، بدت سيماء الانسحاق عليهم ، أخيراً اضطررت إلى إخراج مسبحتي وفك حباتها واعطاء واحدة منها لكل منهم ، لكن موقفهم يجعلنى قلقاً بشكل ما، ويلح على التساؤل عما إذا لم يكن ثمة خطأ في نظرتهم للأمور

بعد ستة أيام، عدت ، سراً ، في المساء ، إلى سطح المركب الصغير، وجدنا عائدين ، عبر البحر المعتم ، في رحاب الليل ، رحت أصغي لصوت المجاديف المكرور، وهي تنفسن في الماء ، وهدير البحر . يلطم جوانب المركب، فيما كان كيشيجورو يقف في مؤخرة المركب مدنداً باغنية في رقة لنفسه . منذ خمسة أيام مضت ، حينما ، أقبلت إلى الجزيرة ، على متن هذا المركب ذاته ، تملكتني خوف غامض حل بي فجأة ، أما الآن فلا يسعني أن أغالب الابتسام إذ استعيد ذكري هذا الذعر الأحمق على أى حال انتهى الأمر الآن ، وعلى هذا النحو استرسلت أفكارى.

الحق أن كل شيء سار على أفضل ما يفوق أكثر توقعاتي ایغالاً في الخيال منذ وصولنا لليابان . لم نضطر إلى تجشم عناء أى مغامرة خطيرة ، نجحنا في العثور على جماعات جديدة من المسيحيين ، حتى الآن لم يدر المسؤولون بوجودنا،

بل وصل بي الأمر حد تصور أن الأب فاللينانو في ماكاو كان مبالغًا في تخوفه من الأضطهاد من جانب اليابانيين . فجأة ، أفعمت صدري بمشاعر البهجة والسعادة ، والشعور بأن حياتي لها قيمة وأنها تحقق شيئاً إبني أقدم بعض النفع لأناس هذه البلاد الواقعة في أطراف الأرض - هكذا حدثتني خواتري -
أناس وبلا دلن يكون بمقدورك أبداً فهمهم.

ربما بسبب هذا الشعور بأن كل شيء على مايرام ، بدت رحلة العودة أقصر كثيراً من رحلة الذهاب ، لذا فحينما احتك المركب بشدة معانقا الشاطئ ، لم أكدر أصدق أننا قد بلغنا توموجى بالفعل

اختبأت على الشاطئ وحيداً ، في انتظار موكيشي وصديقه ، شعرت فجأة بأن هذا الإجراء الوقائي لا معنى له بالمرة ، واصلت التفكير في الليلة التي بلغت فيها أنا وجاري هذه البلاد

وقع أقدام على الرمال

- أبت ... !

غمرتني البهجة ، فانبعثت واقفاً لأشد على يد الآخر بيدي ، التي علتها الرمال.

- أبت ، اهرب .. سريعاً ، سريعاً ، امض بعيداً !!

قالها موكيشي بسرعة هائلة ، وهو يدفعني أمامه.

- الحراس في القرية

- الحراس .. ؟

- نعم ، يا أبت ، الحراس ، بلغهم النباء.

هز موكيشي مسرعاً رأسه نافياً ، وقال :

- لم يلاحظوا بعد أننا نخفيكم

هكذا أسرعت عدوا في الاتجاه المضاد ، مبتعداً عن الناحية ، وموكيشى وكيسيجيرو يتأبطانى مسرعين ، مضينا إلى الحقول ، محاولين الاستئثار عن العيون، فيما كنا نشق طريقنا عبر الحنطة إلى كوخنا الصغير.

رذاذ رقيق نثته السماء لقد بدأ موسم المطر في اليابان

الفصل الرابع

رسالة سباستيان رو دريجيز

هكذا ، فإن بمقتضى مرأة أخرى أن أبعث برسالة لك ، سبق أن حدثتك عن عودتى من جوتو ، وكيف أن رجال الحكومة كانوا ينقبون القرية ، ولا يسعنى إلا شكر الله لنعمائه ، إذ كفل السلامة لى ول Jarvis

من حسن الحظ أنه قبل أن يبلغ رجال الحكومة البلدة ، جعل التوساما الجميع يخفون ، بأقصى سرعة ، الأيقونات والصلبان جميعها ، وكل ما يمكن أن يثير الشك . فى هذه الظروف كانت منظمة «الكورديا» رائعة ، فحينما وصل رجال الحكومة ، واصل الجميع العمل فى الحقول بوجوه تقطير براءة ، رد الجيساما على الأسئلة بجأش رابط ، تجلت حكمة الفلاحين فى قدرتهم على التظاهر بأنهم حمقى . بعد تحقيق دام طويلا ، شعر رجال الحكومة ، الذين نال منهم التعب ، بالرضا ، فانصرفوا

حدثنا ايشيز وأوماتسو بهذه القصة ، بفخر جلى ، فيما هما يصفان التفاصيل ، كانت شفاههما تنفرج عن أسنانهما ، وتند عنهم ضحكات ملؤها البهجة ، أى براءة فى الاحتياط تلك التى ارتسمت على ملامحهما

مع ذلك ، فقد بقىت مشكلة محيرة هل وشى أحد بنا ؟ يقينا لا يمكن أن يكون أحد أبناء القرية قد فعل هذا ، إلا أنهم بأنفسهم شرعوا شيئاً فشيئاً فى التشكيك أحدهم فى الآخر ، وقد بدأ القلق يراودنى ، خشية انقسامهم فيما بينهم شيئاً وأحزاباً

إذا نحينا هذا جانبا ، فإننى الآن ، وقد عدت من جديد إلى القرية ، استشعر
صفاء غامرا ، النور يملأ كوخنا ، وبوسعى سماع صياغ الديكة ، منبعثا من سفح
التل ، والزهور الحمراء فى أوج تفتحها ، تنتشر على سطح الأرض ، مثلما

سجادة بد菊花

منذ الرجوع إلى توموجى ، وكيسينجيرا يحظى بمكانة مرموقة
 هنا أيضا إنه يسير مختالا ، يزور الدور ، يتحدث مباهيا عن
 الأحوال فى جوتو ، يحكى لابناء القرية أى استقبال لقيته هناك ،
 وكيف أنه هو حظى بتقدير بالغ ، لأنه أحضرنى إلى هناك .. وحينما
 يمضى فى الحديث ، يقدم له أهل القرية الطعام ، بل وفي بعض الأحيان
 يقدمون له الساكي

ذات مرة بلغ كوخنا مخمورا تماما ، مع رفيقين أو ثلاثة من رفاقه الشباب ،
 احتقن وجهه وهو يصبح

– أنا معكم ، وإذا كنت معكم فليس ثمة ما تخشونه
 نظر إليه رفاقه بإجلال .. فيما شرع يرفع عقيرته مغنيا ، بمزيد من الحماس :

– أنا معكم ، وإذا كنت معكم فليس ثمة ما تخشونه

بلغ حد الهاتف مع نهاية غنائه ، ثم تمدد ، وغرق فى نوم عميق أترى الأمر
 يرجع إلى أنه إنسان طيب فى أعماقه ؟ أم مردہ إلى أن المرء لا يملك أن يتقبله ؟
 إننى ، على أى حال ، لا أستطيع أن أكرهه

الآن دعني أحدثك بال المزيد عن حياة اليابانيين ، غنى عن البيان أننى أحدثك عن
 فلاحتى توموجى ، الذين رأيتهم ، ولا أعدوا أن أنقل لك ما يقولونه فلا تنتهى إلى
 القول بأن اليابان كلها على هذا النحو

أول ما يتغير عليك إدراكه هو أن الفقر والعنف ، اللذين يعيش هؤلاء الفلاحون في ظلهما ، يتتجاوزان أي شيء سبق لك أن رأيته في البرتغال ، على الاطلاق ، حتى الأكثر ثراء بينهم ، أو الطبقة العليا ، لا يعرفون للأرز طعما ، إلا مرتين كل عام طعامهم اليومي هو البطاطس والفجل وما إلى ذلك من الخضر ، بينما شرابهم الوحيد الماء الفاتر في بعض الأحيان ينتزعون الجذور من الأرض ويلتهمونها لهم طريقة غريبة في الجلوس تختلف تماماً عن طريقتنا ، فهم يضعون ركبهم على الأرض أو الخشب الذي يعلوها ، ثم يقتعدون أعقابهم ، هذا الوضع مريح بالنسبة لهم ، لكنه كان مؤلماً لنا ، على نحو رهيب ، حتى اعتدناه ، يتذمرون من القش سقفاً لدورهم ، أما الدور فقد ذر ، ورائحتها لاتطاق . ليس في توموجى إلا عائلتان تملكان بقرة أو حصانا

يتمتع السيد الاقطاعى بسلطة مطلقة على رعيته ، تفوق كثيراً ما يتمتع به ملك في دولة مسيحية ، والضريبة السنوية باهظة الارتفاع ، يعاقب من يعجزون عن دفعها ، دونما رحمة حتماً كانت انتفاضة شيمابارا استجابة رهيبة لألوان المعاناة ، التي لا تحتمل ، والتي فرضها نظام الضرائب هذا ، على سبيل المثال ، يروون هنا ، في قرية توموجى ، كيف احتجزت زوجة وأطفال رجل يدعى موزايمون ، قبل خمس سنوات ، كرهائن ، وذج بهم في غيابات جب ، لأنه لم يدفع ضريبته ، ومقدارها خمسة أجولة من الأرض إن الفلاحين عبيد الساموراي ، وفوق هؤلاء السادة الاقطاعيون يقدر الساموراي الأسلحة ، وبغض النظر عن مرتبهم ، يحملون جميعاً خنيراً وسيفاً ، بينما يبلغ الواحد منهم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، يحظى السيد الاقطاعى بسلطة مطلقة على الساموراي ، وبمقدوره أن يقتل من لا يرضي عنه منهم ، ويصادر أملاكه لا يعتمر اليابانيون شيئاً ، في الصيف وفي الشتاء كلّيهما ، والملابس التي

يرتلونها لاتقىهم غائلة البرد ، يقصون شعرهم تماما ، حتى ليحاكوا الصلع ،
تاركين خصلة وحيدة تتدلّى على أكتافهم . أما الكهنة البوذيون فيحلقون شعر
رءوسهم تماما ، وثمة آخرون كذلك ليسوا كهنة ، وإنما من صفوف الساموراي
يفعلون الأمر ذاته

هذا انقطاع مفاجئ

لسوف أكتب لك ، بأقصى ما أستطيع من دقة ، ماحدث في الخامس من يونيو
وإن كان هذا التقرير يمكن أن يغدو موجزا للغاية ، ففي محنتنا الراهنة لا يمكن
التكهن بالموعد الذي يجثم فيه الخطر علينا ، قد لاتتاح لى فرصة الكتابة لك مطولا
وبالتفصيل

في الخامس من يونيو ، عند الظهر على وجه التقرير ، خالجنى شعور بأن
أمرا غريبا يجرى في القرية عند سفح الجبل . من خلف الأشجار ، كان بمقدورنا
سماع نباح الكلب المتواصل . لم يكن بالأمر الغريب ، بالطبع ، في الأيام
الصافية أن تنبغ الكلاب ، بل وأن تتنامى قوقة الدجاج خافتة إلى أسماعنا هنا ..
كان هذا الصوت حقا يحمل شيئا من العزاء في اعتقادنا ، أما اليوم فقد
شعرنا ، على نحو ما ، بالقلق إزاءه ، تشكيانا في أن الريح تحمل لنا نذير شؤم ،
مضينا إلى الجانب الشرقي من الأجمة لنتطلع وندرك ما يجري ، من هنا ، كان
بمقدورنا أن نحقق أفضل إطلالة على القرية ، المستكينة عند سفح الجبل

كان أول شيء جذب انتباها سحابة من الغبار الأشهب ، على الطريق الذي
يحاصر البحر مفضيا إلى القرية . ماذا عساه يكون هذا ؟ ثمة جواد بلا سرج
كان ينهب الأرض ، في جنون ، منطلقًا من القرية ، التي وقف خمسة رجال في
مدخلها ، بدا جليا أنهم ليسوا فلاحينا يوصدون الطريق بحزم ، حتى لا يستطيع
أحد الهرب

أدركتنا توا محدث : جاء الحرس لتفتيش القرية ، أوشك أحدهنا أن يسقط فوق الآخر ، في غمار اندفاعنا عائدين إلى كوخنا ، انتزعنا كل ما يمكن أن يتم علينا ، دفناه في الحفرة التي احتفرها أيسينو . حينما قمنا ، بهذا استجمعنا أنفسنا ، التي طارت شعاعا ، وقررت الهبوط عبر الأشجار والقاء نظرة عن كثب على ما يجري بالقرية

ما من صوت أمكننا سمعاه ، كانت شمس الظهيرة الشهباء تسقط الطريق والقرية بلا رحمة . كل ما استطعنا رؤيته بوضوح هو ظلال الدور الريفية ، مرتمية بعتمتها على الطريق . لمَ لم يبد ملمح واحد من ملامح الحياة ؟ حتى نباح الكلاب توقف فجأة ، ويدت توموجى أطلالا عتيقة مهجورة ، مع ذلك استطاعت تلمس الصمت الرهيب ، الذي احتوى المكان بأكمله ، ضارعا دعوت الله . أعلم حق العلم أننا لا ينبغي أن ندعون من أجل السعادة والحظ الطيب في هذا العالم ، لكنني رحت أدعو ، وأدعو أن يزاح صمت الظهيرة الرهيب هذا للأبد عن القرية ، التي حوم حولها على مثل هذا النحو المنذر بالشقم

شرعت الكلاب في النباح مجددا ، فيما كان الرجال الذين شكوا حاجزا عند مدخل القرية يندفعون بعيدا ، كان بوسعنا أن نلمح وسطهم شبح الجيساما - ذلك العجوز المسكين - وقد أحكم شد وثاقه بالحبال . من فوق صهوة جواده ، صاح ساموراي يعتمر قبعة تشبه مظلة سوداء ، مصدررا أمرا ، فشكل الرجال جميعا رتلا واحدا خلف العجوز ، ثم انطلقوا في طريقهم ، سار ساموراي آخر وحيدا ، وهو يجلد الهواء بسوطه ، مثيرا سحابة من الغبار الأشهب ، مواصلا إلقاء نظرات خاطفة إلى الوراء وهو يواصل المسير ، لاتزال ذكرى الأمر كله تضج بالحياة في ذهني . الجياد تسير خربا ، العجوز يتلوى ، يتعر ، فيما آسروه

يجرونه خلفهم ، على هذا النحو ، تقدم الموكب ، على امتداد الطريق ، في حرارة الشمس الشهباء ، كأنه رتل من النمال ، ثم احتجب عن النظر

في تلك الليلة سمعنا التفاصيل من كيشيجورو وموكيشي ، أقبل الحرس قبيل الظهيرة لم يتلق الناس تحذيرا هذه المرة ، من مقدمهم ، هكذا انطلق الساموراي على صهوات جيادهم يصدرون الأوامر إلى رجالهم ، يعدون على امتداد القرية ، يحرقون في كل ركن ، فيما اندفع الناس هنا وهناك هاربين ، والفوضى تعتمد

لم يعثروا على أي أثر لشيء مسيحي ، لكنهم هذه المرة لم يستسلموا في يأس ، ولم ينسحبوا ، وإنما جمع الساموراي الفلاحين معا ، في مكان واحد ، وأعلن أنه إن لم يفصحوا عن جلية الأمر كله ، فإن رهينة ستؤخذ ومع ذلك لم تند عن أحد كلمة

- نحن لا نهمل دفع ضرائبنا ، ونؤدي واجبنا نحو الدولة ، وجنائزاتنا أيضا إنها تشيع في المعب

قالها الجيساما للساموراي

لم يرد الساموراي على هذا ، وإنما أشار بسوطه نحو الجيساما ، وفي التو ألقى رجاله ، الذين كانوا يقفون متجمعين خلفه ، أنشوطة على العجوز وشدوا وثاقه في أحكام

- حذاري ، لست أبغى ثرثرة ، لسنا هنا للمساجلة ، أبلغنا مرشد مؤخرا أن في صفوفكم من يتبع سرا هذا المذهب المسيحي المحرم إذا قال أحدكم صراحة من هؤلاء الناس ، فسيتلقى مائة قطعة من الفضة ، لكن إن لم تعرفوا ، فعليكم الوزر سنعود ، بعد ثلاثة أيام ، لنصحب رهينة أخرى أمعنوا التفكير في الأمر.

وقف الفلاحون منتصبين صامتين ، رجالا ، نساء ، أطفالا .. صمتوا جميعا ، على هذا النحو انقضت الثوانى ، بدا الأمر كما لو كانوا أعداء يحدق بعضهم فى البعض الآخر ، بينما أتأمل الأمر الآن أدرك أن من المحتم أو على وجه الدقة أن الوقت الذى غدا فيه كل شيء صامتا هو الذى اطلانا فيه على القرية من الجبل .

مال الساموراي بجواهه نحو المدخل ، انطلق مبتعدا ، جالدا الهواء بسوطه ، سقط الجيساما العجوز المقيد ، الذى تجره الجياد خلفها ، وقف ، ثم هوى مجددا ، أمسك به الرجال ، فى غلظة ، محاولين دفعه للوقوف ، فيما جيادهم تجره بعيدا

على هذا النحو جرت واقعة الخامس من يونيو ، تماما كما سمعناها

قال موكيشى ، ويده على ركبتيه

- لا ، يا أبى ، لم نفه بكلمة عنكما ، وإذا عادوا فلن نقول شيئا . كائنا ماسيقع ، سنقف الى جواركما

ربما قال هذا لأنه لاحظ الظل الذى عبر وجهينا ، خوفا ورهبة ماداما لا للحظة ، لئن كان الأمر كذلك فما أشد الخجل الذى استشعره . رغم ذلك ، فإنه حتى جاربى السمح فى وجه أفظع الصعوبات حدج موكيشى بنظرة أفعمت كريا ، أخيرا قال

- لكن ذلك اذا استمر فسينتهى الأمر بكم جميعا الى أن تصبحوا رهائن - نعم يا أبى ، قد يسير الأمر على هذا النحو ، ولكن حتى إن وقع ذلك فلن نقول شيئا

- لكن هذا مستحيل ، خير لكيننا ، بدلا من مثل هذه الكارثة ، أن نمضى بعيدا عن هذا الجبل كلية

فيما كان جاربي يتحدث ، التفت الى موكيشى والى كيشيجيرو المذعور ،
الجالس الى جوارنا ، وأضاف

– ألا يمكننا أن نلوذ بجزيرة هذا الرجل ؟

عند هذه الكلمات عبر تشنج ، من فرط الخوف ، وجه كيشيجيرو ، لكنه لم
ينبس ببنت شفه .

تأملت الموقف مجددا ، فادركت أن هذا الرفيق المتزلف الهش الارادة ، بعدما
أحضرنا هنا وتوطط فى الأمر كله ، كان فى موقف لا يحسد عليه ، فهو من ناحية
لايرغب فى أن يفقد سمعته كمسيحي صالح ، غير أنه فى رأسه الصغير كان
يقدح زناد تفكيره ، بحثا عن سبيل يمسك عليه حياته ، هكذا التمعت عينااه
الماكرتان ، فيما هو يفرك يديه كالذبابة تماما . قال إن المشكلة ذاتها ستثور عندئذ
فى جوتو ، حيث سيتم تفتيشها بدورها . ثم واصل محاولة البرهنة على أنه
سيكون من الأفضل المضى الى مكان أبعد . لكنه على أى حال لم يتم التوصل الى
قرار ، تلك الليلة ، فانسل الرجلان يهبطان الجبل .

فى اليوم التالى ، كان أهالى توموجى جمیعا منفعلين ومتوترى الأعصاب .
بعيد أنا بعد كله عن طرح أى انتقاد لهم ، لكنى أريد أن أحديثك ، على وجه الدقة
، عما رواه موكيشى لى ، انقسموا الى فريقين ، فريق يصر على أننا كلينا ينبغى
أن ننتقل الى موضع آخر ، والفريق الآخر يقول بأن القرية ينبغى أن تؤينا أيا
كانت النتائج ، بل كان هناك البعض ممن قالوا إننى وجاربي مسئولان عن
الشر الذى حاق بالقرية ، وسط هذا كله ، أبدى موكيشى وايشيزو وأوماتسو
يقينا لا يتزعزع أيا كان ماسيقع فسوف يحمون القسيسين .. على هذا النحو
كان موقفهم

أتاحت هذه الفوضى للسلطات الفرصة ، التي كانت تتشدّها ، في الثامن من يوليو ، تبنت منهاجاً جديداً ، في هذه المرة لم يكن ساموراي ضارى المظهر ، على متن جواد ، هو الذى أقبل هذه المرة ، وإنما ساموراي مكتهل ، نووجه بشوش ، بصحبة أربعة من أتباعه ، نصّح الناس بأن يزنوا الأمر بدقة ، وأن يفكروا في الحجج المؤيدة للأمر بكامله والمعارضة له ، وأشار إلى أنّ من يكشف بإخلاص النقاب عن أسماء أتباع هذا المذهب المسيحي سيحصل على تخفيض في الضرائب ، التي تجبي منه في السنوات المقبلة ، ومن المحقق أن فكرة تخفيض الضريبة كانت بالنسبة لهؤلاء الفلاحين المعذّبين مغربية حقاً ، ومع ذلك فقد

قهروا الإغراء

- إذا وقفتم هذا الموقف الصلب ، فليس أمامي فيما افترض إلا تصديقكم

قالها الكهل ، وهو يلتفت خلفه متضاحكا نحو أتباعه أضاف

- ومع ذلك فعلّى أن أسأل رؤسائي أيهما أصدق .. ماتقولونه أو ما يقوله مرشدنا ، لذا فنحن بحاجة إلى رهينة . من بينكم تخروا ، رجاء ، ثلاثة رجال ، وأرسلوهم إلى نجازاكي غدا ، وحيث إنّي واثق من أنكم لا تأتون ما هو خطأ ،
فليس ثمة مايدعو للقلق

لم تكن في صوته أدنى إشارة تهديد ، لكن الجميع عرفوا أنه شرك ، هكذا أمضى رجال توموجى الليلة يتجادلون بخشونة فيمن سيرسل إلى مقر الحاكم في نجازاكي ، فالرجال الذين يتم اختيارهم قد لا يعودون أبداً ، فلا غرو أن أحجم حتى التوساما والآخرون ، الذين يشغلون مثل هذه المراكز . تجمع الفلاحون في دار ريفية معتمة ، وراحوا يمحضون بعضهم البعض بدقة بدا كل منهم وكأنه يسائل نفسه كيف يمكن أن يفلت من هذا الدور الرهيب

ورد ذكر اسم كيشيجورو ، ربما كانت أسباب ذلك في المقام الأول أنه كان ،
بمعنى ما غريبا ، أى لا ينتمي إلى توموجى ، وثانيا لأن الكثرين كان يخامرهم
شعور بأن الكارثة باكملها قد وقعت بسببه .. يا للرعديد المسكين ! حينما رأى
ما يحدث ، انتابه اضطراب مفزع ، وشرع في البكاء ، أخيرا انحلت عرى لسانه ،
منفرطة إلى حديث بذى ، خاطب به الجميع لكن الآخرين ذهبوا إلى القول بأنهم
سيتعين عليهم التخلى عن زوجاتهم وأطفالهم ، أضافوا «أنت لا تنتمي إلى هذه
القرية ، والمسئولون لن يحققوا معك بقسوة بالغة ، امض ، رجاء بدلا منا !
ناشدوه بأيد متضامنة ، حتى لم يعد بوعيه ، جراء الضعف ، أن يرفض . هكذا

تقرر ألا بد من ذهابه

– دعوني أمض كذلك !

كان إيشيزو هو الذي تحدث فجأة ، أمسك الجميع أنفاسهم ذهولا ، أيمكن أن
يكون هذا هو إيشيزو الصامت العنيد الذين عرفوه حق المعرفة ؟
ثم جاء دور موكيشي . قال إنه سينضم إلى الاثنين الآخرين
التاسع من يونيو . منذ الصباح راحت السماء تفت رذاذا خفيفا . ما كان
يمكن إلا بالكاد رؤية الأشجار الواقعة أمام كوخنا ، حيث لفها الغمام الرمادي
رقى الرجال الثلاثة الجبل ، حتى بلغوا الأجمة ، بدا موكيشي منفعلا قليلا ، لاح
إيشيزو، وقد ضاقت عيناه ، كعهداته أبدا ، مكهرا ، صامتا ، خلفهما كان
كيشيجورو يبيو مثل كلب نالته السياط ، يحدق فيّ ، على نحو يدعوه للرثاء ، بعينين
أفعمتا جفاء

– أبت ، اذا أمرنا بوطء «الأيقونة» بأقدامنا

غمغم موكيشي بهذه الكلمات خافض الرأس ، كأنما يحدث نفسه أضاف

– إنه أمر لا يعنينا وحدنا ، فإذا لم نطأ الأيقونة ، فسيتم التحقيق مع الجميع
في القرية . ماذا عسانا نفعل ؟

عندما تفجر شعور عارم بالاشفاق في صدرى ، حتى ندّ عنى بلا تفكير رد
أعرف أنك ماكنت لتطرحه أبداً . انتزعت من ذهني ذكرى الأب جابريل الذي
صاحب خلال حملة الاضطهاد في أونزين بينما جره مغضبه وهو حتى الأيقونة
«أوثر أن تبتر هذه القدم على أن تدهس هذه الصورة ..» أعلم أن الكثيرين من
المسيحيين اليابانيين ومن الآباء قد أعربوا عن مثل هذه المشاعر ، بينما وضعت
الصورة المقدسة أمام أقدامهم ، ولكن هل من الممكن أن نطلب هذا من هؤلاء

الرجال التعساء ؟

– ادهسوا ! ادهسوا !

صحت بها ، لكنني أدركت توا أنني تلفظت بكلمات ما كان ينبغي أن تصدر
أبداً عن شفتي . نظر إلى جاري منحياً باللائمة
كان كيشيجيرو لايزال على تباكيه ، صاح
– لم ابتلنا الله تعالى بهذا الابلاء ؟ إننا لم نأت ذنباً

للفنا الصمت . ظل موكishi وايشيزو على صمتهما كذلك ، وعيونهما مثبتة على
بقعة في السماء الخاوية

هكذا انخرطنا جميعاً في صلاةأخيرة ، بينما انتهينا ، هبط الرجال الثلاثة
الجبل ، راحت وجاري نرقب أشباحهم تتبدد في الغمام ، وتحتجب عن أنظارنا ،
لم يقدر لي أن ألتقي بعدها ثانية بموكishi وايشيزو أبداً

مرة أخرى ينقضى وقت طويق قبل أن أكتب لك . سبق أن وصفت لك كيف أن
رجال الحكومة انقضوا على توموجى ، لكنني اضطررت للانتظار حتى الآن ، قبل

أن أتمكن من مواصلة سرد التفاصيل ، حول التحقيق مع المسيحيين الثلاثة في نجازاكى . ضاعفتنا صلواتنا للسماء ، لعلهم يرجعون مع الجيساما سالمين ، ليلة إثر الأخرى واصل أهالى القرية صلواتهم من أجل هذه الغاية

لا أعتقد أن الله قد ابتلانا هذا الابلاء دونما غاية ، أعلم أنه سيأتى يوم نفهم فيه بجلاء السر فى أن هذا الاضطهاد بكل ما فيه من ضروب المعاناة ، قد فرض علينا ، ذلك أن كل شيء يأتيه الرب إنما يحمل الخير لنا ، مع ذلك حتى فيما أسطر لك هذه الكلمات ، فإنى استشعر الثقل الطاغى لهذه الكلمات الأخيرة المتعثرة ، التى لفظها كيشيجiro صباح رحيله : «لمَ ابتلانا الله تعالى بهذا الابلاء؟» ثم الكرب فى العينين ، اللتين رمقنى بهما ، وهو يقول : «أبٌت . أى شر أتينا؟»

أعتقد أن علىَّ أن أنبذ هذه الكلمات العبثية ، التى ندت عن ذلك الخائن ، لكن لم يخترق صوته المكتئب صدري حاملاً الألم كله الذى يمكن أن تبعثه ابرة حادة؟ لماذا فرض ربنا هذا العذاب وهذا الاضطهاد على الفلاحين اليابانيين المساكين ؟ لا . لقد كان كيشيجiro يحاول التعبير عن شيء آخر مختلف ، شيء أشد إثارة للبؤس . صمت الرب . عشرون عاماً تقضت بالفعل منذ اندلع الاضطهاد امتدلت تربة اليابان السوداء بنحيب الكثيرين من المسيحيين ، شخب دم القسس الأحمر متدفعاً ، تهدمت جدران الكنائس ، وأمام هذه التضحية الرهيبة المتجردة من الرحمة المرفوعة للرب ، ظل ملتزماً الصمت . كانت تلك هي المعضلة الكامنة وراء سؤال كيشيجiro المكتئب .

على أي حال ، دعنى أحدثك بالمصير الذى آل إليه أمرنا ، عقب ذلك استدعى الرجال الثلاثة الى مكتب الحكم ، فى مكان يدعى ساكوراداى تركوا لمدة يومين ، جاثمين بالسجن ، فى مؤخرة المكان ، الى أن دفع بهم

أخيرا للتحقيق ، لسبب أو لآخر بدأ التحقيق بسؤال ورد تلقائين على نحو غريب .

- أتعلمون أن المسيحية دين يحظر القانون اعتناقه ؟

أوماً موكيشى ، المتحدث باسم الجماعة برأسه أن أجل .

- يقول تقرير أرس إلينا إنكم تقييمون شعائر هذا الدين المحظور
فماذا تقولون ؟

رد الثلاثة جمِيعاً بأنهم بوذيون قانعون ببوديَّتهم ، ويعيشون وفق تعاليم
كهنة معبد دانا

كانت الخطوة التالية هي : إذا كان الأمر كذلك ، فادهسوا الأيقونة
وضعِّ أمامهم لوح ثبتت عليه صورة العذراء والطفل الوليد عند أقدامهم ،
اتبعاً لنصيحتى كان كيشيجورو أول من وضع قدمه على الصورة ، ومن بعده
هذا موكيشى وايسينزو حنوه ، ولكن إذا كانوا يعتقدون أنه بهذا وحده س يتم العفو
عنهم ، فقد جانبهم الصواب ، إلى حد بعيد ، ببطء تلاعبت على وجوه المسؤولين ،
الذين يراقبونهم ابتسamas واهنة ، لم يكن ما جذب انتباهم هو حقيقة قيام
المسيحيين بوضع أقدامهم على الأيقونة ، وإنما التعبيرات التي ارتسَمت على
وجوههم ، وهم يقومون بذلك .

- أعتقدون أن بوسعكم خداعنا على هذا النحو ؟

قالها أحد المسؤولين المكتهلين ، الآن تعرف الرجال ، للمرة الأولى، فيه
ساموراي الكهل ، الذي أقبل على متن جواهه قبل أيام إلى توموجى ، واصل
حديثه .

– أتظنوننا بلهاء ؟ أتعتقدون أننا لم نلاحظ كيف أصبح تنفسكم ثقيلا ، متواترا
صاحب موكيشى منفعل :

– لسنا منفعلين ، لسنا بالمسيحيين .

جاء الرد

– طيب . دعونا نجرب طريقة أخرى

مع هذا الرد صدر الأمر بأن عليهم أن يصقوا على الصليب ، وأن يعلنو أن العذراء المباركة عاهرة . لم أسمع ، إلا فيما بعد ، أن تلك خطة ابتدعها اينوى ، الرجل الذى تحدث عنه فاللينانو ، باعتباره الرجل الأعظم خطرا . كان اينوى هذا ، الذى تلقى العمام ذات يوم ليحظى بمرتبة اسمى فى الدنيا ، يعرف حق المعرفة أن هؤلاء الفلاحين المساكين يجلون العذراء . ويرفعونها إلى المرتبة الأساسية – بل إننى شعرت ببعض القلق حقا منذ وصولى إلى توموجى ازاء مشاهدتي للفلاحين ، وهم يبدون فى بعض الأحيان كما لو كانوا يجلون مريم أكثر من المسيح .

– هلموا الآن ! ألن تبصقوا عليه ؟ ألن ترددوا الكلمات التى قيلت لكم ؟

أمسك ايشيزو بالأيقونة بكلتا يديه ، فيما المسئولون ينخسونه من ورائه . حاول أن يبصق عليها ، لكنه بشكل ما كان عاجزا . لم يستطع اتيان ذلك . تراجع كيشيجورو بدوره لون أن تند عنه حركة واحدة

– ماذا دهاك ؟

إزاء الاستحثاث الوحشى من المسئولين ، همت دمعة شهباء من عين موكيشى ، تحدرت على خده ، هز ايشيزو بدوره رأسه ، كأنما هو على اعتاب ألم يعانيه ، ثم اعترفا كلاما صراحة بأنهما مسيحيان . وحده كيشيجورو وقد غلبته التهديدات لهث لافظا التجذيف المطلوب بحق العذراء .

- الان ابصق !

نوى الأمر

استجابة له ، ترك الإبحاص المهن ، الذي لا يمكن أن يمحى يهوى على الأيقونة.

عقب هذا التحقيق ، زج بموكيشي وايشيزو في السجن بساكوراداي عشرة أيام ، أما المرتد كيشيجورو فقد أطلق سراحه ، وبهذا اختفى عن الأنظار ، منذ ذلك الوقت لم يعد الى توموجى ، اذ سيكون الرجوع مستحيلا بالنسبة له أوغلنا الآن في موسم المطر . كل يوم يهمى رذاذ بديع بلا توقف ، الآن أدركت للمرة الأولى أى ايذاء باعث للكابة يمكن أن يكونه هذا المطر ، يلحق الدمار بكل شيء على السطح ، وفي أغوار الجنور . تبدو هذه الناحية بلدة طالها الموات ، لا أحد يعلم أى قدر سيحل بساحة رجلينا المسيحيين ، تملك الناس خوف من أنهم قد يتعرضون بدورهم للتحقيق ذاته ، ما عاد أحد على وجه التقريب يمضي للعمل بالحقول . وراء الحقول الكثيبة لشد مابدا البحر مكفرا !

العشرون من يونيو . مرة أخرى أقبل رجال الحكومة الى القرية على صهوات جيادهم ، حاملين معهم هذه المرة بلاغا . هنا ، على شاطئ توموجو ، سيخضع موكيشي وايشيزو للعقاب بالماء .

الثانى والعشرون من يونيو ، كان بالواسع رؤية موكب ، يبدو مثل رتل طويل من البازلاء يدنو من بعيد على الطريق الرمادى ، الذي لفه المطر . تضخت الشخصوص الضئيلة ، فى قلب الجماعة المقلبة ، كان ايشيزو وموكيشى بأيد موثقة ورعوس خفيفة يتحلقها الحرس . لم يغامر أهالى القرية بالخروج ، قبعوا خلف أبواب دورهم الموصدة ، خلف الموكب الطويل أقبل عدد من الفضوليين الذين

انضموا اليه من القرى المجاورة لاجتلاء المشهد ، كان بوسعنا أن نرقب الأمر
كله من كوخنا

حينما بلغ الموكب الشاطئ أمر المسؤولون بايقاد النار ، ليتمكن ايشيزو
وموكيشى من تدفئة جسديهما اللذين أغرقهما المطر . ثم بشعور غير مألف
بالاشفاق ، «كما قيل لي» منحهما أحدهم قدحا من الساكي ليتجرعاه ، حينما
سمعت ذلك لم استطع منع نفسي من التفكير فى الجندي الذى وهب المسيح
المحتضر بعضا من الخل يرتشفه

نصبت شجرتان ، أقيمتا على هيئة صليب ، قرب حافة الماء ، شد وثاق
ايشيزو وموكيشى اليهما . حينما يقبل الليل ، ويعلو المد ، ينغمس جسداهما فى
البحر حتى الذقن ، لن يلقيا حتفهما على التو ، وإنما بعد يومين أو ثلاثة أيام من
العناء الجسدى والذهنى البالغ سيكfan عن التقاط أنفاسهما ، كانت خطة
السلطات أن تدع أهالى قرية توموجى وال فلاحين الآخرين يحدقون ملء البصر فى
هذه المعاناة المتطاولة ، حتى لا تقترب خطاهم مرة أخرى من الدين المسيحى
كان الوقت قد تجاوز الظهيرة ، حينما شد وثائق موكيشى وايشيزو الى
الشجرتين ، وانسحب المسؤولون على صهوات جيادهم ، تاركين أربعة من الحراس
للمراقبة ، الآن كذلك شرع الفضوليون الذين أقبلوا أول الأمر فى جمع عظيم ، فى

الرحيل تدريجيا

ارتفع المد ، لم يأت شبحا الرجلين بحركة واحدة ، علت الأمواج ، أغرفت
أقدامهما والنصفين السفليين من جسديهما ، غمرت الشاطئ المظلم بتضخاب
مكرور

فى المساء حملت أوماتسو مع ابنة أخيها الطعام إلى الحرس ، تساعلت عما
إذا كان بمقدورها أن تقدم للرجلين ما يتبلغان به ، حينما ثقتا إذنا بذلك ، دنتا
من الرجلين فى زورق صغير

صاحت أوماتسو :

- موكيشى ! موكيشى !

- ما الخبر ؟

- قيل إن هذا كان رد موكيشى

اتبعـت ذلك نداءـها

- إيشيزو ! إيشيزو !

لكن إيشيزو العجوز ما كان ب�能ـه أن يـحـيرـ رـدـاـ ، مع ذلك فـلمـ يكنـ قدـ لـقـىـ
حتـفـهـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ بـداـ جـلـيـاـ مـنـ الحـرـكـةـ الـهـيـنةـ ، التـىـ كـانـتـ تـنـدـ بـيـنـ الـحـيـنـ وـالـأـخـرـ
عـنـ رـأـسـهـ

- لـشـدـ مـاـ تـقـاسـيـانـ ، لـكـنـ عـلـيـكـمـ بـالـصـبـرـ ، الأـبـوـانـ وـنـحـنـ جـمـيـعـاـ نـصـلـىـ مـنـ
أـجـلـكـمـ . سـتـمـضـيـانـ مـعـاـ إـلـىـ النـعـيمـ

عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ ، تـرـبـدتـ كـلـمـاتـ التـشـجـيعـ اللـهـفـىـ ، التـىـ هـمـسـتـ بـهـاـ أـوـمـاتـسوـ،
لـكـنـهـاـ حـيـنـماـ حـاـولـتـ أـنـ تـضـعـ الـبـطـاطـسـ التـىـ حـمـلـتـهـاـ مـعـهـاـ فـىـ فـمـ موـكـيـشـىـ ، هـزـ
رـأـسـهـ رـافـضاـ ، بـداـ أـنـهـ يـحـسـ بـأـنـهـ مـيـتـ لـاـ مـحـالـةـ ، كـانـ يـؤـثـرـ أـنـ يـلـوـذـ بـالـهـرـبـ سـرـيـعاـ
قـدـرـ الـامـكـانـ ، بـعـيـداـ عـنـ هـذـاـ العـذـابـ قـالـ :

- أـعـطـهـاـ إـيـشـيزـوـ ، دـعـيـهـ يـأـكـلـ ، لـأـسـتـطـعـ التـحـمـلـ أـكـثـرـ مـنـ هـذـاـ
عـادـتـ أـوـمـاتـسوـ وـابـنـهـ أـخـيـهـ ذـاهـلـتـينـ ، دـامـعـتـينـ ، إـلـىـ الشـاطـئـ ، هـنـاـ ،
غـارـقـتـينـ ، بـالـمـطـرـ ، رـفـعـتـ صـوتـيـهـمـ بـالـنـواـحـ ، اـنـخـرـطـتـاـ فـيـ الـبـكـاءـ .

أـقـبـلـ الـلـيـلـ . كـانـ مـنـ المـكـنـ رـؤـيـةـ وـهـجـ النـارـ التـىـ أـوـقـدـهـاـ الـحرـسـ ، يـلـوحـ خـافتـاـ،
حـتـىـ مـنـ كـوـخـنـاـ الجـبـلـىـ ، فـيـمـاـ تـجـمـعـ أـهـالـىـ تـوـمـوـجـىـ عـلـىـ الشـاطـئـ وـرـاحـواـ ،
يـحـدـقـونـ فـيـ الـبـحـرـ الـمـدـلـهـمـ . غـرقـ الـبـحـرـ وـالـسـمـاءـ فـيـ الـقـتـامـ ، حـتـىـ مـاـ عـادـ أـحـدـ

يدرى أين موكيشى وايشيزو ، خفى على الجميع ما إذا كانا على قيد الحياة ، أم غالهما الموت ، ثم سمعوا ما بدا لهم أنه صوت موكيشى ، مشتبكا مع هدير الأمواج ، راح الشاب يردد لاهثا ترتيلة مسيحية ربما ليحدث الناس بأن حياته لم ينضب معينها بعد ، أو ليشد من عزمه

إنا على دربنا ، إنا على دربنا

إنا على دربنا الى معبد الفردوس

إلى المعبد الفردوس

إلى المعبد العظيم

أصاخ الجميع صامتين السمع لصوت موكيشى ، أصغرى الحرس كذلك ، مرة أخرى وسط صوت المطر والأمواج ، شق الصوت طريقه الى آذانهم

الرابع والعشرون من يونيو استمر الرذاذ طوال اليوم ، فيما راح اهالى توموجى ، وقد تكأكأوا كرة أخرى بعضهم على البعض الآخر ، يحدقون من بعيد فى وتدى موكيشى وايشيزو ، ترامت اطراف الشاطئ الذى عمه المطر فى إعياء مثلما صحراء مطمورة لم يأت اليوم مشاهدون «أغيار» من القرى المجاورة حينما انحسر المدى خوى البعيد إلا من الوتدين المتوحدين ، اللذين شد وثاق الرجلين اليهما استحال التمييز بين الوتدين والرجلين التهم موكيشى وايشيزو بالوتدين حتى أصبحا بضعة منهما ، كان المؤشر الوحيد الذى يدل على أن الحياة لا تزال تدب فيهما هو الأنين الكابى لصوت يتردد كأنه صوت موكيشى

في بعض الأحيان كان الأنين يتوقف . ما عاد لموكيشى من القوة ما يشجع به نفسه بتردید ترتيلة ، كالتي شدا بها أمس لكن الريح ، بعد ساعة من صمت ، حملت الصوت كرة أخرى الى آذان الناس ، أخذت الرعدة الفلاحين ، فانخرطوا

في البكاء ، حينما سمعوا هذا الصوت يتناهى كصوت حيوان ، في الأصيل اصاعد المد تدريجيا كرة أخرى ، وبعد غور اللون الكابي البارد الذي اكتساه البحر ، بدا الوديان وكأنهما يغرقان في الماء ، وتكسرت الأمواج البيضاء المزبدة مدومة في تجاوزها للوتدين على الرمال ، حلق طائر أشهب ، اثر ما انزلق على سطح الماء بعيدا ، بعيدا ، وبهذا انتهى كل شيء .

استشهادا ، لكن يا لهوله من استشهاد . طالما قرأت عن الاستشهاد في سير حياة القديسين ، كيف أن أرواح الشهداء رفاقت إلى مأواها في جنة النعيم ، كيف كلوا بالمجد في الفردوس ، كيف نفخت الملائكة في الصور ، ذلك كان الاستشهاد البديع ، الذي طالما تراغى في أحلامي ، لكن استشهاد المسيحيين اليابانيين ، الذي أصفه لك الآن ، لم يكن شيئا مكللا بالمجد ، على هذا النحو . أى أمر بائس وموجع كان ! المطر يهمى بلا انتهاء على البحر ، والبحر الذى غالهما يفور غادرا ، في صمت .

في المساء أقبل رجال الحكومة ، من جديد ، على صهوات جيادهم انصياعا لأمرهم احتطب الحرس كسرا مبللة بالماء من الخشب ، أزالوا جثتى موكىشى وايشيزو من الوددين وشرعوا في احراقهما . قاموا بذلك ليمنعوا المسيحيين من حمل الجثتين إلى القرية للقيام نحوهما بما تستحقانه من تكريم بينما استحالتا رمادا ، ذروه في البحر . شب اللهب الذى أشعلاوه متقدا ، بالحمرة وبالسوداد فى نسيم البحر ، علا الدخان فوق الشاطئ الرملى ، فيما كان الناس يرقبون شاردين تموجه ، دون أن تند عنهم حركة واحدة . بينما انتهى الأمر كله ، انقلبوا عائدين إلى نورهم ، برعوس منكسة كالأبقار ، واقدام مت塌قة الخطى

اليوم ، خلال كتابة هذه الرسالة ، كنت أغادر كوخنا لألقي نظرة على البحر

مقبرة هذين اليابانيين ، الذين أمنا بكلمتنا ، كننيا ، معتما ، امتد البحر بلا انتهاء
فحسب فيما لم يكن تحت السحب الرمادية ظل جزيرة .

لم يتغير شيء ، لكنى أعلم ماستقوله : «إن موتهما لم يكن عبثيا ، وإنما
كان حجرا سيفدو بمروز الزمن أساس الكنيسة ، وان الله لا يصيّبنا أبدا
بابتلاء لا نستطيع قهره . إن موكيشى وايشيزو فى رحاب الله ، شأن العديد
من الشهداء المسيحيين الذين سبقوهما ، وانهما يحظيان الآن بسعادة ازلية»
إنتى بالطبع ، مقتنع كذلك بهذا كله ، مع ذلك لم يقع هذا الشعور بالأسى
فى فؤادى ؟ لم تنفل فى قلبى أنشودة موكيشى الذى شفه الاعياء وشد
وثاقه الى الوتد

إنا على دربنا ، إنا على دربنا
إنا على دربنا الى معبد الفريوس
إلى معبد الفريوس
الى المعبد العظيم

كنت قد سمعت من أهالى توموجى أن الكثيرين من المسيحيين كانوا ، حينما
يقتادون الى ساحة الاعدام يرثلون هذه الأنشودة ، بلحنها المفعم بالحزن الكابى ،
فالحياة فى هذا العالم بالغة الإيلام بالنسبة لهؤلاء الفلاحين اليابانيين ، ومن خلال
الاعتماد على «معبد الفريوس» استطاعوا موصلة الحياة ، ذلك هو الحزن الذى
يملا شغاف هذه الأنشودة

ما الذى أريد قوله ؟ لست أفهم بذاتى على وجه الدقة ، كل ما أفهمه أنتى
اليوم ، وفيما كان موكيشى وايشيزو يتآملان ، لأجل مجد الرب ، يعانيان ، يلاقيان
حتفهم ، لم أستطع سماع هدير البحر الكابى المكرور ، وهو يلعق الشاطئ ،

خلف الصمت المحيط بهذا البحر امتد صمت الله .. الشعور بأنه فيما يرفع البشر عقائدهم ، في غمار العذاب ، يظل الرب مكتوف اليدين ، صامتا.

لربما يكون هذا تقريري الأخير ، فقد تناهى إلينا هذا الصباح أن الحرس يستعدون لتمشيط الجبال ، قبل أن يبدأ هذا البحث ، أعدنا الكوخ إلى حالته الأصلية ، تخلصنا من كل اثر لاعتصامنا به ، هكذا نغادره الآن ، إلى أين سنمضي ؟ لم أقرر أنا وجاري بعد ، تحدثنا طويلاً عن هذا الأمر ، متسائلين عما إذا كان علينا أن نلوذ بالفرار معاً ، أم يمضي كل في طريقه أخيراً قررنا أنه حتى إذا أصبح أحدهنا طريدة الأغيار ، فإن من الخير أن يظل الآخر طليقاً ، بتعبير آخر فإن علينا أن نفترق ، مع ذلك فلم بحق السماء ، نمكث في هذه البلاد على الاطلاق ؟ إننا لم نقم برحلتنا المطولة حول أفريقيا وعبر المحيط الهندي وإلى ماكاو ثم اليابان مجرد أن نهرب على هذا النحو ، من مكمن إلى آخر . لم يكن ذلك من أجل أن نختفي في الجبال كفئران الحقل ، نتلقى كسرة خبز من فلاحين معوزين ، ونعتكف في كوخ حطاب ، حتى دون أن نستطيع لقاء المسيحيين . ما الذي حدث لحلمنا المجيد ؟

مع ذلك ، فإن لبقاء قس واحد في هذه البلاد الأهمية ذاتها التي لشمعة واحدة تتألق في عماء سراديب الموتى ، هكذا أقسمت أنا وجاري أحدهنا للآخر أننا بعد افتراقنا سنكافح باقصى ما في وسعنا ، لنبقى على قيد الحياة .

أيا كان الأمر ، إذا كان تقريري قد اقتضب فجأة «فكل ما أعلمك أنه ربما حتى اليوم لم تتسلمه بعد» فلا يذهبن بك الظن إلى أننا قد لاقينا بالضرورة حتفينا ، فالامر لا يدعونا أن علينا أن نخلف في هذه الأرض العصبية فأسا ليقلب تربتها

كل ما حولي بحر مظلم ، من المستحيل أن يحدد المرء أين يبدأ سواد الليل ، ليس بوسعي أن أرى ما إذا كانت هناك جزر حولي ، الشيء الوحيد الذي يحدثنى بأننى فى البحر هو التنفس المكروه للشاب الذى يعمل مجدافى القارب خلفى .. صوت المجدافين فى الماء ، ارتطام الأمواج

بحافة القارب

قبل ساعة ودعت أنا وجاربى أحدها الآخر ، ركب كل منا قاربا صغيرا مستقلا ، وغادرنا توموجى مضى باتجاه هيرادو . لم استطع فى عماء الظلمة حتى أن أراه ، لم يتع لنا الوقت لنقول إلى الملتقى

وحيدا ، لفتني رعدة من قمة رأسى حتى أخمص قدمى ، بدا جسدى كما لو كانت ارادتى قد فقدت قدرتها على التحكم به ، لئن قلت إن هذه اللحظة لم تكن مفعمة بالرهبة ، فإنى إذن من الكاذبين ، ذلك أنه أيا كانت قوة إيمان المرء ، فإن الخوف اذ يعتري البدن ، يمكن أن يقهر المرء تماما ، حينما كنت بصحبة جاربى كان بمقدورنا على الأقل أن نشارك فى خوفنا على نحو ما يشارك المرء أخيه خبزه باقتسامه معه . أما الآن فإننى وحيد ، فى بحر الليل المظلم ، وعلىَّ أن أحمل على كاهلى البرد والظلمة وكل شىء آخر «ترى أو قد استشعر المبشرون اليابانيون كافة مثل هذا الرعب ؟ إنى لاتساعل عما داخلهم من أحاسيس» ثم انبعثت فى خيالى على نحو ما وجه كينشيجورو ، الذى يحاكي وجه جزذ ، وقد افعم رعبا . نعم ، ذلك التعش الخائر ، الذى دهس الأيقونة فى نجازاكى ، ولاذ بالفرار . ولو أننى مسيحى عادى ، لا قس ، أترانى كنت سألهوز بالهرب على النحو ذاته ؟ لربما كان ما يبقينى الآن مستمرا هو احترامى لذاتى وشعورى الكهنوتى بالواجب .

ناديت الفتى العاکف على التجديف ، سأله جرعة ماء ، لكنه لم يحر جواباً
بدأت أدرك أنه منذ الاستشهاد راح أحالى توموجى ينظرون إلى بحسبانى
أجنبياً جلب الكوارث عليهم جميعاً . وقرأ مفزعاً لكافتهم ، لربما كان هذا
الفتى يود التخلص من مهمة التجديف بالقارب ، الذى يقلنى عبر البحر ،
شرعت فى لعق أصابعى ، التى بللها ماء البحر ، كى أرطب لهاتى المحترقة ظمئاً ،
رحت أفكرا فى المسيح ، وقد اخترقت المسامير يديه ، فألزمته الصليب ، وطعم
الخل فى فمه

فيما القارب يغير اتجاهه وئيداً ، استطاعت سماع صوت الأمواج تلطم الصخور ، حاكى صوت طبل أسود يقرع ، مثلاًما كان الأمر وقت عبورى الأخير للبحر . انطلاقاً من هذا الموضع ، كان البحر يفضى إلى خليج صغير ، حيث يلعق شاطئ الجزيرة ، لكن الجزيرة بأسرها التفت فى ظلام ثقيل ، فما استطاعت

ما أكثر الدعاة الذين ركبوا البحر إلى هذه الجزيرة ، على متن قارب صغير ، على نحو ما فعلت ! مع ذلك فما أشد اختلاف ظروفهم عن الظروف التي أخوض غمارها ! حينما أقبلوا إلى اليابان كان الحظ يبتسم مرحاً ، في كل خطوة من خطواتهم ، كانت الأرض بساط أمان لهم ، ألقوا بوراً ينالون الراحة فيها على مهل ، ومسيحين يرحبون بهم بأذرع مفتوحة ، سابق السادة الاقطاعيون بعضهم بعضاً لتوفير الحماية لهم لا حباً في دينهم ، وإنما طمعاً في التجارة ، وعكف الدعاة على استخدام الفرصة المتاحة لـ مد نطاق عملهم التبشيري . لست أدرى السر في أنني استعدت ذكري الكلمات التي رددها فالينانو في ماكاو «في وقت من الأوقات ناقشنا على صعيد الجد ما إذا كان رداؤنا الكنوتى ينبغي أن ينسج من

الحرير أو القطن». وفيما خطرت هذه الكلمات فجأة ببالي، حدقت في الظلمة، وضاماً ركبتى إلى صدرى ندت عنى ضحكة واهنة، لا تسى فهمى! فلم تخالجنى نية التقليل من قدر مبشرى ذلك العهد، الأمر الوحيد هنا هو أنه بدا لي مضحكاً أن هذا الرفيق، المائل في إمبابى، الجالس في مركب يحفل بالحشرات، هرتدياً ثياب الفلاح موكيشى من قرية توموجى، هو قس متهم سواء بسواء.

دنت المصخور السوداء تدريجياً من الشاطئ، حملت رائحة أعشاب البحر إلى أنفينا وحينما بدأ الرمل يحتك بقاع المركب، وثبت رفيقى الشاب إلى البحر، وبدأ يجذب بيبيه كلتيهما القارب نحو الشاطئ. نزلت بيورى إلى الماء الضحل، ومستافاً الهواء المفعم ملحاً، شقت طريقى نحو الشاطئ.

قلت

- شكرأ لك، القرية بيازائنا، أليس كذلك؟

- أبىت، إننى ..

رغم أننى لم يكن بمقدوري أن أرى وجهه، فإن نغمة صوته حشتنى بأنه لا يريد أن يربطه أى شئ بي أكثر من هذا، تصافحنا، انطلق يعuo إلى البحر، وقد ساوره شعور غامر بالارتياح، تردد صدى الصوت الكثيب الذى أحدثه، قدماه، فيما كان يثبت إلى المركب تحت جنح الظلام.

فكرت في جاري، وصوت المجدافين المتراجع يتربّد صداه في مسمعي. ترى أين هو الآن؟ فيما كنت أسير على امتداد الشاطئ، رحت أحدث نفسي، مثلاً أم تهدئ من روع ولیدها. ما الذي أخافه؟ إنني أعرف الطريق،

إذا مضيت قدمًا فسائلن القرية ، التي سبق أن أكرمت وفادتني . سمعت فى البعيد شيئاً يشبه أنيناً خفيضاً ، كان مواء قطة ، لكن الشئ الوحيد الذى كان بمقدورى التفكير فيه هو أن أريخ أطرافى المنهكة ، وأن أضع قليلاً من الطعام فى معدتى الخاوية

بلغت مدخل القرية ، فغدا مواء القطة أكثر وضوحاً ، حملت الريح
إلى أنفى رائحة مقيمة الفطاعة ، أوشكت أن ترغمنى على القى ، كانت
تحاكى أسماكاً عفنة ، لكنى حينما وطأت قدماى القرية ، ألميت نفسي
محاطاً بصمت مفزع ، رهيب . لم يكن ثمة شخص واحد بها

لن أقول إنه كان مشهد اقفار خاو ، وإنما بدا الأمر كما لو أن معركة دمرت الناحية بأسرها مؤخراً ، تناشرت على امتداد الطرق صحف وأكواب محطمة ، فيما تحطم الأبواب كافة ، بحيث غدت الدور جميعها مفتوحة . بشكل ما بدا مواء القطة المنبعث من الكوخ الخاوي ناتئاً ، لكانما كان الحيوان يجوس في تحد أرجاء القرية

وقفت طويلاً، ملتزماً الصمت، ومذهولاً وسط القرية، ولعله من الغريب
أن أقول إنني لم أعد أشعر بالرعب ولا الفزع الشيء الوحيد الذي ظل يكرر
ذاته بهدوء في ذهني هو: لم هذا؟ لم؟

ضررت في أركان القرية ، من أقصاها إلى أدناها ، في عماء الصمت . راحت
قطط نحيلة حد المزال الوحشى ، تجوب أرجاء المكان ، وإن لم يكن
بمقابلي تصور الموضع الذي قدمت منه . كانت تحثك بساقى ، وتحدق
في بأعين تقدح شرراً ، شققت طريقي ، وقد شفني الجوع والظماء إلى دار
خاوية ، بحثاً عن طعام ، ولكن الشيء الوحيد الذي عثرت عليه في النهاية
كان وعاء به ماء

فيما كنت أقف هناك ، قهرني التعب ، الذي حل بي طوال اليوم ، فاستندت إلى جدار كالجمل ، وأغفيت وسط أحلامي ، كان بمقبوري أن أحس بالقطط تسير حول بدني ، وتمزق الأسماك العفنة حينما تمسك بها ، في أحياناً أخرى كان بوسعي ، حينما افتح عيني ، أن أرى السماء حالكة السواد العارية ، من النجوم ، عبر الباب المحطم

شرعت في السعال ، مع عصفة ريح الصبح الباردة . كانت السماء شهباء والجبال ، التي تشكل خلفية القرية ، تطل شاحبة على الكوخ ، الذي كنت فيه ، كان البقاء هنا خطراً ، لسوف انهض ، سأخرج إلى الطريق ، وأغادر هذا المكان القفر ، وعلى حالها في الليلة الماضية كانت الأرض ترقصها الأكواب والصحاف ومزق من الثياب .

ولكن إلى أين أمضي ؟ بدا لي على أي حال أنه من الآمن أن أضرب في التلال ، بدلاً من المضي على امتداد البحر حيث من المحقق أنى سالفت الاتتباه ، لابد أن ثمة مسيحيين في مكان ما ، يعيشون سراً حياة اليقين ، على نحو ما كان مؤلاء الناس يصنعون ، قبل شهر مضى . سأبحث عنهم ، وأكتشف ما وقع هنا ، عقب ذلك أقرر ما ينبغي عمله . ولكن عندئذ خطر بيالي جاري ، فتساءلت عما يمكن أن يكون قد حل به

هكذا ، ألقيت نظرةأخيرة عبر القرية ، دالفا إلى داخل الدور . وسط هذا الخراب الكامل ، حتى ليصعب على المرء أحياناً أن يجد موضعًا لقدمه ، عثرت أخيراً على قليل من الأرز الجاف ، لفته ببعض الخرق الملقة على الأرض ، حملته معى ، ويممت شطر الجبال .

بلغت قمة الجبل الأول ، والطين المخضل بالرذاذ يعلق بقدمي ، شرعت

تدرجياً أرقى حقول الأرز المزروع على حواف الجبل ، ألا ما كان أشد فقر المسيحيين ! بأى عناء ملائة بالوصب حرثوا هذه التربة الجرداء ، مقسمين الحقول بالأسوار الحجرية ، غير أنه كان من المستحيل العيش ، وفي الوقت نفسه دفع الضرائب ، بهذا الشريط الضيق من الأرض ، الذى يخاصر البحر . فى كل مكان كانت تمتد رائحة السماد العضوى على القمح الهزيل وأشجار الكستناء ، فيما أفعمت أسراب الذباب ، التى اجتذبتها الرائحة ، الهواء ، واستقرت فى بعض الأحيان على وجهى ، الأمر الذى أثار ضيقى البالغ ، أخيراً حينما أطل الفجر ، وشرعت الجبال تتنفس فى السماء كحد السيف ، أصبح بمقدورى رؤية أسراب الغربان ، وهى تنعف بأصوات نكراة ، فيما تتوأم وسط السحب الشهباء .

توقفت فى قمة التل ؛ لأننى نظرت على القرية الراقدة عند السفح . كتلة بنية من الطين ، أسقف من القش ، تتكأ بعضها حول البعض الآخر ، أكواخ شيدت من الطين والخشب ، وما من أثر للحياة على الطريق أو على الشاطئ المكفر . أساندت جذعى إلى شجرة ، رحت أطل على ذلك الوادى ، الذى فضضه المطر ، وحده بحر الصباح كان جميلاً ، تألق هذا البحر الذى يعانق عدداً من الجزر الصغيرة ، مثلاً تألق ابرة فى شعاع الشمس الواهن ، فيما كانت الأمواج فى غمار ملاطمتها للشاطئ تزيد بالبقاء ، فيلمع لونها الأشهب . تذكرت مجدداً كم من البشرىن أقبلوا ومضوا عبر هذا البحر ، وتلقاهم المسيحيون بالترحاب : كزافيه ، كابرال ، فالينانو وأخرون ، يقيناً أن كزافيه حينما جاء إلى هيرانو اجتاز هذا الطريق . ثم توريز ، ذلك الداعية اليابانى العظيم ، النبيل ، لقد زار بدوره هذه الجزر ، غير أن مؤلاء الرجال أحبهم الناس حباً بالغ العمق ، قوبلوا

بترحاب شديد الحرارة ، شالوا صرح كنائس ، كانت رغم صغرها جميلة ومزданة بالزهور . ما من حاجة دعتهم إلى الهرب إلى الجبال ، بحثاً عن مأوى كالمطاريد ، بينما تأملت حالي ، اصاعتني فؤادي رغبة غريبة في الضحك

اليوم ، تراصت السحب في السماء كرة أخرى ، بدا أن اليوم سيكون حاراً . راحت الغربان تدور فوق رأسى دائبة ، بينما توقفت لحظة كف نعيبها المنذر بشقق قابض ، لكنى حينما شرعت في السير عاودت مطاردتي مجدداً ، فى بعض الأحيان كان أحدها يستقر على غصن شجرة قريبة ، ويدفع بجناحيه محدقاً فيّ ، ومرة أو مرتين حسبت هذه الطيور اللعينة بالحجارة .

فى حوالى منتصف النهار ، بلغت سفح جبل هلالى الشكل ، واصلت اختيار الدروب التي يتاح لي منها رؤية البحر والساحل ، تساعلت عما إذا كانت هناك قرى في هذه الجزر ، التي ترقص سطح البحر ، في السماء الجهمة انسابت السحب الممتلئة بالمطر ، في بطيء ، كأنها سفن هائلة اقتعدت النجيل ، شرعت أمضغ بعض الأرض الجاف ، الذي اختلسته من القرية ، والخيار الذي التقطته في مسيرتى . أعادت إلى نصرة ذلك الخيار شيئاً من قوتها وشجاعتها . كانت الريح تهب على الحقول ، وحينما أغمضت عيني اشتقت رائحة شيء يحترق ، فانبعثت واقفاً

كانت بقایا نار موقدة ، لابد أن أحدهم سلك هذا الطريق قبلى ، جمع بعض الأغصان ليشعل النار ، دفعت أصبعى في الرماد ، فالغفت بعض الدفء مستكتاً في أعماقه فكرت طويلاً . أیتعين على أن أنقلب عائداً أم أواصل المسير ؟ لم

أقض إلا يوماً واحداً دون أن ألقى أحداً يضرب عبر أنحاء تلك القرية المقفرة وهذه الجبال ، التي سفعتها الشمس . انقضى يوم واحد ، مع ذلك ، يبدو الآن أننى فقدت طاقتى وشجاعتي . لكم أود أن ألقى أى رجل على الإطلاق - أى رجل ، تلك كانت الفكرة الأولى التى راودتني ، أعقبها إدراك المخاطر التى يمكن أن تكتنف هذا النهج فى السلوك . لكنى أخيراً ، وبعد تأمل طويل ، استسلمت للاغراء . رحت أحذث نفسي بأن المسيح نفسه لم يستطع قهر هذا الاغراء؛ إذ هبط من الجبل . ونادى البشر ليلتفوا حوله

استطعت أن أحدس تواً الاتجاه الذى سلكه الرجل ، الذى أوقد النار ، فلم يكن ثمة إلا طريق واحد ، يمكن أن يكون قد انطلق فيه الطريق المقابل لذلك الذى قدمت منه . تطلعت إلى السماء ، فرأيت الشمس الشهباء تائلق وسط السحب الجهمة ، التى كانت الغربان تنعب فيها بأصوات منكرة .

حثثت الخطى ملترزاً الحذر ، عبر السهل تناثرت أنواع الأشجار كافة ، في بعض الأحيان كانت تتخذ شكل رجل ، فاقف حائراً ، فيما يواصل نعيب الغربان الخشن إشارة هواجس بشعة ، مفعمة بالذير ، فى أعماقى ، واصلت السير لإبعادها عن ذهنى ، متطلعاً بعنایة فى غمار مسیرتى إلى شتى الأشجار . كنت مولعاً منذ صبائى بعلم النبات ، وتمكنت منذ وصولى للبيان من تمييز أنواع الأشجار التى أعرفها كافة ، ثمة بعض الأشجار غرسها الله فىسائر البلدان ، لكن هنا ألفيت اشجاراً أخرى من نوع لم تعرفه عيناي حتى الآن .

في الأصل ، حال لون السماء قليلاً ، عاكساً سحبًا صغيرة في

بريكات الماء ، التي بقىت على الأرض ، فبدت زرقاء أو شهباء ، أقعيت ، وبالت يدى بالماء ؛ لأربط بهما عنقى ، الذى سبع فى العرق . تبدد انعكاس السحب من الماء ، بدلاً منها أطل وجه رجل ، نعم ، انعكس فى الماء وجه مكىود ناحل - لست أدرى السر ، لكنى فى هذه اللحظة فكرت فى وجه رجل آخر . كان وجه رجل مصلوب ، وجهاً ألم الفنانين طوال قرون عديدة لم ير أى من هؤلاء الفنانين ذلك الرجل رأى العين ، مع ذلك صوروا وجهه ... أكثر الوجوه ، التي استحقت صلوات الإنسان ، وخاطبت اسمى تطلعاته ، نقاء وبهاء ، يقيناً أن وجهه الحقيقى كان أكثر جمالاً من كل ما تفتقن عنه قرائحهم ، مع ذلك كان وجه الذى انعكس فى بريكة ماء المطر هذه مثقلًا بالطين وبلحية نامية ، كان ناحلاً ، قنراً ، وجه رجل مطارد ، سكته القلق والاعياء .

أتدرك أنه فى مثل هذه الظروف قد تدرك المرء فجأة نوبة من الضحك ؟ أدنى وجهى من الماء قلبت شفتى ، شأن معتوه استبد به الجنون ، دوامت عينى فى محجريهما ، وواصلت التجهش ورسم علام تثير السخرية على وجهى فى حقال الماء .

لِمَ أَتَيْتَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَمَّاقَةَ ؟ لِمَ ؟ لِمَ ؟

فى الغابة ، تردد صوت أزيز خشن ، فيما عدا ذلك ساد صمت مطبق تهافتت الشمس تدريجياً . ادھمت السماء ، محتشدة بالسحب ، مرة أخرى ، فيما استطالت التلال فى السهل ، تخليت عن أمل اللحاق بالرجل ، الذى أوقد النار . وحدها كلمات الكتاب المقدس اصاعدت فى فؤادى ، فرتلتها لنفسى ، فيما كنت أجر قدمى على الطريق : «أى فائدة للبشر من جميع تعبهم الذى يعانونه تحت الشمس . جيل يمضى وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر

والشمس تشرق والشمس تغرب ثم تسرع إلى موضعها الذي طلعت منه . تذهب الريح إلى الجنوب وتتدور إلى الشمال . تدور وتطوف في مسیرها ثم إلى مدارها تعود الريح . جميع الانهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملأن ثم إلى الموضع الذي جرت منه الأنهر إلى هناك تعود لتجري أيضاً جميع الأمور تعى فلا يستطيع الإنسان أن يشرحها لا تشبع العين من النظر ولا تمتلىء الأذن من السمع » .

لكن صخب البحر ارتفع فجأة ، في قلبي ، على نحو ما كان بين ، في أذني ، حينما كنت أنا وجاري راقدين وحدينا ، لائذين بقمة الجبل ، ظلل صوت هاتيك الأمواج ، الذي تردد في الظلمة كفرع طبل مكتوم ، صوت هاتيك الأمواج طوال الليل فيما هي تلطم الشاطئ ، على نحو عبئي تتراجع ثم تعاود لطمه كرة أخرى ، كان ذلك هو البحر الذي اكتسح . دونما هوادة ، جثتي موكيشى وايشيزو ، البحر الذي ابتلعهما ، البحر الذي امتد عقب حتفهما بلا انتهاء بملامح لم تعرف التغيير . شأن البحر ، كان الله صامتاً ، تطاول صمته .

لا لا .. هزّت رأسى ، لئن لم يكن الله موجوداً ، فكيف تأتى للإنسان أن يتحمل وقرر تصخّاب البحر المكرور وافتقاره للعاطفة (ولكن ماذا إذا افترضنا هذا .. بالطبع ، أقول إذا افترضنا . من أعمق أغوار كيسانى أعلن صوت عن نفسه هاماً : ماذا إذا لم يكن الله موجوداً ؟)

كان هذا وهماً مفزعًا ، لئن لم يكن له وجود ، فكم يغدو الأمر بأسره عبئياً ، أى مأساة عبئية تنقلب إليها حياتاً موكيشى وايشيزو ، الذين شد وثاقهما إلى الوتد ، ولعقتهم الأمواج . والمبشرون الذين أنفقوا ثلات

سنوات في عبور البحر ليبلغوا هذه البلاد أئى وهم كانت حياتهم ، وأى موقف تجرد من المعنى أقفه بدورى ، إذ أضرب هاهنا في شعاب الجبال المقفرة . مضيت منتزعًا النجيل عبر الطريق ، طاحناً إياه بأضراسى ، قامعاً هذه الأفكار ، التي تدفع القوى في حلقي أعلم بالطبع أن أعظم خطيئة تأتىها في حق الله في اليأس من رحمته ، لكن صمته كان شيئاً لم أستطع سبر أغواره «يحفظ الرب الرجل العادل حينما يفني الطواغيت من حوله ، وينجو عندما تجتاح النار مدن السهل» .

غير أنه الآن ، فيما الأرض العصية تفتح دخاناً والثمار فجة على الأغصان لا تزال ، فإن عليه يقيناً أن يخاطب المسيحيين ، ولو بكلمة انطلقت أعدوا ، منكفاً على المنحدر ، بينما أخفف الوطء تصاعد الأفكار البشعة غائرة في الوعي ، وجالبة فزعاً مخيفاً معها ، لو أني أقررت بهذه الأفكار ، إذن لتهاوى ماضى بأسرة حتى هذا اليوم في صمت أحست بقطرة ماء تندى وجنتى ، رفعت رأسي ، فالفيت سحابة سوداء هائلة كالاصبع تمخر عباب السماء التي غدت رصاصية جهمة ، تعددت قطرات حتى لف المطر السهل كله كأوتار القيثار . لاحت أجمة قريبة ، فانطلقت نحوها عدواً بأقصى سرعة ، انطلق عدد من الطيور ، مثلاً سهم من وتر ، وأسرعت مبتعدة بحثاً عن ملاذ . لطم المطر أوراق الشجر ، حيث وقفت ، محدثاً صوتاً يحاكي حصياً تتهاوى على السقف . ابتلت ثياب الفلاح ، التي كنت ارتديها تماماً ، وبدت قمم الأشجار المتأرجحة تحت المطر الفضى كأششاب البحر ، ثم بعيداً وراء هذه الأغصان المتأرجحة على الشاطئ ، لحت كوخاً ، لربما بناء القرويون ، لاتخاذه مأوى لهم ، خلال الاحتطاب .

فجأة أقلعت السماء ، على نحو ما أمطرت ، اكتسى السهل حلت
الشهباء كرفة أخرى . شرعت العصافير تشنو ، كأنها صحت من غفوتها
واصلت قطرات ثقيلة السقوط من أوراق الأشجار . جفت عن جبيني
ال قطرات ، التي كانت تنساب إلى عيني . دنوت من الكوخ . ما أن تطلعت
داخله ، حتى لفتحت رائحة كريهة ، شاهدت سحابة من الذباب تتدافع
حول المدخل ، كانت تطلق فضلات بشرية

ادركت توا أن ثمة رجلاً كان هنا منذ وقت ليس بالبعيد ، نال قسطا
من الراحة ، وانطلق في سبيله ، لكن الحق أقول أن الغضب اعترانى أزاء
ذلك . كان من البربرية بحيث استخدم المأوى الوحيد على هذا النحو ، لكن
الموقف كان له كذلك جانب الضحك ، فانفجرت ضاحكاً ، وانحر خوفى من
ذلك الرفيق

دلفت إلى الكوخ ، فأنست جمرات لا يزال بصيصها متقداً ، أسعدنى أن
هناك بقية من جمر ، يمكنني أمامه أن أجفف ثيابي المبتلة ، شعرت بأن
بمقدوري ، حتى ان أمضيت بعض الوقت هنا ، أن الحق بذلك الرفيق ، الذى
يتقدمنى ، إذ بدا جلياً أنه ليس في عجلة من أمره .

حين غادرت الكوخ ، كان السهل والأشجار التي أوتنى من المطر يستحم
في ضياء ذهبي ، فيما كانت أوراق الاشجار ، التي غدت جافة كالرمل ، تحفل
بالشنو ، التقطت غصناً جافاً ، واستخدمته كعصا ، ومضيت لا ألوى على شيء ،
حتى بلغت أخيراً المنحدر ، الذي يمكن للمرء فيه أن يرى خط الساحل يمتد
خفياً في البعد

لم يتغير البحر الخامد الملتمع مثل ابرة ، الذي راح يلعق الشاطئ
المعقوف ، كاستدارة قوس . احتضن جزء من الساحل رملاً حلبياً البياض ،

فيما كان الآخر يشكل خليجاً تحده صخور سوداء ، داخل الخليج كان ثمة مرفأ صغير ، امتدت عليه ثلاثة أو أربعة قوارب صيد ، تلعق الرمال بأتراها . إلى الغرب ، كانت هناك قرية صيادين ، تخاصرها الاشجار ، هي أول أثر لجماعة من البشر يقع عليه بصرى منذ الصباح

اقتعدت المنحدر ، ضممت إلى ركبتي ، رمقت القرية مدققا بالنظرة الجسور التي لكتب مسحور . ربما هبط الشخص ، الذي ترك الجمرات في الكوخ ، هذه القرية . وبإمكانى أيضا أن اهبط المنحدر سريعاً مقتدياً به ، ولكن أهى قرية مسيحية ؟ رحت أمعن النظر ، بحثا عن كنيسة أو صليب .

كان فالينانو والدعاة الآخرون في ماكاو قد حذرونا من أن نتصور أن الكنائس في هذه البلاد تحاكي الكنائس في الوطن ، فقد دعا السادة القطاعيون المبشررين إلى اتخاذ المباني والمعابد القائمة بالفعل كنائس لهم ، وقد حدث في بعض الأحيان حتى أن الفلاحين خلطوا بسبب هذا بين المسيحية والبوذية ، معتقدين أنهما شئ واحد ، بل ان كزافييه أوشك ، بسبب هفوة ارتكبها مترجم ، أن يصل إلى الاخفاق ، في هذا الصدد ، فقد اعتقد بعض اليابانيين لدى سماع عظاته أن هنا هو الشمس ، التي كان أهل هذه البلاد يقدسونها ، منذ أجيال بعيدة ، من هنا ، فإن عدم رؤيتها لمبان ذات ابراج ملحقة بها لم يعن ألا وجود لكنائس هنا ، فقد يكون في وسط الأكواخ الطينية ، القابعة أسفل المنحدر ، كوخ يستخدم كنيسة ، ولربما المسيحيون الذين طحنهم الفقر يتوقون إلى قس يمنحهم الأسرار المباركة ، يصفى لاعترافاتهم ، ويعد اطفالهم . في هذه الصحراء ، التي نفى منها الدعاة والقسس . كان الوحيد الذي يستطيع أن يمد ماء الحياة لهذه

الجزيرة الليلة هو الانسان الملتف بإهابي . نعم أنا وحدي ، مرتدياً هذه
الخرق الممزقة بذراعي اللتين تضممان ركبتي

اجتاحتني عاطفة جياشة ، فيما كنت أهبط المنحدر ، الذى كان المطر لا
يزال يبalle ، معتمداً عصاى ، مندفعاً نحو أبرشيتى ، نعم ، تلك هى
أبرشيتى ، تلك هى الأمانة التى عهد بها إلى الرب . ولكن خلال عدوى ، ندت
صيحة عن رجل ، من أحد أركان القرية ، كانت تحيطه أشجار الصنوبر ، بدت
كما لو كانت تصاعد من أعماق الأرض ، توقفت بعصاى فى يدى ليتجانى
بوضوح لهب قان كئيب لنار تقد . ادركت غريزياً أن شيئاً ما حل بالقرية ،
فمضيت أرقى عدواً المنحدر الذى كنت أنزلق عليه بمثل هذه السرعة . هناك
عند الطرف البعيد من المنحدر ، لم أر إلا شبح رجل يرتدى ثياب الفلاحين
الرمادية ويلوذ بالفرار منى ، ثم نظر تجاهى ، وتوقف . تطلع الوجه الناحل
نحوى بشئ من الارتياح : «أبت !» لوح بيديه ، هاتفا بهذه الكلمة . ثم أشار
إلى القرية صارخاً كرة أخرى بشئ ما ، كان يشير على بالاختفاء . منطلقاً
بأقصى ما امكنتى من سرعة ، حاولت أن أخفى نفسي ، مثل حيوان برى ، فى
ظلل صخرة هائلة ، لهشت محاولاً السيطرة على أنفاسى المتهدجة . سمعت
ووقع اقدام ، ثم من بين الصخور بعيدة ، لاحت عينا ذلك الرفيق الضيقتان
الفأريتان ترقباننى

أردت أن أجف العرق المنحدر من وجهى ، لكننى حين تطلعت إلى
كفى أدركت أنه لم يكن عرقاً ، وإنما دم يشخب ، فقد ارتبطت بشئ ما
خلال وثبتي
- أبت !

كانت العينان الضيقتان تحدقان بي ، من عتمة ظل الصخرة

- أبْتَ مَا أَسْعَدْنِي بِرُؤْيَاكِ ...

الابتسامة المتدللة ، محاولة التملق ، اللحية النامية ، بارزة الشعيرات ، على

امتداد الذقن

قال :

- هذا المكان خطر ، لكنني سأعنى بك .

صامتاً رحت أطّالع صفحَة ذلك الوجه . كان كيشيجيرو ، ذلك الكلب الذي طالته السياط يبتسم ناظراً إلى عينيهما ماكرتين . انتزع بعض النجيل ، ودسَّه بفيه ، وراح يمضغه بأسنانه الصفراء ، غمغم ناظراً نحو القرية

- إنه لفظيع

فيما كنت أحدق فيه ، أدركت أنه كان الرفيق الذي أوقد النار في الحقول الممتدة على جوانب الجبل ، والذى لوث الكوخ ، ولكن لم يضرب في الجبال على هذا النحو ؟ كان قد دهس الايقونة ، فما الذي يخشاه ؟

- أبْتَ لِمْ جَئْتَ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ؟ هَذَا مَكَانٌ خَطِيرٌ ، لَكِنِي أَعْرَفُ قَرْيَةً يَخْتَفِي بِهَا بَعْضُ الْمُسْيِحِيِّينَ

ظللت أحدهجه ، في صمت . كل قرية مر بها هذا الشخص الوضيع فاجأها رجال الحكومة ، ازدحمت الشكوك ، منبعثة من الماضي في ذهني ، ربما لم يكن إلا طعمًا للإيقاع بالآخرين . كنت قد سمعت قبلًا أن المرتدين يستخدمون من قبل الحكومة كعملاء لها ، وأنهم يتواطئون ، طوعاً ، كائناً يشعرون بأن بمقابرهم تبرير جريمتهم البشعة بإضافة شخص آخر إلى صفوفهم ،

ونهج تفكيرهم يقارب نهج الملائكة الساقطة ، حينما تفوق الناس
باقتراح الخطيبة

شرع المغيب يطوى الجبال المحيطة بنا في قبضته . في القرية ، بدأ لهب مشعل أحمر يجوب أرجاعها ، مع ذلك لم يكن ثمة إلا الصمت . بدت القرية ذاتها وأهلها كما لو كانوا يقبلون عناهم دونما احتجاج ، ما عاد بوسع الناس ، وقد تمرسوا طويلاً المعاناة أن ينخرطوا في البكاء ، أو الصياح ، في غمار المهم

كان التخلّى عن القرية مؤلماً بالنسبة لى ، تماماً مثل نزع القشرة عن جرح بدأ لتوه في الالئام ، صرخ صوت في أغوار قلبي : « ضعيف أنت ، جبان » ، ليرد عليه صوت آخر يدعوني إلى عدم الاستسلام للحظة من العاطفة والانفعال : « ربما كنت أنا وجاري القسيسين الوحدين في هذه البلاد ، فإذا ما هلكت تهلك الكنيسة اليابانية معك ، ينبغي أن تحيا وجاري أيّا كانت الجراح والعذابات التي تقتضيها هذه الحياة »

مع ذلك فقد ت ساعلت عما إذا كان ذلك لا يعدو أن يكون صوت ضعفي ، عادت إلى ذهني رواية ، سمعت بها خلال وجودي في ماكاو ، كانت عن قس فرنسيسكاني افلح في النجاة من موت كان سيلاقاه شهيداً ، وواصل البشاررة سراً ، لكنه استسلم في قلعة السيد الاقطاعي أومورا ، بسبب اندفاعه اللحظى ، تهافت العمل السري الارساليه بأسره ، وتعرضت سلامه المسيحيين للخطر . كانت هذه القصة ذاتعة ، ومغزاها أن القس لا يوجد لكي يصبح شهيداً . فعليه أن يبقى على حياته ، حتى لا تخبو شعلة الایمان ، بينما تتعرض الكنيسة للأضطهاد

تبغى كيشيجiro ، مثل كلب مسحور . حينما أقف يقف بيوره ، يصبح

- لا تمض بهذه السرعة ، إنتي مريض ، خبرنى إلى أين تذهب ، يقول
الحاكم إن من يجد أحد الآباء سيحصل على ثلاثة قطعة فضية

- هكذا فإن ثمنى ثلاثة قطعة فضية ؟

كانت تلك أولى كلماتى لكيشيجIRO ، انبعثت ضحكة مريرة لترتسم على
ملامحى فى تلفظى بها ، لقد باع يهودا المسيح لقاء ثلاثين قطعة من الفضة ،
وما أنذا أقوم بعشرة أضعاف هذا القدر

- من الخطورة أن تمضى وحيداً

قالها ، وكأنما أراحه شئ ما لحق بي ، واصل لطم الشجيرات بغصن يحمله ،
فى سيره إلى جوارى ، منق نعيب الغربان عتمة المساء .

- أبى ، أعرف مكاننا به مسيحيون ، سنكون آمنين هناك ، دعنا نذهب إليه ،
بوسعنا الليلة أن نرقد هنا ، وفي الغد ننطلق .

دونما انتظار لردى أقعى على الأرض ، التقط فى حذق أغصاناً لم يبللها غيم
المساء ، انتزع حجر قداحة من جيبيه ، وأشعل ناراً

قال

- لابد أنك جائع

أخرج من كيسه سمكates قلائل مجففة ، حينما لاحتها عيناي السغبتان ،
سال لعابى ، لم أكن قد ذقت منذ الصباح شيئاً ، إلا حبات من الأرز غير
المطهى والخيار ، هكذا كان طعام كيشيجIRO ، الذى لوح به أمامى ، مغرياً
حقاً ، بينما علا الهيب ، وشويت السمكates الملحنة على مهل ، ارتفع عرف
شهى لا يحتمل ، حتى بلغ خيصومى

- ألن تأكل ؟

مفترا عن أسنانى ، أمسكت فى شرامة بالسمك المجف ، كانت شريحة واحدة كافية للوصول بي إلى التوافق مع كيشيجiro ، حذجنى بنظرة تجمع بين الاشفاع والازلاء ، فيما كنت التهم السمك بنهم ، ظل طوال الوقت يلوك العشب ، كما لو كان طباقا ، أو شيئاً من هذا القبيل .

التفت المنطقة المحيطة بنا بالظلمة ، شرعت ببرودة ثلجية تضرب أطبابها فى الجبال ، بدا المطر الذى نشهى الغيمة كما لو كان يتخلل جسدى ، رقدت إلى جوار النار ، كائناً أوشك على الإغفاء ، لكن النوم كان محالاً ، فلو أتى غفوت لحظة لا نسل كيشيجiro مبتعداً ، سيعينى ، مثلاً باع رفاقه ، ربما فعل ذلك الليلة ، وبالنسبة لشحاذ مدقع الفقر منه كانت ثلاثة قطعة من الفضة اغراء مفعماً بالعذاب . حينما اغمضت عينى ، تصاعدت خلف اهدابى المتعبة الصورة الصارخة بالحياة للهضبة التى شاهدتها ، صورة البحر والجزر ، البحر متألقاً كإيرة لامعة ، والجزر ترقش سطحه ، لقد عبرت هذا البحر البديع ، الذى باركه كل هؤلاء الدعاة ، استعدت نكرى الأيام الخوالي ، التى كانت الكنائس فيها تزدان بالزهر ، والمسيحيون يحملون الهدايا من أسماك وأرز ، فى ذلك العهد كان ثمة معهد يبنى هنا ، يرتل فيه الطلاب التراتيل باللاتينية ، على نحو ما كنا نفعل فى البرتغال . كان فالستانو قد حدثنا بأنهم فى وقت من الاوقات كانوا يعزفون على القيثار والأرغن ، وسط حبور السادة الاقطاعيين .

- أبت ، أمستيقظ أنت ؟

لم أحر رداً ، لكنى تطلعت من ركتى عينى شب المغمضتين إلى رفيقى ، لئن

انسل خلسة إلى مكان ما في الليل فلن يكون ذلك يقيناً إلا لاستدعاء رجال الحكومة، كان يرقب أنفاسى الغافية ، ثم قليلاً فقليلاً بدأ في التحرك مبتعداً ، راقبته ينسى بعيداً كحيوان برى ، ستكون تلك فرصته في الابتعاد ، لكنه لدهشتى عاد إلى النار متنها ، بيديه كلتيهما واصل تكوييم خشب جاف جديد على الجمر ، مصعداً تنهاته طوال الوقت ، كائناً من فرط العذاب . سقط لهب النار القانى على وجنتيه ، فاستطعت رؤية شبحه غارقاً في الظلال ، ملتحفاً بالليل عندئذ سقطت صريع الرقاد ، تحت وقر اعياء النهار

في اليوم التالي ، واصلنا المسير ، تحت أشعة الشمس الضاربة . اصاعد البخار من الأرض المخضلة بمطر البارحة ، فيما وراء الجبال ، فضخت الشمس الآقة حواف سحابة . عانيت لبعض الوقت صداعاً وظماً أدمي لهاوى لست أدرى ما إذا كان كيشيجورو قد لاحظ الألم مرتسماً على وجهى أو لم يلحظه ، لكنه كلن في بعض الأحيان يعبر الطريق وئيداً ، يغرس عصااه في ثعبان مخفف وسط الشجيرات ، ويوضعه في مخلاته القذرة ، قال ضاحكاً ، وقد بدت نواجذه الصفراء

- نحن ، معشر الفلاحين ، نأكل هذه الثعابين الضخمة ، كدواء لنا لماذا لم تبعنى البارحة لقاء ثلاثة من الفضة ؟ عذبتني أفكارى ، وثب إلى ذهنى ذلك المشهد النابض بالحركة والشعور ، في العشاء الأخير ، حينما التفت المسيح إلى يهودا بهذه الكلمات «اعمل ما أنت تعلمه ولا تبطئ» ورغمما عن أننى قس ، إلا أننى أجد من العسير فهم المعنى الكامل لهذه الكلمات . رحت أجر قدمى في اعياء ، إلى جوار كيشيجورو ، وسط البخار المتتصاعد ، واصلت تقليب هذه الأفكار في ذهنى . أى انفعال ملأ صدر المسيح ، حينما أصدر أمره للرجل ،

الذى قدر له أن يسلمه ، لقاء ثلاثة من الفضة ، أتيراه كان غضبا ؟
أم حنقا ورضا ؟ أم ترى ابعت هذه الكلمات من الحب ؟ لو انه كان
الغضب ، لكن المسيح قد حجب الخلاص عن هذا الرجل وحده ، من بين
رجال العالم كافة ، عندئذ يكون قد سمح لرجل واحد بأن يهوى إلى وهاد

اللعنة الأبدية

لكن الأمر ما كان يمكن أن يكون على هذا النحو ، فقد أراد المسيح أن ينقذ
الجميع ، حتى يهودا ، ولو أن الأمر لم يكن كذلك ، لما جعله أبدا من حواريه . مع
ذلك ، فلم أحجم المسيح عن ايقافه حينما بدأ ينزلق عن طريق الحق ؟ كانت
تلك مشكلة لم أفلح في فهمها ، حتى حينما كنت طالبا بالمعهد الديني . ساعت
الكثيرين من القسيسين عنها ، يقيناً أنى طرحت هذا السؤال على الأب
فيريرا ، لكنى لا استطيع الآن تذكر اجابته ، وتدل هذه الحقيقة ذاتها على أنه لم
يقدم حلّاً حقيقياً

قال أحدهم

- هذه الكلمات لم تلفظ غضباً أو كراهية ، وإنما هي كلمات ازدراء
ولكن أي ضرب من ضروب الازدراء ، أكانت ازدراء لكل شيء في يهودا ؟ أو
قد كف المسيح في تلك اللحظة عن حبه ؟ تناهى الرد

- كلا ، مطلقاً ، خذ مثلاً زوجاً خانته زوجته ، إنه يواصل حبه لها ،
لكنه لا يغفر لها أبدا أنها هي ، زوجته ، قد خانته ، هذا هو شعور الزوج
الذى يحب زوجته ، لكنه يزدرى سلوكها ... موقف المسيح ازاء يهودا كان من
هذا القبيل .

لم يقنعني هذا الرد التقليدى ، حتى حينما كنت حدثاً ، بل انى ، فى الحق ،

لست قادرًا الآن على الفهم ، وإن لم يكن في هذا تجذيف ، لقلت بأنني أشعر أن
يهوذا لم يكن إلا دمية تعسة سخرت لتمجيد الفاجعة ، التي تجسدت في حياة
وموت المسيح : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» ... لكنني لم أستطع قول مثل
هذه الكلمات لكيشيجيرو ، ومن أسباب هذا العجز أنني أردت حماية حياتي ،
أما السبب الآخر فيعود إلى أن الأمل راودني عنيداً في أنه لن يردد
خيانة بأخرى .

قال رفيقي

- هذا الطريق ضيق ، ومن العسير السير هنا

تساءلت :

- أئمة نهر في مكان ما ؟

اصبح الشعور الحارق بالظلم الآن شيئاً لا يحتمل ، تأملني كيشيجيرو ملياً
باطلالة ضحكة ، قال :

- أتريد ماء ، لقد التهمت الكثير من تلك الأسماك المقددة

كانت الغربان تدور حولنا ، شأن البارحة ، ضاربة هلالاً مائلاً
في السماء ، تطلعت عالياً ، لطم عيني شعاع أشهب ، حتى أوشك أن
يذهب بيصري . داخلي الندم لتنازل ووهنى ، فمن أجل قطعة من
السمك المقدد ارتكبت خطأ لا يغتفر ، رحت أبحث عن النهر ، لكنني
عثا كنت أبحث ، كانت الريح الدافئة تهب مقبلة من البحر ، «النهر ،
النهر ، النهر» .

- ليس هناك حتى غير هنا ، ألا تستطيع الانتظار ؟

قالها كيشيجيرو ، ودون انتظار لردي ، اندفع يهبط المنحدر

حينما احتجب عن ناظري ، خلف الجرف ، حل صمت قاتل فجأة على كل ما يحيط بي ، اللهم إلا صوت الحشرات ترف وسط العشب ، زحف عظاء في نزق فوق حجر ، ثم لاذت بالهرب مسرعة . ذكرني وجهها الخبيث ، إذ حدقت نحوه ، بذلك الكيشيجيرو ، الذي اختفى عن الانظار لتوه ، أتراه حقاً مضى باحثاً عن ماء من أجله ، أم ذهب ليبيعني ، ليخبر أحدهم بأنني هنا ؟

ضمت عصاي ، وانطلقت ، فآلفيت ظمأ حلقي أكثر تعزراً في احتماله . الآن ، أدركت أن ذلك التعس قد جعلني أتناول تلك الأسماك المقددة عمداً . استعدت كلمات الانجيل عن الكيفية التي قال بها المسيح «أنا عطشان» فوضع أحد الجنود اسفنجاً مليئاً بالخل على أشنان داود وقربها من فيه ، أغمضت عيني . تردد في بعيد نداء أجيشه ، وكأنما أحدهم يبحث عنى «أبتاه ! أبتاه» اقترب كيشيجيرو ، مجتراً قدميه ، بلا مبالغاته القديمة ، حاملاً أبريق ماء ، تساعل محدقاً فيَّ بعينين أسيفتين :

- أتهرب ؟

انتزعت أبريق الماء الذي قدمه إلىَّ وألصقته بشفتي ، ونهلت الماء ، في شرامة، ودونما حياة . انسكب الماء من يدي ، فبل ركبتي

- أبت ، كنت تهرب ، ألا تثق بي ؟

قلت :

- لست أريد جرح شعورك ، كلانا متعب ، ابتعد ، رجاء ، دعني وحدى !

- وحدك ؟ إلىَّ أين تذهب ، هنا خطر ، أعرف قرية أهلها يقطنون المسيحية ، هناك كنيسة وأحد الآباء .

- أحد الآباء؟

علا صوتي لون وعى ، لم أستطع تصديق أنه قد يكون هناك قس آخر على الجزيرة غيري ، تطلع إلى كيشيجورو بشك متعاظم .

- نعم يا أبى ، وليس يابانياً ، هكذا سمعت .

- مستحيل !

- أبتاباه ، انت لا تثق بي

وقف هناك ، مقتلاً العشب ، ومتباكيًا بصوت واهن ، أضاف

- لا أحد يثق بي

- ومع ذلك ، فانك تعرف كيف تعنى بنفسك ، لقد غاص موكيشى وايشيزو إلى قاع البحر كحجرين ، ورغمًا عن هذا

- كان موكيشى قويًا ... مثل نبتة قوية ، لكن نبتة ضعيفة مثلى لن تنموا أبدًا ،
أياً كان ما تفعله من أجلها

بدا كما لو كان يحس بأنى قرعته تكريعاً أليما ، لأنه بنظره تماثل تلك التى تطل من عينى كلب طالته السياط ، تطلع إلى الوراء ، إلا أنى لم أكن قد تلفظت بهذه الكلمات متوكلاً تكريعاً . كنت أبوج فحسب بفكرة حزينة تصاعد فى ذهنى . كان كيشيجورو محقاً فى القول بأن الناس ليسوا جمیعاً قدیسین وابطاً . كم من مسيحيين كانوا ، لو قدر لهم أن يولدوا فى غير عهد الاضطهاد هذا ، وألا يجاهدوا مشكلة الردة أو الشهادة ، سيخيون حياة مباركة قوامها الإيمان ، حتى ساعة حتفهم .

راح كيشيجورو يشكوا :

- ليس لى من مكان أمضى إليه ، لا أملك إلا أن أضرب فى شعاب الجبال .

امتلاً صدرى بشعور عارم بالاشفاق . أمرته بأن يجثو . تلبية لأمرى ، ثنى ركبتيه مرتعداً ، حتى مس الأرض تسائلت

- أتشعر بالرغبة فى الاعتراف عن موكيشى وايشيزو ؟

يولد الرجال لينتموا إلى صنفين الأقوىاء والضعفاء ، القديسين والعمامة ، الأبطال ومن يجلونهم ، فى زمن الاضطهاد يحرق الأقوىاء فى السنة اللهيب ، ويغرقون فى البحر ، لكن الضعفاء ، من أمثال كيشيجIRO ، يحيون حياة التشرد ، ضاربين فى شعاب الجبال أما عنك أنت (أحاديث الآن نفسى) فإلى أى الصنفين تنتمى ، أما كنت لولا وعيك برسامتك وكبرياتك تحنو حنو كيشيجIRO فتطأ اليقونة ؟

«أخذتموه ، وصلبتموه ، وقتلتتموه»

«أخذتموه ، وصلبتموه ، وقتلتتموه»

بساطة طفل يقلد أمه ، رد كيشيجIRO كلماتى ، كلمة فأخرى ، فيما كانت عظاة تزحف كرهاً أخرى فوق السطح الاشهب للصخرة وحوله ، فى الغابات تردد صوت الزيزان ، ولفت رائحة العشب الصخرة الشهباء

متناهياً من الطريق الذى سبق أن اجترناه ، سمعت وقع أقدام رجال يشقون طريقهم ، عبر الشجيرات ، ناظرين باتجاهنا ، مستحثثين خطفهم

- أبت اغفر لي !

صاحب كيشيجIRO ، ولا يزال جاثياً على الأرض العارية ، بصوت تخنقه العبرات

- إننى ضعيف ، لست قوياً مثل موكيشى وايشينز .

كان الرجال قد أمسكوا بتلابيبى ، وشرعوا فى إلقائى أرضاً ، ألقى أحدهم بآيماعة احتقار فى وجه كيسيجiro ، الذى كان لا يزال جاثياً ، عدداً من العملات الفضية الصغيرة

~~دفعونى~~ أمامهم ، دون أن ينبعوا بكلمة ، تعثرت ، وترنحت ، فيما كنت أدفع قدمأً ، على امتداد الطريق الصلد ، تطلعت مرة إلى الخلف ، ألهيتك وجه مسلمى الناحل فى البعيد ، ذلك الوجه بعينيه المخيفتين كالعنكبوت

الفصل الخامس

كان فيض من الضياء يغمر الدنيا خارج القرية ، أما داخلها فقد بدا معتماً ، على نحو غريب . فيما كان يدفع قسراً ، راح صغارها وكبارها ، على السواء ، فى خرقهم ، يحدقون فيه بأعين متألقة من أكواخهم ، التي علتها أسقف من القش

حدث نفسه بأنهم ربما كانوا مسيحيين ، بذل جهداً ليضع ابتسامة على شفتيه قسراً ، لكن الأمر كله كان وهماً لم يلق استجابة ما ، أقبل طفل عار متربحاً إلى حيث كان ، لكن أمّه ، وهي امرأة مشعثة الشعر ، اندفعت متعرّثة ، احتضنت الطفل ، وهرّعت به كرة أخرى مضى القس ، كي يخفف رعدته المعدبة ، تلك الليلة ، يفكّر بالحاج في رجل دفع دفعاً من حديقة الجسمانية إلى قصر قيافاً

حينما خرج من القرية ، بهر تألق الشمس عينيه ، أحس بالدوار يغلبه ، دأب الحارس المنطلق وراءه ، والذى واصل طوال الوقت دمدة غامضة ، على دفعه قدماً ، سائل بابتسامة مفتوصبة عما إذا كان من المسروح به أن يتقط أنفاسه للحظة ، لكن الآخر بوجهه الجهم الضارى هز رأسه نافياً . كانت الحقول تحت الشمس الضاربة مثقلة برائحة الروث ، والقبرات تفرد في حبور عبر السماء ، ألقت أشجار هائلة ، لم يدر لها اسمًا ، ظلاً بهيجاً على الطريق ، وند عن أوراقها حفيظ منعش ، فيما هي تهتز في قبضة النسيم ، ضاق الطريق المتد عبر الحقول تدريجياً ،

حينما بلغوا الطرف الاقصى ، ألغوا وادياً منبسطاً نحو الجبال . كان هناك كوخ صغير شيد من الأغصان ، سقط ظله على الأرض الموجلة . ثمة أربعة أو خمسة من الرجال والنساء يرتدون ملابس الفلاحين ، وقد شدت أيديهم يقتعدون العشب ، بدوا وكأنهم يتهمسون فيما بينهم، لكنهم حينما تعرفوا القس ، ففروا أفواههم في دهشة لاح الحرس ، بعد أن ضمموا القس إلى المجموعة ، وكأنهم يعتقدون أن عملهم قد انتهى ، شرعوا في الترشة والمزاح ، غارقين في الضحك أبداً ، بل لم يجد عليهم القلق من أن القس قد يلوذ بالهرب . حينما اقتعد هذا الأرض ، أحنى الرجال والنسوة روعهم في إجلال

لاذ بالصمت برهة ، حاولت ذبابة أن تلعق العرق المتحدر على جبينه ، ثم واصلت الطنين في إصرار حول وجهه أصفعي إلى رفيف أجنحتها الكثيف ، أحس بأشعة الشمس الحارة تلهب ظهره ، شرع إحساس بالطمأنينة يتغلغل مؤثقاً في بدنـه كـله أخيراً وضعوا أيديـهم عليه ، كان ذلك عصى الاحتمال حقاً ، لكنه من ناحية أخرى لم يتوقع قـط مثل رباطـة الجـأش تلك هنا . شـرع يـسائل نفسه عـما إذا لم يكن الأمر كـله وهـما ، ارتفـعت في مـخيلـته ، لـسبـب غـير مـحدد ، كـلمـة «الـسبـت .. يـوم الـراـحة» كان الحـرس يـتحـدـثـون ، ويـتـضـاحـكـون فيما بيـنـهم كـائـنـ شيئاً لا يـعـكـرـ صـفـوـهم . سـلـطـت الشـمـسـ المؤـثـلـقةـ مرـحـةـ على الشـجـيرـاتـ والـكـوخـ فيـ الـوـادـيـ الصـغـيرـ . هـكـذاـ اذـنـ فـهـذاـ يـوـمـ أـسـرـهـ ، الـيـوـمـ الـذـىـ اـسـتـشـرـفـهـ بـمزـيجـ منـ الـخـوفـ وـالـرـهـبةـ . أـيمـكـنـ حـقاـ أـنـ يـكـونـ يـوـمـأـ مـفـمـورـاـ بـالـسـكـيـنـةـ وـالـسـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ ؟ـ معـ ذـلـكـ شـعـرـ أـيـضاـ ، وـعـلـىـ نـحـوـ ماـ ، باـسـتـيـاءـ يـسـتـعـصـىـ عـلـىـ الوـصـفـ ، نـوـعـ مـنـ خـيـبـةـ الـأـمـلـ ؛ـ إـذـ لـمـ يـشـعـرـ بـالـاعـتـزاـزـ لـكـونـهـ بـطـلاـ مـأـساـوـيـاـ ، شـائـنـ الـعـدـيدـ مـنـ الشـهـداءـ ، وـمـثـلـ الـمـسـيـحـ ذـاتـهـ

- أبت ، أبت ، ماذا حدث ؟

قالها رجل بعين كريمة ، محركاً رسغيه المقيدين

عندما رفع الآخرون جمِيعاً رعسهم ، وبوجوه أفعمت فضولاً انتظروا رد القس ، حدث نفسه بأنهم يحاكون رهطاً من الدواب الجاهلة بمصيرها ، لا تدري القدر القابع متربصاً بها . حينما أوضح أنه أسر في الحال ، لم يبد أنهم أدركوا ما يقول ، وضع الرجل يده على أذنه ، طرح السؤال ذاته كرة أخرى ، أخيراً لاح عليه أنه أدرك ما يعنيه القس

- آه

اصاعدت من بينهم تنحية ، تجردت من التصديق أو الانفعال

- ألا يتحدث اليابانية جيداً إنه بارع حقاً ، أليس كذلك ؟

قالتها إحدى النساء ، مثلاً طفل ، مندهشة لمعرفة القس باليابانية

اكتفى الحرس بالضحك من هذا كله ، دون أن يحاولوا تفريغ الرجال والنسوة ، أو الحيلولة دون تبادلهم الحديث ... شرع الأعور يحادث أحد رجال الحرس ، ببعض الألفة ، فرد عليه هذا بابتسمة ويدوّد

- ماذا يفعل هؤلاء الرجال ؟

همس الراهب لإحدى النساء ، فرددت بأنهم في انتظار مقدم المسؤولين ، الذين يفترض أنهم سيأتون إلى القرية ، وأضافت

- على أي حال يا أبت نحن مسيحيون ، وهؤلاء ليسوا مسيحيين ، إنهم من الاغيارات كان جلياً أنها ترى معنى عميقاً في هذا التمييز

- أما تطعم شيئاً يا أبت ؟

واصلت حديثها ، وبيديها المصفدتين ، أفلحت في أن تنتزع من صدرها خيارتين صغيرتين ، راحت تقضم أحدهما برفق ، وأعطت الأخرى للراهب ، حينما قضمها امتلاكه بنكهة المخضرة . حدث نفسه بأنه منذ مقدمه إلى هذه البلاد لم يسبب إلا العناء لهؤلاء المسيحيين الفقراء ، وأخذ يقضم الخيارة بمقدم أسنانه ، منحوه الكوخ الصغير الذي أوى إليه ، خلعوا عليه الثياب التي تكسوه الآن ، عاش على طعامهم ، الآن جاء دوره ليمنح شيئاً لكن ماذا عساه يعطي ؟ إن الشئ الوحيد الذي يتبعين عليه أن يقدمه هو حياته وحتفه

تساول :

- ما أسمك ؟

- مونيكا

وشئ الحياة ردها هونا ، كأنما كان اسمها المسيحي الخلية الوحيدة التي تملكتها ، في هذه الدنيا . ترى أى ذلك الذي منع اسم أم القديس أوغسطين لهذه المرأة التي كان بدنها يفوح برائحة الأسماك

- وهذا الرجل ؟

تساول ، مشيرا إلى الأعور ، الذي واصل الحديث مع الحرس

- أتعنى موزايمون ؟ إسمه يوحنا

- من الأب الذي عمدته ؟

- لم يكن أبا وإنما أخ ، الأخ ايشيدا ، لابد أنك تعرفه يا أبتي !

هز الكاهن رأسه نافيا ، كان جاربي هو الشخص الوحيد الذي يعرفه في

هذه البلاد

- ألا تعرفه ؟ كيف ؟ لقد قتل في أوترين .

تحدثت المرأة باندهاش ، فيما كانت تحدق في وجه الكامن

- لكن اتشعرون بالارتياح جمیعاً ؟ ألا تدرکون أننا بسبيلنا للموت بالطريقة ذاتها.

الآن أعرب أخيرا عن الشك الذي كان يختمر في قلبه
نكست المرأة عينيها ، حدقت بثبات في الشجيرات عند قدميها ، مرة أخرى راحت ذبابة اجذبتها رائحة البشر تطن حول عنقها

- لا أدرى ، اعتاد الأخ إيشيدا أن يقول إننا حينما نمضي إلى السماء سنجد هناك سلاما وسعادة دائمين ، هناك لن نضطر لدفعضرائب كل عام ، ولن يشغلنا الجوع والمرض ، لن يكون هناك كدح ، ليس لدينا في هذه الحياة الدنيا إلا المتابع ، لذا علينا أن نكبح . أبت ، أليس صحيحا أنه لا يوجد مثل هذا العذاب في السماء ؟

شعر بأنه يود لو صرخ «ليست السماء بالمكان الذي تظنين» . لكنه كبح جماحه ، لقد تلقى هؤلاء الفلاحون التعاليم كالأطفال ، راودتهم الأحلام عن سماء تخلو من الاقتضاء المرير للضرائب ومن القهـر . فمن هو ليضع نهاية قاسية لهذا الحلم السعيد ؟

قال مغمضا عينيه :

- أجل ، ما من شيء يمكن أن يسلب منا هناك ، لا يمكن أن نحرم من شيء .

لكن سؤالا قفز إلى شفتيه الآن
- أتعرفين أبا يدعى فيريرا ؟

هزت المرأة رأسها نافية . راح يسائل نفسه ترى أكان اسم فيريرا ذاته كلمة لا ينبغي أن تبوج بها شفاه المسيحيين ؟
فجأة تعالى صوت هناك من الصخرة بأعلى الوادي ، تطلع الراهب ، فشاهد ساموراي ممثلا ، ضئيل البنية ، متقدما هونا في العمر ، مبتسمًا يتبعه فلاحان ، حينما رأى ابتسامة الكهل ، أدرك أنه هو الساموراي الذي أجرى التحقيق في توموجى

- الجو حار ، أليس كذلك ؟ من الآن فصاعدا يشتد القيظ حقا ، وتصبح الحقول الممتدة شيئا لا يطاق قالها الساموراي ملوبا بمرورته ، دنا وئيدا ، متجاوزا الصخرة ، خلال حديثه

وضع يوحنا ومونيكا والرجال والنسوة الآخرون أيديهم المثقلة بالأغلال على ركبهم ، وانحنوا في أدب ، من طرف عينه شاهد الساموراي الراهب يحنى رأسه مع الآخرين ، لكنه تجاهله ، وسار قدما ، أصدرت عباعته حفيقا جافا خلال سيره ، ضاعت ملابسه بعطر رقيق

- السماء لا تمطر ليلا هذه الأيام ، والطريق مترقب تماما ، من العبث بالنسبة لكهول مثنا أن يمضوا بعيدا هكذا

جلس وسط السجناء ، ملطفا حرارة رأسه وعنقه بمرودة بيضاء ، وقال - لا تمضوا في خلق المتابع لرجل عجوز مثلى !

جعلت الشمس وجهه الضاحك مسطحا للغاية ، حتى أن الكاهن استعاد ذكرى تماثيل بونا التي شاهدها في ماكاو لم يحدث أبدا أن أثارت فيه هذه التماثيل شعورا يحاكي ذلك الذي يفجره وجه المسيح . وحده الذباب واصل

الطنين ، تارة يلف أعناق المسيحيين ، وتارة أخرى يرف باتجاه العجوز ، ثم يعود
كرة أخرى

- لم نلق القبض عليكم عن كره ، فلابد أنكم تدركون الأسباب التي تدفعنا ،
لماذا نعتقلكم فيما أنتم تسدون ضرائبكم وتعملون بجد ؟ إننا نعرف خيرا من
غيرنا أن الفلاحين هم العمود الفقري لهذه البلاد

اختلط خفيف مروحة الكهل برفيق أجنة الذباب . حملت الريح الدافئة
المعشة قوقة الدجاج من بعيد إلى موضعهم . راح الراهب يحدث نفسه ، وقد
نكس عينيه كالآخرين

أهذا هو التحقيق الشهير ؟ أولئك المسيحيون والداعاة الذين عذبوا
وعوقبوا جميعا أتر لهم سمعوا صوت الاقناع الهادئ قبل تعذيبهم ؟ أو
قد أصغوا كذلك إلى طنين الذباب في جوناس كهذا ؟ كان قد ظن أن
الخوف سيقهره ، وأن الرعدة ستأخذه ، لكنه ، واعجا ، لم يصاعد خوف
في فؤاده ، لم يدرك على وجه الدقة مدى قربه من العذاب والموت ، راوده
شعور رجل يفكر ، في يوم مطير ، في الجبل القابع في بعيد ، متوج الهاشم
بأشعة الشمس

- سأهبكم وقتا تفكرون فيه بالأمر ، وفيما بعد اطرحوا على ردا
معقولا !

قالها الكهل ، مختتما الحديث فجأة ، فيما اضمحلت الابتسامة المفترضة
على شفتيه الآن علت وجهه بدلا منها تلك الكبراء الممزوجة بالجشع ، التي
طالما رأها على وجوه التجار في ماكاو ، قال

- الآن ، امضوا !

وقف الحرس وسط الشجيرات ، وراحوا يستหثون أسرام . مضى الراهب ليقف مع الآخرين ، لكن الكهل صرخ عاليا ، وقد كشر وجهه ، محاكيا قردا ، ومفصحا للمرة الأولى عن الكراهة والسخط ، في عينيه المتقدتين.

صاح

- أنت ، أبق هنا !

قالها مادا اصبعه الضئيل على أقصى امتداده ، وواضعًا أحدي يديه على مقبض سيفه

اقتعد الكاهن الأرض ثانية وسط الشجيرات ، وعلى فمه ابتسامة واهنة انبعث الكهل ضئيل الجرم واقفا ، هطبع بعنقه ، مثل ديك يتأنب للصراع ، سارع منتفخ الأوداج ، مبديا بوضوح للسجنا عزمه على ألا يغلبه أجنبي . حدث الكاهن نفسه بأن الرجل يبدو قردا ، ما من حاجة تدعوه إلى أن يقف هناك ويده على سيفه ، فلن ألوذ بالهرب .

رمق الجمع ، وهم يردون ، موثقى الأيدي جمیعا ، المرتفع ، ويحتاجون عن الأنثار ، في أحضان المحببة البعيدة «في زمن الآلام المقدس هذا اغمرنا برحمتك» ارتفعت الترتيلة مريرة إلى شفتيه الجافتين ، غمغم

- الهى ، لا ترد عناعم ، فهو يثقل كواهلهم ، وقد استطاعوا احتماله حتى اليوم . هل بوسعك أن تثقل بالمزيد من الابتلاء قوما سحقتهم أثقال الضرائب ورجال الحكومة والضراوة ؟

رفع الكهل قدحا إلى شفتيه ، بل حلقه ، مثما تفعل دجاجة بالماء ، قال :

- قابلت عددا كبيرا من الآباء ، حققت معهم في بعض الأحيان

بـل شفتيه ، وراح يتحدث بصوت مجامل ، يتناقض تماما مع موقفه
السابق

- أتفهم اليابانية ؟

في السماء امتدت رقائق قليلة من السحب ، اظلم الوادي قليلا ، وسط
الشجيرات القريبة كان طنين الحشرات المكتوم يعلو ، مفصحا عن نفسه
للمرة الأولى

قال

- الفلاحون حمقى ، وأمر الافراج عنهم يتوقف كلية عليك
لم يتفهم الراهب على وجه الدقة ما هو بازائه ، لكن التعبير الذي علا
ملامح الآخر أوضح أن الوغد العجوز الماكر كان ينصب شركا له
لا يستطيع الفلاحون أن يفكروا لأنفسهم ، وحتى إذا تحدثوا في الأمر
فيما بينهم ، فلن يصلوا إلى نتيجة ، لكنك إن قلت كلمة واحدة ...

تساءل الراهب

- ما الذي تحاول قوله ؟

قال الكهل ضاحكا ، وملوها بمرورته

- ارتد ! ارتد !

رد الراهب بهدوء ، ضاحكا طوال الوقت :

- بافتراض أنى أرفض . ستقتلنى ، فيما افترض

قال الكهل :

- لا لـن نفعل هذا ، لو أننا قمنا بهذا لأصبح الفلاحون أكثر

عنادا ، لقد ارتكبنا هذا الخطأ في أومورا ونجازاكى . إن المسيحيين
جمع عنيد

ندت عن الكهل تنهيدة عميقه ، خلال حديثه ، لكن كل شيء بدا جليا
للراهب ، باعتباره ملهاة ، بل استشعر لذة خفية في معابثة هذا الكهل ،
الذى يحاكي القرد فى مظهره

- الآن ، لئن كنت أبا في قراره فؤادك ، فينبغي أن تشعر بالشفقة على
المسيحيين . أليس الأمر كذلك ؟

دونماوعى شعر الراهب بشفتيه تلتويان ، يا لذلك الكهل من ساذج !
أيظن أنه يستطيع أن يربح شيئاً بمنطقه الصبياني هذا ؟ غير أن ما نسيه حقا
هو أنه إذا كان هذا المسئول بسيطاً حد الصبيانية فإنه بالمثل بسيط في
تجراه غضباً ، إذا ما لحقته الهزيمة في المحاورة

قال الكهل

- ماذا ترى في الأمر ؟

قال الراهب هازا كتفيه ، ضاحكا

- أنزل العقاب بي وحدى !

وسم الغضب جبين الكهل ، تدرج قصف الرعد الخافت الكئيب من
السحب البعيدة

اختم الكهل حديثه

- بسببك سيعرفون العناء

دفعوه إلى الكوخ الصغير . من خلال تلك الجدران المضفورة من الأغصان ،

المنتصبة على الأرض العارية ، انسلت أشعة الشمس الشهباء ، كأنها قطع من الغزل ، كان بوعيه أن يسمع في الخارج الأصوات المكتومة للحرس في ثرثتهم أين مضوا بالسيحيين ؟ لقد اختفوا عن العيان ، وكان هذا كل ما هناك اقتعد الأرض ، ضاما إليه ركبتيه ، راح يفكر في مونيكا ورفيقها الأعور ، ثم حلق به التفكير حول قرية توموجي ، حول أوماتسو وايشيزو وموكيشي ، أحس بقلبه ثقيلا . لو أنه أتيحت له لحظة للتفكير لبارك على عجل هؤلاء المسيحيين المساكين ، على الأقل ، لكنه حتى لم يتح له التفكير في الأمر . كان ذلك برهانا على أنه لم تتح له لحظة واحدة يتمهل فيها . كان ينبغي على الأقل أن يسألهم أى يوم من أيام الأسبوع هذا ، وما موضعه من الشهر ، لكنه نسى ذلك أيضا . بدا ، منذ مجئه إلى هذه البلاد ، وكأنه فقد كل شعور بالزمن ... بالشهور والأيام ، بحيث لم يعد بمقدوره الآن أن يقدر كم يوما مر منذ الاحتفال بالفحص ، أو أى عيد من أعياد القديسين يحتفل به اليوم

شرع يسبح بالاستعانة بأصابعه الخمسة بدلا من المسحة ، ولكن تماما مثلما يساقط الماء عن فم مريض ، غلق المرض شفتـيه ، ظلت صلاتـه فارغـة جوفـاء على شفتـيه اجتذـبـته أصـواتـ الحرس خـارـجـ الكـوخـ . ترى أى أمر كان من الطرافة بحيث دفعـهم إلى موـاصـلةـ رفعـ عـقـائـرـهمـ بالـضـحـكـ منـ القـلـبـ علىـ هـذـاـ النـحوـ ؟ تحـولـتـ أفـكارـهـ إلىـ الحـديـقةـ الـتـىـ أـنـارـتـهـ المشـاعـلـ والـخـدـمـ ، وـشـخـوصـ أولـئـكـ الرـجـالـ القـابـضـينـ عـلـىـ مشـاعـلـ تمـجـ لـهـاـ سـوـدـهـ الدـخـانـ ، دونـماـ مـبـالـةـ بـمـصـيرـ رـجـلـ وـاحـدـ ، كانـ الحـرسـ أـيـضاـ رـجـالـاـ لاـ يـأـبـهـونـ بـمـصـيرـ الآـخـرـينـ . كانـ ذـلـكـ هوـ الشـعـورـ الـذـىـ أـثـارـهـ ضـحـكـهـمـ وـثـرـثـهـمـ فـىـ فـؤـادـهـ . رـاحـ يـفـكـرـ فـىـ أـنـ الـخـطـيـئـةـ لـيـسـتـ مـاـ يـظـنـ عـادـةـ أـنـهـ عـلـيـهـ ، لـيـسـتـ السـرـقةـ

والكذب . إنما الخطيئة أن يدهس الرجل كالدابة على حياة رجل آخر ،
مستشعرا السكينة ازاء الجراح ، التي خلفها ورائعه ، عندئذ اصتاعدت في
قلبه للمرة الأولى صلاة حقيقة

فجأة انقض شعاع من نور باهر على جفنيه المغمضين . فتح أحدهم
باب الكوخ ، بهدوء ، متسللا ، حتى لا يحدث ضجيجا ، ثم راحت عينان
ضيقتان ، متوعدتان ، تحدجانه . بينما فتح الراهب عينيه ، حاول المتسلل
الانسحاب مهولا

- إنه هادئ .. أليس كذلك ؟

شخص آخر كان يحادث الحارس ، الذي تطلع داخل الكوخ ، الآن فتح
الباب . ارتمى دفق من الضياء في الحجرة ، بدا شبح رجل ، ليس الساموراي
الكهل ، وإنما آخر لا يتنطق بسيف قال :

- عفوا سيدى (١)

هكذا فهو يتحدث البرتغالية ، كان النطق غريبا ومتعرجا ، لكنها البرتغالية
يقيينا

- سيدى !

- إنه وعد الرب ، سيدى !

كان تدفق الضوء الباهر المفاجئ قد جعل الراهب يشعر باللوار
هونا ، أصفعى إلى الكلمات ، نعم ثمة أخطاء هنا وهناك ، لكن المعنى لا
يطاله الشك

استطرد الآخر ، فى حديثه ، بالبرتغالية

- لا تدهش ، فهناك فى نجازاكى وهيرانو عدد من المترجمين مثلى ،

(١) بالبرتغالية فى الأصل

لكنى أرى يا أبى تمتلك ناصية لفتا ، هل بمقدورك أن تخمن أين
تعلمت البرتغالية

واصل الرجل حديثه ، دون أن ينتظر ردا ، وخلال حديثه استمر يحرك
مروحته ، على نحو ما كان الساموراي الكهل يفعل :

- بفضلكم ، عشر الآباء البرتغاليين ، شيدت المعاهد الدينية ، فى أريما
واما كوسا وأمورا ، لكن ذلك لا يعني أننى مرتد ، لقد عمّدت بالفعل ، لكنى
منذ البداية لم أكن أود أن أغدوا أخا مسيحيًا ، إننى ابن ساموراي يعمل
بالقضاء ، وما كان يمكن لشئ أن يرفع شأنى إلا العلم
كان هذا الشخص يؤكّد بإلحاح على حقيقة أنه لم يكن مسيحيًا ،
جلس الراهب في الظلمة بوجه جامد الملامة ، وهو منطلق في ثرثره
صاحب الرجل متعجبًا ، وقد بدأ الغضب يتتبّعه

- لم لا تقول شيئا ، كان الآباء دائمًا يسخرون منا ، أعرف الأب كابرال
ما كان يكن شيئا إلا الإزدراء للبابانيين كافة . كان يحتقر بورنا ،
يحتقر لفتا ، يحتقر طعامنا وعاداتنا ... رغم ذلك فقد عاش في
اليابان . وحتى أولئك الذين تخرجوا من بين صفوفنا من المعهد الديني لم
يسمع برسامتهم

خلال حديثه ، وفيما كان يستعيد ذكري أحداث الماضي ، ازداد صوته
تهجّجاً وعنفا ، غير أن الراهب ، الذي اقتنع بالأرض هناك ضاماً ذراعيه حول
ركبتيه ، كان يعرف أن غضب ذلك الشخص لم يكن مجرداً تماماً من المبرر ،
فقد سمع شيئاً عن كابرال من فالينانو في ماكاو ، وتذكر كيف أن فالينانو
تحدث بحزن عن المسيحيين والرهبان الذين هجرّوا الكنيسة بسبب موقف
هذا الرجل من اليابان

أخيرا ، قال :

- إنني لست مثل كابرال

ندت ضحكة عن الرفيق ، قال

- أحقا ، لست على يقين من هذا

- لم ؟

لم يستطع الراهب في العتمة تبين التعبير الذي ارتسم على ملامح ذلك الشخص ، لكنه خمن بشكل ما أن هذا الصوت الخفيض الضاحك يصدر عن وجهه أفعى كراهية وسخيمة . كان بمقدوره أن يحس بذلك واثقا ، إذ اعتاد سماع اعترافات المسيحيين مغمض العينين . لكنه حدث نفسه ، فيما كان يتطلع نحو الآخر ، بأن ما يصارعه هذا الشخص ليس الأب كابرال ، وإنما حقيقة أنه تلقى

العماد يوما

- أما تخرج يا أبتي ؟ لست أظننا بحاجة إلى التخوف من أنك ستلوذ بالهرب الآن

قال الراهب ، وقد ارتسم ظل ابتسامة على شفتيه

- لن تكون على يقين أبدا ، فلست قديسا ، إنني أرهب الموت

- أبتي ، في بعض الأحيان لا تسفر الشجاعة إلا عن اثارة المتابعين الآخرين ، إننا نسمى هذا بالشجاعة العميا ، والكثيرون من الآباء الذين افعموا عن تعصب بهذه الشجاعة العميا ينسرون أنهم لا يسببون إلا المتابعي اليابانيين

- وهذا هو كل ما فعله الدعاة ؟ أو قد سببوا المتابعي فحسب ؟

- إذا فرضت على الناس شيئا لا يريدونه ، فإنهم يميلون إلى أن يقولوا

شكرا على الهباء الذى منحتنا إياه . والدين المسيحي هو شئ من هذا القبيل هنا ، فلدينا ديننا ، ولسنا بحاجة إلى دين جديد ، دين اجنبي . لقد تعلمت المذهب المسيحي فى معهد دينى ، لكنى أقول لك بأننى لا أعتقد أنه ينبغي أن ينقل إلى هذه البلاد .

بهدوء ، قال الراهب ، خافضا صوته :

- ان طريقينا فى التفكير مختلفان ، ولو أنها كانتا شيئا واحدا ، لما عبرت البحر من بعيد للمجئ إلى هذه البلاد
كان هذا هو سجاله الأول مع ياباني ، ترى أقد اشتبك كثير من الآباء منذ عهد كزافييه فى مثل هذا السجال مع البوذيين ؟ لقد حذر فاليلنانو من ألا يقدر نكاء اليابانيين حق التقدير ، وقال إنهم محذكون فى فن المساجلة .

اندفع الآخر للهجوم ، فيما هو يفتح ويطوى مروحته :

- طيب ، إنن ، دعنى أطرح سؤالا ، يقول المسيحيون إن ربهم هو منبع المحبة والرحمة ، مصدر الخير والفضيلة ، فيما تجليات بودا جماعها تمثل بشرا ، ولا تستطيع أن تحظى بهذه الصفات . أهذا هو موقف كذلك ، يا أب ؟

- لا يمكن لبودا أن يهرب من الموت بأكثر مما يمكن لنا ، إنه شئ مختلف عن «الخالق» .

- وحده القس الجامل بتعاليم بودا هو الذى يمكنه التقول بمثل هذا ففى الحق ليس بمقدورك القول بأن تجليات بودا لا تتجاوز البشر ، ثمة ثلاثة أنواع من تجليات بودا ، هوسين ، جوسين ، أوكا . وبودا أوكا يفصح عن

ثمانية جوانب لخلاص البشر وآفادتهم ، لكن هوسين لا يحده بدء ولا انتهاء ،
ولا يتبدل ، ولا يتغير ، ومكتوب في محاورات بوذا أنه خالد ، لا يعرف التغيير
طريقاً إليه ، ووحده المسيحي هو الذي يمكن أن ينظر إلى تجليات بوذا
باعتبارها تمثل بشرا ، إننا لا نفكّر بهذه الطريقة على الإطلاق

وأصل الرفيق صب ريدوه ، كأنما حفظها عن ظهر قلب ، لا شك أنه حق
مع الكثيرين من المبشرين في الماضي ، وأمعن التفكير في أفضل السبل
لإيقاع الهزيمة بهم ، جلى أنه انتهى إلى استخدام الفاظ حوشية ، لا يتاح له
هو نفسه فهمها

قال الراهب ، ممسكاً بنقطة ضعف الآخر ، ومتصدياً للهجوم
- لكنكم تعتقدون أن كل شيء يوجد بصورة طبيعية ، وأن العالم لابد له
ولا انتهاء

- نعم ، هذا موقفنا

- لكن الشيء المتجرد من الحياة ينبغي أن يحركه شيء آخر من خارجه
أو من داخله ، فكيف ولدت تجليات بوذا ؟ فضلاً عن هذا ، فإنني أفهم أن
تلك التجليات ذات قلوب رحيمة ... ولكن قبل هذا كله كيف صنع العالم ؟
إن إلهنا هو مصدر وجوده الخاص ، لقد خلق الإنسان ، وخلع الوجود على
الأشياء كافة

- إذن فقد خلق رب المسيحى الأشرار أهذا ما تقوله ؟ هل الشر أيضا
من عمل إلهكم

قالها المترجم ، ضاحكاً في رقة ، مستمتعاً بفوزه
صاح الراهب هازا رأسه

- لا ، لا ، لقد خلق الله كل شئ للخير ، ولهذا الخير خل على الإنسان القدرة على التفكير ، لكننا نحن البشر نستخدم هذه القدرة على التمييز بصورة خاطئة ، وهذا هو الشر

قرقع المترجم بمسانده فى ازدراه ، لكن الراهب ما كان يتوقع أن يقتنع بهذا الايصالح ، فهذا اللون من الحوار سرعان ما يكف عن أن يكون حوارا ، إذ يغدو تلاعبا بالكلمات ، يحاول المرء بقوة أن يلقي خصميه فى غماره أرضا

صاحب المترجم

- كفى سفسطة ، قد تقنع الفلاحين مع زوجاتهم وأطفالهم بهذه الطريقة ، لكنك لا تستطيع خداعى الآن دعني أطرح عليك سؤالا واحدا إذا كان صحيحا أن الله رحيم عطوف حقا فكيف تفسر الحقيقة القائلة بأنه ابتلى الإنسان بكل ضروب الابتلاء وأفانين المعاناة تلك فى طريقه إلى السماء ؟

- كل أفانين المعاناة ، أعتقد أن فهم الأمر قد فاتك لو أن الإنسان التزم في اخلاص بوصايا هنا لكان بمقدوره أن يحيا في سلام ، لو أننا ساورتنا الرغبة في أن نأكل شيئا فبمقدورنا أن نأكله ، فالله لا يأمرنا بأن نهلك جوعا ، كل ما يطلب منا أن نمجد خالقنا ، وفي هذا الكفاية ، أو فلنضرب مثلا آخر ، حينما لا نستطيع الخلاص من رغبات البدن ، فالله لا يأمرنا بتجنب الاتصالات النساء كافة ، وإنما هو يخبرنا أن تكون لنا زوجة واحدة ، وأن ننفذ مشيئته الربانية

حينما انتهى من الحديث ، شعر بأن رده اكتسى اطارا طيبا ، كان

بمقدوره أن يشعر في عتمة الكوخ بأن المترجم قد ضاعت منه الكلمات ،
وأفحى حد الصمت .

قال الآخر غاضبا ، ومنتقلا للحديث باليابانية

- كفى ! ليس بمقدورنا أن نمضي إلى الأبد بهذا المزاج العبثي ، لم آت هنا
لهذا العبث

صاحب ديك في بعيد . من الباب الموارب ، انسل خيط وحيد من النور ،
فاخترق حجب عتمة الغرفة ، وسبحت عبره آلاف ذرات الغبار متراقصة ، راح
الراهب يحدق فيها باهتمام

ندت تنحيدة عميقية عن المترجم ، وقال :

- إذا لم ترتد ، فسيتعلق الفلاحون في الحفرة

لم يستطع الراهب أن يفهم تماما معنى ما يقوله

- نعم سيتعلق خمسة فلاحين ، وقد قلبو رأسا على عقب في الحفرة ، خلال
عدة أيام

- يعلقون في الحفرة ؟

- نعم ، يا أبتي ، ما لم ترتد
لزم الراهب الصمت أهذه الكلمات جادة ؟ أم تراها تهديدا ؟ راح يحدق في
العتمة ، وعيناه تائتان

- أبتي ! ألم تسمع أبدا بإينوى ؟ إنه الحكم ، ستقابله وجهها لوجه في وقت
ما للتحقيق

إ - ي - ن - و - ي ... بهذه المقاطع وحدها بدت الحياة وكأنها تدب

فى برتغالية المترجم . لطمـت أذنـى الراـهـب ، عـلـى الفـور اـهـتزـ بـدـنه كـلـه ،
وـأـخـذـتـهـ الرـعـدةـ .

- الآباء الذين ارتدوا بعد تحقيق إينوى معهم هم «الآباء بورو ، بيدرو ، كاسولا ، والاب فنزيرا» .

الأب فيريرا !

نعم . أو تعرفه ؟

- لا ، لا أعرفه ، فهو ينتمي إلى طائفة أخرى ، لم أسمع أبداً باسمه ، لم
أقابلـه مطلقاً . أهـذا الأـب على قـيد الـحياة الـآن ؟

صاحبها الراهب منفلا ، وهو يهز رأسه

- هو على قيد الحياة ، بل حمل اسمًا يابانيًا ، يقيم في دار بنجازاكى مع زوجته ، ويحظى بسمعة طيبة الآن

فجأة اصْنَاعَتْ أُمَّامَ عِينِي الرَّاهِبْ شَوَارِعَ نِجَازَاكِيْ ، الَّتِي لَمْ يَرَهَا أَبْدَا ، لِسَبَبِ مَا لَمْ يَفْهُمْهُ كَانَتْ مَدِينَةُ خِيَالِهِ هَذِهِ مَلِيئَةً بِمَتَاهَاتِ الْطَّرَقِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ الْذَّهَبِيَّةُ تَائِلِقُ عَلَى نَوَافِذِ الدُّورِ الصَّغِيرَةِ ، وَهُنَاكَ ، مَاضِيَا عَبْرَ الشَّوَارِعِ ، مَرْتَدِيَا مَلَابِسَ كَتْلَكَ الَّتِي تَكْسُوُ الْمُتَرَجِّمَ كَانَ فِيرِيرَا ، لَا ، لَا يَمْكُنْ أَنْ يَحْدُثْ هَذَا ، فَمَثِيلُ هَذَا التَّصْوِيرِ مُثِيرٌ لِلْسَّخْرِيَّةِ

قال إنني لا أصدقك

لكن المترجم مضى خارجا ، بضحكه هازئة

أغلق الباب خلفه ، مرة أخرى ، فاحتجب شعاع الشمس فجأة ،
ارتطمـت اصـوات الحرس مـجدـدا بـجـدرـانـ الكـوخ ، عـلـى نـحـوـ ماـ كـانـتـ
مـنـ قـبـيلـ

كان المترجم يقول :

- وغد أنانى ، لكنه على أى حال سينتهى به الأمر إلى الارتداد
حدث الراهب نفسه بأن تلك اشارة واضحة له . ضاما ركبتيه بذراعيه ،
راح يجتر صامتا الاسماء التى استعرضها المترجم ، كما لو كان قد
استظهرها من قبل ، الأbowan بورو وبيدرو لم يسبق له أن عرفهما ، شعر
يقيينا بأنه قد سمع باسم الأب كاسولا فى ماكاو ، كان هذا المبشر برتغاليا ،
لكنه على عكس الراهب لم يأت من ماكاو ، وأنما من مانيلا ، التى يسيطر
عليها الاسبان ، ودخل اليابان سرا ، بعد وصوله انقطعت أخباره ، وسلمت
جمعية اليسوع بأنه لقى شهادة مجيدة لكن وجهه فيريرا كان وراء هذه
الشخصوص الثلاثة ... فيريرا الذى كان يبحث عنه منذ وصوله إلى اليابان ،
فإذا لم تكن كلمات المترجم تهدیدا محضا ، فإن فيريرا هذا بدوره ، وكما
تقول الشائعات ، قد خان الكنيسة على يد الحاكم إينوى
إذا كان فيريرا نفسه قد ارتد ، أترى القوة ستواتيه ليتحمل أفالين العنا
التي تنتظره ؟ شعور مخيف بالعذاب ملأ صدره ، هز رأسه بعنف ، محاولا
السيطرة على التصورات والكلمات البشعة ، التي اصاعدت في حلقه كالقئ ،
لكنه كلما أوغل في محاولة سحق هذه الصورة ، ارتسمت متوجة أمام عينيه ،
هاربة من سيطرة ارادته «أبانا القادر على كل شيء أنا وانتم أيها القديسون
الحافظون يا من تحمون وتزبونون وتدافعون عن الناس كافة ... «حاول مرددا
الترتيلة مرة أخرى أن يخفف محتملا من تركيزه ، لكن الترتيلة لم تستطع بعث
الهلوء في قلبه المذهب

- إلهى ، لم أنت صامت ؟ لم أنت صامت دائما ... ؟

أقبل المساء ، وانفتح الباب ، وضع أحد رجال الحرس وعاء خشبياً بين يديه ، ومضى دون أن ينبعس بكلمة . رفعه الراهن ، فآذته رائحته ، بدا أنه طهى قبل يومين أو ثلاثة أيام ، لكنه في حاليه الراهنة كان يمكن أن يرحب بالتهمال الجد ، ليملأ معدته الخاوية . قبل أن يفرغ من أمره ، راح الذباب يدور حول يديه . مضى يحدث نفسه ، بينما كان يلعق أصابعه إنني أحاكى الكلب تماماً ، لقد أتى على الدعاة حين من الدهر وجهت إليهم الدعوات لشهاد المأدب في دور السادة الأقطاعيين والساموراي . كان ذلك في العهد الذي أقبلت فيه السفن البرتغالية بانتظام على موانئ هيرانو ، يوكوسيرا ، ورفوكودا ، مثقلة بعروض التجارة . كان ذلك أيضاً . فلما قال فاللينانو ، العهد الذي لم يعرف الدعاة فيه الاحتياج إلى الخبز أو النبيذ . كانوا يجلسون أمام موائد نظيفة ، يرددون صلاة الشكر ، يتناولون طعامهم على مهل . الآن هونا ، ناسيا حتى ترديد الصلاة ، ينقض على هذا الطعام الجدير بالكلاب ، لم تكن صلاته صلاة شكر ، وإنما ضراعة في طلب الغوث ، بل كانت تعلة يعلن من خلالها شکواه وكريه . كان يعلم حق العلم أن حياته كرست لتمجيد الرب لا للإعراب عن الضيق . مع ذلك ، فكم هو عسير ، في يوم البتلاء هذا ، إذ يشعر بشعور أيوب في جزامه ، أن يرفع صوته ممجداً الرب !

أصدر الباب صريره ، من جديد ، ظهر الحارس نفسه . قال :

- أبنت ، إننا ماضون الآن

- ماضون إلى أين ؟

- إلى المرفأ

حينما انبعث واقفا ، لفه دوار من وخزات معدته الخاوية. كان الغسق يضرب أطنابه خارج الكوخ ، والأشجار ترخي أغصانها ، في فتور ، كأنما شفها الإعياء من وقدة النهار اجتاحت أسراب البعوض وجومهم . تناهى نقيق الضفادع من

البعيد

أحاطه ثلاثة من رجال الحرس ، لكن أيها منهم لم يجد عليه قلق من أنه قد يحاول الفرار . راحوا يتبادلون الحديث بأصوات عالية مغربين أحياناً في الضحك . انتبذ أحدهم الشجيرات ، وشرع في قضاء حاجته . حدث الراهب نفسه قائلاً لو أني أردت الهرب لكان بمقدوري الأفلات من الحراسين الآخرين والانطلاق بعيداً . لكن أحد الحراسين التفت إليه فجأة ، بينما كانت هذه الفكرة تخامرها ، وقال :

- أبت . كان ذلك الكوخ مكاناً كثيراً

نعم . كان فتي طيباً هذا الحراس . فجأة ، مست ملامح الفتى الضاحكة المرحة قلب الراهب هونا . لئن هرب فإن أولئك الفلاحين هم الذين سيعانون جراء ذلك اغتصب ابتسامة واهنة ، وأوهما إلى رفيقه موافقاً

انطلقوا على الطريق الذي قدموا منه في الصباح ، افتتنت عيناً الراهب بالأشجار السامقة وسط الحقول لكتأنها تناهز في ارتفاعها نقيق الضفادع . تذكر أنه شاهد هذه الأشجار من قبل . كانت غربان هائلة الحجم تدف بآجنبتها على أغصانها ، وتتعجب بصوت خشن . أى جوقة كثيبة كانت ... نقيق الضفادع ونعيّب الغربان

حينما ولدوا القرية ، طرد الدخان الأبيض المتتصاعد من الدور المتباudeة أسراب البعوض ، انبعثت رجل يلف رداء خاصته ، واقفا ، محتضنا طفلة بين

ذراعيه ، عندما رأى الراهب فغر فمه كالأبله ، وانفجر ضاحكا ، رصدت النسوة
بأعين منكسة حزنا الرجال الأربعه فى مسيرتهم

مضوا مخترقين القرية ، ثم خرجوا كرة أخرى إلى حقول الأرز ، انساب
الطريق منحدرا ، إلى أن هبت أخيرا لفحة جافة من ريح ملحية ، على اللحم
المدبوغ لوجنتى الراهب ، امتد مرفاً خفيضا ... إن كان بالوسع أن يدعى مرفاً
حقا ، إذ لم يكن يتتجاوز مرسى ، مؤلفاً من الحصى الأسود المتراكם عاليا ، وقد
ارتدى زورقان بائسان على الشاطئ . بينما كان الحرس يدفعون الأوتاد تحت
الزورقين ، التقط الراهب القوافع خوخية اللون الملقاة على الرمل ، وراح يبعث بها
في يديه ، كانت الاشياء الوحيدة الجميلة التي رأها في هذا اليوم الطويل ،
الطويل . وضع احداها قريبة من أذنه ، أصفعى إلى الهدير الواهن المكتوم ، الذي
انبعث من أعماق أغوارها ، ثم فجأة هرت رعدة سوداء كيانه كله ، وانسحقت في
كهه تلك القوقة بهديرها المكتوم

تناهى إليه الأمر

- اصعد الى الزورق !

علا غبار أشهب سطح الماء الراكد ، في قاع الزورق ، استشعرته قدماه
المتورمتان باردا ، غرقتا فيه . تشبثت يداه كلتاهما بجانبي الزورق ، أعمض
عينيه، وندت عنه تنهيدة . عندما انساب الزورق وئيدا ، مبتعدا عن الشاطئ ،
ارتاحت عيناه الغائرتان في محريهما على الجبال ، التي كان يضرب في شعابها
حتى هذا الصباح . بدا الجبل قاتم الزرقة في غمامه المساء ناهضا من البحر ،
مثلاً نهد امرأة ، تطلع مجددا إلى الشاطئ ، فلمع رجل ، بدا شحاذًا ، يعلو
بجنون على امتداده . في عدوه . كان يهتف بشئ ما في صوت صاك ، ثم تفوه
قدماه في الرمال ، فيتهاوى . نعم ، كان الرجل الذي أسلمه ، كان كيشيجيرو

يصبح متعثراً ، مناهضاً ، ثم متعثراً من جديد ، في صوت عالٍ ، بشئ ما . الآن
رن صوته كالفحيج ، بعد قليل تردد كالبكا ، لكن الراهب لم يستطع تبين ما كان
يهتف به . مع ذلك لم يعتره ميل لكراهية ذلك الرفيق ، أو شعور بالرفض حياله .
ففي النهاية كان من المحتم ، إن أجلاً أو عاجلاً ، أن يقبض عليه . أخيراً أدرك
كيسيجيرو ، فيما بدا ، أنه لن يلحق بالزورق أبداً ، فوق متصباً كالوتد ،
عند حافة الماء . وفيما راح الزورق ينأى ، تضاعل شبحه الساكن أكثر فأكثر
في غيش المساء

أرخى الليل سدوله ، فولج الزورق خليجاً صغيراً . فتح الراهب عينيه
الناعتين ، نصف المغمضتين ، فرأى الحراس يستبدل بهم غيرهم . كان حديثهم
مرقاً شافياً بلهجة غنية بالتوافقات النفهمية ، لكنه في غمار إعيائه البالغ لم يشعر
بالرغبة فيبذل جهد لفهم ما يقولونه . كان الشئ الوحيد الذي لاحظه هو أن
كلماتي نجازاً كي وأومورا قد استخدمنا كثيراً . أحس ، على نحو غامض ، بأنهم
يمضون به في ذلك الاتجاه . عندما كان في الكوخ ، أتيحت له القوة كي يصلى
من أجل الأعور والمرأة ، التي منحته الخيار ، أما الآن فهو لا يملك القوة ، حتى
للصلوة من أجل نفسه ، دع جانباً من أجل الآخرين . لم يعد مهما الوضع الذي
يمضون به إليه ، أو ما سيتنتهي إليه أمره . أغمض عينيه ، فغرق في النعاس
مجدداً . في بعض الأحيان ، كان يفتح عينيه ، وكان يمقوره يوماً أن يسمع وقع
المجاديف الكثيبة ، وهي تضرب صفة الماء

راح أحد الرجال يعمل المجدافين ، أما الآخران فقد قبعاً في القارب ،
بوجهين مكفرهرين ، مقلوبى السحنة . غمم ، كائناً في غمار نومه : «إلهي ،
لتكن مشيئتك» . ولكن على الرغم من أن كلماته المتعثرة بدت شبيهة بكلمات
الكثيرين من القديسين ، الذين أسلموا قيادهم للعناية الإلهية ، فقد أحس بأنها

مختلفة . سائل نفسه ما الذى يحدث لك ؟ أو قد شرعت فى فقدان إيمانك ؟
 قالها صوت انبعث من أغوار كيانه . غير أن هذا الصوت أفعمه بالاشمئاز

- إلى أين تذهبون ؟

هتف بالحراس الثلاثة الجدد ، فى صوت أحش ، عندما فتح عينيه
 مجددا ، لكن الحراس الثلاثة لأنوا بالصمت المتصلب ، كأنما ليهدووه ،
 فيلتزم السكون

- إلى أين تذهبون ؟

صاح بهم ثانية ، بصوت عال .

- يوكوسى - نو - أورا

- رد أحد الرجال ، فى صوت خفيض ، بدا على نحو ما مليئا بالخجل .

قد سمع باسم يوكوسى - نو - أورا من فاللينانو . كان ميناء استحدثه فروا
 والميدا ، بتصريح من حاكم المقاطعة ، وشرعت السفن البرتغالية ، التى أنت ،
 حتى ذلك الحين ، تتردد على هيرانو فى استخدام هذا الميناء وحده . كانت كنيسة
 جزويت ضخمة قد شيدت فوق التل ، المطل على الميناء ، ونصب الآباء فوقها
 صليبا هائلا ... كان من الضخامة حقا ، بحيث إن الدعابة كان بمقابرهم رؤيته
 بوضوح ، عندما يصلون اليابان أخيرا ، بعد ترحال طويل ، يدوم عدة أيام وليلات
 وكان السكان اليابانيون يسيرون كذلك فى أحد الفصح ، فى موكب يبلغ الكنيسة ،
 مرددين التراتيل ، وحملين الشموع الموددة فى أيديهم ، بل كان السادة
 الاقطاعيون يرقون إلى الكنيسة ، وتلقى بعضهم العمارد . حدق الراهب مطلما من
 الزورق ، عليه يبصر أى أثر للقرية أو مرفأها يمكن أن تكون يوكوسى - نو -
 أورا لكن البحر والأرض كانوا على السواء يكتسيان السواد الغليظ نفسه ، وما

من ضوء تراه العين . مع ذلك ، فقد سيطرت عليه باستمرار الفكرة القائلة بأنه في مكان ما بهذا الموضع ، على نحو ما كان الحال في توموجى وجوتوا ، قد يكون هناك مسيحيون ، لا يزالون يعتصمون بالقيقة . ولئن كان الأمر كذلك ، أترامهم يدرؤن بأنه ما هنا في زورق صغير كان راهب جاثما ملتفا من الخوف ، وقد أخذته الرعدة ، مثل كلب مسعور

سؤال أحد رجال الحرس :

- أين يوكوسى - نو - أورا ؟

تناهى إليه الرد:

- لم يبق منها أثر

أطلقت النار ترتعى في البلدة ، حتى أتت عليها ، وتفرق أهلوها أيدي سبا
التزم البر والبحر صمت الموت ، وحده صوت الأمواج الكثيف ، في تلاطمها
مع الزورق ، هو الذي خدش سطح صمت الليل ، لم تخليت عنا تماما على
هذا النحو ؟ راح يصلى بصوت واهن . هذه البلدة شيدت تمجیدا لك ، أو قد
تخليت عنها في رمادها ؟ حتى حينما شرد الناس من نورهم ألم تهبهم
الشجاعة ؟ أو قد مكثت صامتا بلا حراك مثلما الظلمة التي تضرب اطنابها
حولى ؟ ألا حدثني على الأقل بالسر في هذا . لسنا رجالا أشداء ، مثل أيوب
الذي حل الجذام بساحته ابتلاء له . ثمة حد لقدرتنا على الاحتمال ، فلا تثقل

كاملنا بال المزيد

على هذا النحو ، انفسم في صلاته ، لكن البحر ظل باردا ، واعتصم الظلام
بصمته العنيف ، كل ما كان بوسعيه سماعه صوت المجاديف الكثيف المكرور يتعدد
مرة فآخرى

سؤال نفسه : ترى أيكلل مسعاى بالاخفاق ؟ شعر بأنه لن يطيق احتمالا ، إن
لم تبه العناية الالهية الشجاعة والقوة

توقف صوت المجاديف ، واجه أحد الرجال البحر ، وصاح بصوت صاک
- أثمة أحد هناك ؟

كفت المجاديف عن الحراك ، لكن صوت مجاديف أخرى تناهى إلى الأسماع ،
من مكان ما وراءهم

- قد يكون أحدهم خرج للصيد ليلا ، دعوه وشأنه !

هذه المرة كان العجوز هو الذى تحدث همسا ، الرجل الذى ظل صامتا
حتى الآن

توقف صوت المجاديف المتناهى من الخلف ، تناهى صوت واهن يحاول الرد ،
شعر الراهب بأنه قد سمع هذا الصوت فى مكان ما من قبل ، لكنه لم
يستطيع تذكر أين سمعه

انبلج الصبح ، بلغوا أومورا . حينما أزاحت الريح الغمامه الخليبيه تدريجيا ،
أوقيعت عيناه المكبوتان على الجدار الأشهب لقلعة ، تحيطها أجمة ، على جانب
الخليج . كانت لا تزال في غمار عملية البناء ، تحيطها من الجوانب كافة سقالات
من الأخشاب ، حلق سرب من الغربان عبر الأجمة ، خلف القلعة تكاكبات دور من
القش والحطب ، تلك كانت أول نظرة يلقيها على مدينة يابانية ، فيما واصل النور
تقدمه ، لاحظ للمرة الأولى أن رجال الحرس الثلاثة الذين رافقوه في الزورق كانت
تحت اقدامهم هروات ثقيلة ، لربما تلقوا أوامر بالقائه دونما شفقة في البحر ، إذا
ما أبدى أى اشارة تدل على اعتزامه الهرب

عند المرفأ ، احتشد جمع متدافع بالمناكب ، على رأسه بعض الساموراي ،

يتقدلون سيفوا هائلة ، قرب اكمام أردitiهم ، كان الساموراي يصيرون بالنظارة ، الذين كانوا يراوحون بين الوقوف والقعود على التل فوق الشاطئ ، منتظرین بصبر وصول النزق ، حينما نزل الراهب من النزق علی صيحة عظيمة من صفوف الجمع ، فيما صحبه الساموراي عبر الحشد ، التقت عيناه بأعين عدد من الرجال والنساء ، كانت تحدجه بنظرات الألم والكره التزم الصمت ، واعتصموا بحبله أيضا ، لكنه حينما مر من أمامهم رفع يد بخفة منحهم بركته . في التو ارتسم الشعور بالخطر والفزع على وجوههم ، نكسوا اعينهم ، بل أشاح بعضهم بوجوههم . لو أن الأمور كانت عادية ، لكان بمقدوره أن يضع خبز جسم المسيح في تلك الأفواه التي أغلقت الآن في إحكام ، لكنه لم يكن معه كأس للقربان ، ولا نبيذ ، ولا مذبح ليقيم القداس

عندما أركبواه جواها بلا سرج ، وقد أحكموا وثاقه ، ارتفعت صيحة سخرية من الجمع . رغم أن أومورا قد فخمت بلقب مدينة ، إلا أنها لم تبد ، بدورها التي علّها القش ، مختلفة كثيرا عن القرى التي رأها حتى الآن . وقفَت النسوة الحافيات نوات الشعر المتهدل والاردية السابقة يرتبن القواعق وأخشاب الحريق والخضر على قارعة الطريق . من بين المارة ، كان المغنون المتسكعون بأرديتهم المميزة ، وكهنة بوذا بملابسهم السوداء ، يتطلعون إليه ، ويضحكون ساخرين في بعض الأحيان ، كانت الأحجار تتدفع من أيدي الصبية ، فتمر قريبة من وجهه ، وهم يقوونه عبر الطريق الطويل الضيق . لئن كان فالينانو على حق ، فإن أومورا هذه كانت من الجهات التي بذل فيها الدعاة أعظم الجهد . كانت بها كنائس عديدة ومعهد ديني ، وعلى نحو ما كتب فروا ، في إحدى رسائله ، كان الفلاحون بل والساموراي «يصفون إلى أحاديثنا بحماس عظيم» حتى السادة الاقطاعيون غدوا مسيحيين ورعاين ، وقد سمع بأنهم اعتنقوا المسيحية عن بكرة

أبيهم . ولكن الآن ، وفيما كان الصبية يرجمونه بالأحجار ، والكهنة يغطونه ببصاق بشع ، وهم يصرخون هازئين ، لم يكن ثمة ساموراي واحد بين المسؤولين يحاول كبح جماحهم .

خاصر الطريق البحر ، ثم استقام رأسا نحو نجازاكى . عندما اجتازوا قرية تدعى سوزودا ، لاحظ دارا ريفية ، تحفل بزهور لم يكن يعرفها . أوقف الساموراي جيادهم مرة ، وأمروا أحد الرجال باحضار بعض الماء، قدموه بعدها للراهب . لكنه انسكب من فمه على صدره غائرا العظام

- أنظروا ! أليس ضخما ؟

راحـت النـسـوة يـشـرن إـلـيـه هـازـئـات ، وهـنـ يـجـذـبـن أـطـفـالـهـنـ مـنـ أـكـمـامـ أـرـدـيـتـهـمـ

عندما استأنف الموكب الوئيد مسيره ، تطلع الراهب إلى الوراء . خطرت بياله فكرة حزينة ، تقول بأنه قد لا يرى أبدا أزهارا بيضاء مزهرة كتلك التي تطلع إليها لتوه ، وفيما هم يغذون المسير كان الساموراي ينتزعون قبعاتهم التي يزينها الريش ، ويجففون عرق جبينهم ، ثم يرجلون شعرهم بأصابعهم ، وينطلقون متخفجين على صهوات جيادهم

الآن غدا الطريق أشهب تكتسحه الرياح ، لاحظ الراهب شبح رجل ، يبدو كشحاذ منحن على عصاه ، يتبعهم . كان كيشيجورو . على نحو ما سبق له الوقوف عند الشاطئ فاغرا فمه ، يرقب الزورق ضاربا في بعيد ، كذلك الآن وقف متهدل البدن ، مفتوح الكيمونو . حين رأى أن الراهب لاحظه ، اجتاحته حمى الانفعال ، حاول أن يلوذ بحمى أحدي الاشجار أخذت الحيرة مأخذها من الراهب . لم يقتفي هذا الرجل الذي أسلمه خطاه على هذا النحو ؟ الآن خطر

له أن ذلك الرجل الذى كان فى الزورق الآخر ، فى ذلك الصباح ، ربما كان كيشيجiro .

مرطم البدن ، علوا وسفلا ، بخاصرة حصانه ، انطلق الراهب ، كانت عيناه الغائرتان فى محجريهما تقعان ، بين الحين والآخر ، على البحر ، الذى لفه الغموض ، كان اليوم يقطر سوادا ، وينضج وعيدا . بعد أن خطفوا سوزودا ورائهم ، بدأ عدد الناس فى الطريق يتزايد شيئا فشيئا ، صادفهم تجار يقودون ماشيتهم مثلقة الظهور ، ومسافرون يعتمرون قبعات ضخمة من القش ، تحاکى المظلات ، ويرتدون معاطف من القش أيضا . حينما كان هؤلاء يلمحون الموكب كانوا ينتحون ، إلى جانب الطريق ، حيث يقفون فاغرى الافواه نهولا ، ازاء المشهد الغريب الذى صادفهم . فى بعض الأحيان ، كان الفلاحون يلقون فئوسهم ، ويقبلون مسرعين ، ليحدقوا فى المشهد . كان الراهب ، فيما سبق شديد الاهتمام ، باليابانيين ، معنيا بمظهرهم ، وملبسهم ، وما إلى ذلك ، أما الآن فلم يعد بمقدوره أن يستحدث هذا الاهتمام فى أعماقه ، فقد كان اعياوه بالغا أغمض عينيه ، وراح يفكر فى وقوفات الصليب ، واحدة اثر الأخرى ، التى ترتل الآن فى بعض الأديرة ، واصل تحريك لسانه الجاف ، فيما هو يحاول الغمغمة بكلمات الصلوات . تلك كانت صلاة شهيرة ، تعرفها كافة المعاهد الدينية والأديرة ، تأمل يستعيد ذكرى تفاصيل آلام المسيح ، بينما خرج هذا الرجل من بوابة المعبد يرقى الدرب الصاعد نحو الجلجة ، حاملا صليبه ، مجاهدا لأجل كل خطوة يخطوها ، متعرضا فى مشيته ، والدهماء المحتشدون المتلهفون ، وملء قلوبهم الفضول ، يتبعونه « لا تبكين على يا بنات اورشليم ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن ، ستجيء أيام . واتته هذه الكلمات ، راح يحدث نفسه بأنه قبل قرون عديدة ذاق ذلك الرجل بلسانه الجاف

المتorum كل العناء الذى يحتمله الآن ، خفف عنه هذا الشعور بالعناء ، الذى شورك فيه ، عذاب ذهنه وقلبه ، بنعومة تفوق تأثير الماء الزلال .

أحس بالدموع تنهر على خديه : «انطلق ، أه ، أيها اللسان» حدث نفسه ، قائلاً بأنه كائناً ما كان الأمر ، فلن يرتد أبداً

عند الأصيل بلغوا بلدة تدعى ايساماهايا ، ها هنا انتصب قصر ، يحيطه خندق وسور من اللبن ، فيما تناثرت حوله نور من القش والغضار . بينما بلغوا مدخل إحدى الدور ، انحنى بعض الرجال ، الذين تقلدوا السيف في توقير لوكب الساموراي ، وجلبوا وعاءين ضخمين من الأرض . فيما كان الساموراي يتناولون طعامهم ، أنزل الراهب عن جواده ، للمرة الأولى ، وشد وثاقه إلى شجرة، كأنه كلب . غير بعيد ، اقتعد الأرض جمع من الشحاذين مشعثى الشعر ، راحوا يحدقون فيه كالدواب ، بأعين لا تكاد تبين ، لم يعد يملك من الطاقة ما يمنحهم به ابتسامة . وضع أحدهم حبات قلائل من الأرض في صحفة مكسورة أمامه ، رفع الراهب عينيه عريضاً إلى صاحب الهبة، كان كيشيجورو .

الآن أقى هناك وسط جمع الشحاذين ، في بعض الأحيان كان يلتفت، كما لو كان يرغب في النظر إلى الراهب ، لكنه سرعان ما يشيع بوجهه ، بينما تلتقي أعينهما ، راح الراهب يحدق في ذلك الوجه بهدوء . بينما التقى بهذا الرجل ، عند الشاطئ ، كان أكثر أعياء حتى من أن يشعر نحوه بالكراهية ، لكنه الآن كان عاجزاً عن ابداء الصفح ، اشتعل غضباً ، وهو يتأمل المشهد الذي جرى في السهل، بينما أصابت الأسماك المقددة ، التي اضطر إلى تناولها ، حلقة بذلك الظمة الرهيب «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» حتى المسيح صب هذه الكلمات على يهودا الذي أسلمه ، ظن الراهب طويلاً أن هذه الكلمات كانت تتراقصاً في حب

المسيح ، لكنه الآن ، حينما رأى الوجه المرتعد لهذا الرجل ، فيما هو مقع على الأرض ، رافعا عينيه في بعض الأحيان ، مثل كلب طالته السياط ، اصوات انفعال أسود قاس من أغوار اعماق كيانه ذاتها ، همس في قلبه : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» .

أتم الساموراي التهام أرذهم ، امتطوا صهوات جيادهم ، استائف الركب مسيرة الوئيدة ، رفع الكهنة أصواتهم هازئين ، وألقى الصبية بحجاراتهم ، وقطلوا الرجال مع دواب حملهم ، والمسافرون في ثيابهم اليابانية إلى الساموراي ، وحدقوا في الراهب ، كان كل شيء على عهده تماما . التفت خلفه ... كان هناك ، كيشيجورو ، نائيا هونا عن الآخرين ، منحنيا على عصاته ، مقتفيا خطى الركب ، غغم الراهب في سريرته : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» ، «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» .

الفصل السادس

أعمت السماء ، انسابت سحب وئيدة فوق الجبل ، منحدرة على الحقول . كان ذلك هو سهل شيزوكانو ، بدت الشجيرات المتناثرة هنا وهناك كأنها تزحف فوق الأرض ، لكن الأرض التي ضرب لونها البنى إلى القتام كانت باستثناء هذا تمتد بلا انتهاء . انهمك الساموراي في مناقشة حادة ، حينما انتهت ، أصدروا أوامرهم بإinzال الراهن من فوق جواهه . كانت الفترة الطويلة التي قضوها ممتطياً الجواد ، وقد شدّ وثاقه ، قد نالت منه ، حينما وقف على الأرض اندلع ألم ضار عبر فخذيه ، فتهاك إلى الأرض

كان أحد الساموراي يدخن الطباق ، من قصبة طويلة . كانت هذه هي المرة الأولى التي رأى فيها الراهن الطباق ، منذ قدمه إلى اليابان ، عبَّ الساموراي الدخان مرتين أو ثلاثة ، نفثه ، مرر القصبة إلى رفيقه ، في الوقت نفسه كان الأتباع يتطلعون في حسد

ظلوا لوقت طويل ينظرون جميعاً باتجاه الجنوب ، وهم يراوحون بين الوقوف واقتعاد الصخور ، تمدد بعضهم في ظل الصخرة لاحت السماء إلى الشمال مرقشة بالسحب ، يغلب عليها الصفاء ، لكنها في الجنوب كانت مثقلة بسحب المساء ، التي راحت تتجمع بالفعل . بين الفينة والأخرى ، كان الراهن يلقى بنظرة على الطريق ، الذي قدموا منه ، لكن ، كيشيجيرو لم يظهر له أثر لابد أنه لقى ما عاقه على الطريق ، لربما سئم السعي خلفهم ، فانصرف لشأنه

- جاعوا ! جاعوا

صرخ أحد الحراس ، مشيراً باتجاه الجنوب ، من هناك دنا جمع من الساموراي وأتباعهم . يحاكون الجمع المنتظر هنا ، امتطى الساموراي الذي عكف على التدخين جواده ، أسرع بأقصى سرعة نحو الجمع الم قبل ، حيا القادمين الجدد ، وما زال على صهوة جواده بانحناءة ، ردها هؤلاء في وقار . الآن أدرك الراهب أنه سيسلم إلى أيدي رفاقه جدد على الطريق

حينما انتهى تبادل التحيات ، وحول الجمع الذي صحبه من أمراء أعنفة جيادهم ، واختفوا على الطريق المؤدي للشمال ، حيث كانت أشعة الشمس لا تزال تناسب في رفق ، أحاط بالراهب الجمع الذي أقبل لاصطحابه من نجازاكى ، من جديد وضعوه على ظهر جواد بلا سرج

انتصب السجن على منحدر تل تحيطه الأشجار ، كان البناء قد انتهى لتوه ، فبدا كما لو كان مستودعاً ضخماً . في الداخل ، كان مرتفعاً قليلاً عن الأرض ، الضوء ينسل عبر نافذة ، تعرضاً القسبان ، وحاجز صغير ، مثبت بباب خشبي ينزلق ، تدفع عبره صحفة طعام بالكاد . كان الطعام يدفع إليه هنا مرة كل يوم . عقب وصوله ، أخرج مرتين للتحقيق معه ، الأمر الذي أتاح له الفرصة ليرى السجن خارج زنزانته ... ثمة حاجز من الخيزران يتوجه مهدداً للداخل ، بينما تمتد وراءه الدور المسقوفة بالغضار ، التي يقطنها رجال الحرس

حينما زج به ما هنا ، لم يكن هناك سجناء آخرون عداه . اعتاد أن يجلس طوال اليوم صامتاً ، متأنلاً في الظلمة ، يصفى لأصوات الحرس . لم يكن الأمر مختلفاً كثيراً عن إقامته السابقة في ذلك الكوخ بالجزيرة . في بعض الأحيان ، كان الحرس يحدثونه ، بالنظر إلى توقعهم لتمضية الوقت ، هكذا علم أنه على مشارف نجازاكى ، لكنه لم يستطع تبين موقع السجن بالنسبة لقلب المدينة . كان

بمقدوره نهاراً فحسب أن يسمع ، في البعيد ، صيحات العمال العالية ، وصوت الأشجار التي تجث ، والمسامير فيما المطارق تنهال عليها ، جعله هذا يخمن أن هذه الناحية حديثة الإنشاء . حين يقبل الليل ، كان بمقدوره أن يسمع هديل القمرية ، وسط الأشجار

رغم كل شيء ، أفعمت حياته في السجن بهدوء وسلام غريبين ، الآن لاح له توتر وعذاب أيام التجوال عبر الجبال كحلم ينتمي إلى الماضي ، لم يكن بمقدوره أن يخمن ما الذي سيجلبه الغد ، لكنه لم يكدر يستشعر خوفاً . حصل من الحرس على ورق ياباني مقوى وخيط ، صنع منها مسبحة ، كان يرتل صلواته كل يوم تقريباً باستدامها ، مشدداً على مخارج الكلمات المقدسة في الليل على فراشه ، مصفيماً إلى هديل القمرية وسط الأشجار ، كان يمر مغمض العينين بمشاهدة حياة المسيح كلها . منذ الطفولة ، كان وجه المسيح يمثل بالنسبة له تحقق أحلامه ومثله جميعها ، وجه المسيح على نحو ما كان ، وهو يعظ الجموع فوق الجبل ، وجه المسيح خلال عبوره بحيرة الجليل عند الفسق ، حتى في لحظات عذابه لم يفقد هذا الوجه حسنه . هاتان العينان الصافيتان ، اللتان تنفذان إلى سويدة قلب الرجل ، كانتا الآن مثبتتين عليه ، الوجه الذي لا يمكن أن يخطيء أو يلفظ كلمة اهانة . عندما ترافق له هذا الوجه تبدد الخوف والرعدة ، مثلاً التجعدات الهيئة التي يكتسحها رمل الشاطئ .

كانت تلك هي المرة الأولى ، منذ مقدمه إلى اليابان ، التي استطاع فيها أن يمضى في هدوء وادع يوماً عقب الآخر . شرع في التساؤل عما إذا لم يكن استمرار هذا السلام ، الذي لا تشوبه شائبة ، بمثابة برهان على أن حتفه ليس بعيداً ، انسابت هذه الأيام في فؤاده برققة بالغة

لكنه ، في اليوم التاسع ، انتزع من سجنه . كان قد اعتاد المكوث في زنزانة لا تلجه أشعة الشمس ؛ من ثم فإن ضوئها الباهر سفع عينيه الغائرتين في محجريهما ، قاطعاً كالسيف . كان صوت الزيزان يصدر متدافعاً من بين الأشجار كالشلال ، فيما لاح خلف كوخ الحرنس مشهد بديع لزهور وهاجة الحمرة . عندها شعر بمزيد من الحدة أى شريد هو ، طال شعره ولحيته ، تهدل اللحم حول عظامه ، نحتت ذراعاه كالأبر . تساعل عما إذا كان مجئه للتحقيق ، لكنه اقتيد مباشرة إلى قاعة الحرنس ، حيث أودع زنزانة . فلم يدر السر في

احضاره هنا

لم يكتشف السبب إلا في اليوم التالي . فجأة ، حطمت أصوات الحرنس الغاضبة النابحة الصمت ، استطاع سماع وقع أقدام العديد من الرجال والنساء ، وهم يدفعون من بداية السجن إلى الفناء ... حتى الأمس كان هؤلاء المسجونون - شأنه - مودعين سجناً فاحم الظلمة

- إذا ظللتم على هذا النحو ، فإن العقاب سيحل بكم .

صاح بهم الحراس ، رافعين أصواتهم الغاضبة . بغضب مماثل قاوم

السجناء

- أوقفوا هذا الهياج ! أوقفوه !

هكذا استمر النزاع بين الحرنس والسجناء بعض الوقت ، ثم ساد الهدوء من جديد . عندما حل المساء ، تناهت من خارج السجن أصوات علت مرددة : «أبانا الذي في السماوات ليتقديس اسمك ، ليأت ملوكتك ، لتكن مشيئتك في الأرض كما في السماء ، اعطنا خبزنا اليومى ، واغفر لنا ذنبينا كما غفرنا نحن للمذنبين علينا . ولا تدخلنا في التجربة ، لكن نجنا من الشرير ، أمين» .

في غيش المساء ، ارتفعت أصواتهم ، مثلاً النافورة ، ثم خفت . «ولا تدخلنا في التجربة» . ألم يكن في تلك الأصوات الضارعة رنين يعطف القلب ، رنين مفموس في الأسى ؟ أغمض عينيه الغائتين ، وحرك شفتيه في توحد مع الصلاة ، وقال :

– مع ذلك ، فإنك لم تقطع الصمت ، ينبغي ألا تظل صامتا !

سأل الراهب الحراس ، في اليوم التالي ، عما إذا كان بمقدوره أن يزور السجناء ، الذين كانوا يسخرون في العمل بالحقول ، تحت حراسة مشددة عندما سمح له بذلك ، مضى إلى حيث كان خمسة أو ستة من الرجال والنساء يحركون في موات فتوسهم ، بينما تطلعوا إليه في دهشة ، تعرفهم ، تذكر أيضاً ملابس الفلاحين المهللة ، لكن وجوههم ... تلك الوجوه التي تطلعت إليه كانت هي دليله إليهم . أترى الحرمان الدائم من النور في الزنزانة هو الذي جعل الرجال يبدون على هذا النحو ، بلحى مسترسلة ، وشعر ضارب الأطناب ، ووجوه النساء شاحبة كوجوه الموتى ؟

صاحت إحدى النساء

– أوه . إنه الأب ، ما كنت لأعرفه أبداً

كانت هي المرأة ، التي منحته في ذلك اليوم الخيار ، التي انتزعتها من صدرها . إلى جانبها كان الأعور ، وقد لاح كالشحاذ ، يفتر عن أسنانه الصفراء ، وقد خالج ضحكته حنين إلى ماض لن يعود

منذ ذلك اليوم ، صرخ الحرس له بأن يمضي كل صباح ومساء ، مرتين كل يوم ، إلى سجن المسيحيين . كانوا يعلمون أن السجناء سيردون لهم كرمهم بعدم إحداث قلقل في هذا الوقت . لم يكن عنده خبز ولا نبيذ ، فما استطاع أن يقيم

قداساً ، لكنه على الأقل كان يستطيع أن يرثل معهم «تبارك أبتاباه» و «آمنت بك» و «السلام والمرعى» ، كما اتيحت له فرصة الإصغاء لاعترافاتهم .

«لا تشقن بالأمراء أبناء البشر الذين لا خلاص يجني من ورائهم ، لسوف تقيفن أرواحهم وتعود إلى الأرض ، مبارك ذلك الذي يتخذ من رب يعقوب مغيثاً ، الذي يعلق أمله على الرب إلهه الذي خلق السماوات والأرض والبحر وكل ما فيها» .

عندما كان الراهب يلفظ كلمات داود تلك ، لم يكن حتى سعال واحد يصدر عن أي من المسيحيين ، إنما كانوا يرهفون السمع في انتباه محموم ، بل كان الحرس يصفون . كان ذلك نص من الكتاب المقدس سبق له أن قرأه مراراً وتكراراً ، لكنه أبداً لم يخرج من شفتيه بمثل هذا الزخم في المعنى ، له وللمسيحيين على السواء . بدت كل كلمة كما لو كانت تغوص في فؤاده ، بمفرزى جديد ، ويثراء ما كان لها قبلها

«ليتبارك الموتى الذين يفنون في الرب من الآن فصاعداً ...»

قال الراهب ، بصوت أفعى عزماً متقداً

- لن يتخلى الله عنكم أبداً ، فهو من يغسل جرائمكم ، ويده هي التي تجفف دمكم ، لن يظل الله صامتاً إلى الأبد

حينما حل المغيب ، منح المسيحيين سر الكفار ، ولما كان كرسى الاعتراف ينقصه ، فقد وضع أذنه على الفتحة التي يدفع منها الطعام ، فيما التائب يهمس بخطاياه في صوت خفيض ، وعلى هذا النحو أصغى للاعتراف ، وبينما يجري هذا ، تكاكاً الآخرون في أحد الأركان ، محاولين ما وسعهم الإمكان ألا يثقلوا على من يعترف . هنا استطاع الراهب ، للمرة الأولى منذ أيام توموجي ، أن يضطلع

بمهامه كقس ، جعله ادراك ذلك يضرع في قراره نفسه أن تستمر مثل هذه
الحياة إلى الأبد

عقب الإصغاء إلى الاعترافات ، التقط الورق الذي حصل عليه من الحرس ،
اصطفع لنفسه ريشة من جناح دجاجة سقطت بالفناء ، شرع في تدوين ذكرياته
كلها ، منذ قدمه إلى اليابان . لم يكن يعرف بالطبع ما إذا كان ما يكتبه سيصل
يوماً إلى البرتغال ، لكن كان هناك احتمال أن مسيحياً قد يسلمه إلى صيني في
نجازاكي ، وبهذا الأمل الخافت راح يدفع ريشته عبر الصفحات

في الليل ، اقتعد الأرض في الظلمة ، مصغياً إلى هديل القمرية وسط
الأشجار ، أحس بوجه المسيح يطل منكباً عليه ، كانت العينان الزرقاء
الصافيتان رقيقتين حانيتين ، الملامح هادئة ، كان وجهها تملؤه الثقة ، غمغم «إلهي
لن تشيح عنا بعد الآن» . ثبتت عيناه على ذلك المحييا ، عند ذلك بدا الرد كما لو
كان يتناهى إلى مسمعه «لن أتخلى عنك» . أحنى رأسه ، أرهف سمعه ، عله
يسمع ذلك الصوت الثانية ، لكن الشيء الوحيد الذي استطاع سماعه كان هديل
القمرية . كان الظلام كثيفاً وحالكاً ، غير أن الراهب أحس أن فؤاده تطهر
لحظة

ذات يوم ، سمع صوت الرتاج ، أطل حارس برأسه ، صاح ملقياً بأردية ثقيلة
على الأرض

- بدل ملابسك ، انظر ! لديك ملابس حمراء ، وملابس داخلية من الجيتوكو
والقطن ، خذها جميعها ، هي لك
مضى الحارس موضحاً أن الجيتوكو هو نسيج الملابس التي يرتديها
الرهبان البوذيون

رد الراهب ، وقد ارتسنت ابتسامة على وجهه المضيم :

- شكرأً جزيلاً ، لكن عليك ، رجاء ، أن تمضي بها ، فلست أريدها

هز الحارس رأسه كالطفل ، تطلع متשוקاً إلى الثياب ، قال :

- لن تأخذها ؟ لن تأخذها ؟ لكنها هدية من المسؤولين بمكتب الحاكم

قارن ملابسه المنسوجة من القنب بهذه الملابس بالغة الجدة ، وسائل نفسه عما دفع المسؤولين إلى إهدائه ملابس كاهن أتراماها بادرة اشفاق على سجين أم هو شرك آخر للإيقاع به ؟ لم يستطع تبيان وجه الحقيقة في الأمر . حدث نفسه بأنه على أية حال وبهذه الملابس بدأت علاقته من الآن فصاعداً بمكتب الحاكم

استحثه الحارس

- عجل ! عجل ! سرعان ما يصل المسؤولون إلى هنا

لم يكن قد خطر بباله أن التحقيق معه سيبدأ بمثل هذه السرعة ، كان في تخيله للأمر كل يوم قد صور المشهد مأساوياً ، مثلاً كان لقاء بيلاطس والمسيح الجمع يهدى ، الحيرة تنهب بيلاطس ، المسيح يقف صامتاً . لكن الصوت الوحيد هنا كان صوت الزيزان يدعوه للرقاد ، وسجن المسيحيين مستغرق في صمته المعتاد بالأصليل

جلب له الحارس ماء ساخناً ، فاغتسل ، وبيطء ارتدى الملابس القطنية ، دافعاً ذراعيه وئيداً عبر الأكمام لم يكن ملمسها طيباً ، وفي الوقت نفسه استشعر ، بارتعاشة هوان ، أنه بارتدائه هذه الملابس يعقد حلفاً مع مكتب الحاكم

في الفناء ، اصطف عدد من المقاعد صفاً واحداً ، فارتمت ظلالها مقعداً وراء الآخر معتمة على الأرض . أرغموه على أن يقعى إلى يمين البوابة ، ويداه على ركبتيه ، راح ينتظر ، وينتظر ، ولما كان هذا الوضع غير مألوف بالنسبة له ، فقد

سال عرقه مدراراً ، جراء الألم الذى اخترم ركبتيه ، لكنه لم يرحب فى أن يطلع المسئولون على عذابه . فكر واجما فى الكيفية التى كان المسيح ينتظر بها حتى ميقات الابلاء ، مجتهداً أن يصرف ذهنه عن الألم اللافع فى ركبتيه

سرعان ما تناهى صوت الركب ووقع حوافر الجياد ، انحنى الحرس جميعاً خافضى الرءوس ، ولج الفناء عدد من الساموراي بخطى مزهوة ، وقد استقرت المراوح فى أيديهم . انهمكوا فى الحديث فيما بينهم ، مرروا عن كثب ، دون أن يلقى أحدهم نظرة على رودريجيز ، ثم اقتعدوا المقاعد فى فتور . جلب لهم الحرس ، ومازالوا على انحنائهم ، أقداحاً من الماء الفاتر ، راحوا يرتشفونها ، على مهل .

استدعي الساموراي الجالس فى أقصى اليمين رجال الحرس ، عقب استراحة قصيرة ، فاقتيد الراهب مجفلأً من ألم ركبتيه ، إلى حيث جلس الرجال الخمسة

من الأشجار فى الخلف ، انبعث صوت الزيزان متواصلاً ، تدفق العرق على فقاره ، كان يعي ، فى حدة ، العيون التى تحدق به من خلفه ، فمن الحق أن المسيحيين كان يصفون من سجنهم ، فى انتباه ، إلى كل سؤال ورد يتداولان بين محاورين وبينه . الآن أدرك لم اختيار إينوى ورجاله عامدين هذا المكان لمساعته لقد أراؤوا أن يظهروه بمظهر الرعديد المهزوم ، أمام الفلاحين . «المجد للآب وللابن وللروح القدس» . أغمض عينيه الغائرتين فى محجريهما ، ارتسمت على محياه ابتسامة مغتصبة ، لكنه أدرك بذاته أن سكينته كانت متصلة مثلاً القناع

قال الساموراي الجالس إلى أقصى اليسار ، فى رزانة باللغة ، بالبرتغالية

- يراود القلق حاكم شيكوجو حول ما ينتابكم من حيرة ، فإذا كنتم تواجهون
مصاعب ، فنرجو أن تقولوا هذا !

أحنى الراهب رأسه ، في صمت . ثم رفع رأسه ، فالتفت عيناه بعيني العجوز
الجالس على المهد الوسط ، بين المقاعد الخمسة ، تلاعبت باسمة رقيقة على
شفتيه، راح يراقب الراهب بفضول طفل أهدى لعبه جديدة ، ثم تلى بيانا
«الموطن البرتغال ، الاسم : رودريجيز ، قيل بأنه قدم من ماكاو إلى اليابان
هل هذا صحيح ؟

قال الساموراي الجالس في أقصى اليمين ، في صوت أفعى توترأ
- أيها الأب ، لقد تأثرنا كثيراً بقوة عزكم ، التي دفعتكم إلى القديوم لهذه
الأرض ، من مسيرة آلاف الأميال الحافلة بالمشاق . يقيناً انكم عانيتם الكثير
وشّت نغمة رقيقة كلماته ، احترمت هذه الرقة عينها فؤاده ، باعثة الألم
- ولأننا نعلم هذا ، على وجه الدقة ، فإن واجبنا الذي يقتضينا التحقيق معك
هو واجب مؤلم بالنسبة لنا

لدى سماع كلمات المسئول الموشاة بالرقة ، بدا انفعاله المحموم وكأنه ينفثيء ،
فجأة أفعمت قلبه مشاعر عبر عنها بالتساؤل في قراره نفسه : «لولا حواجز الوطن
والسياسة أما كانت أيديينا تتضاد فنتبادل الحديث ؟ غير أنه شعر في التو بأنه
من الخطورة الاستسلام لمثل هذه النزعة العاطفة

- أيها الأب ، إننا لا نتجادل بشأن صواب أو خطأ المذهب الذي تعتنقه ، ففي
إسبانيا والبرتغال وما ماثل ذلك من بلاد قد يكون صحيحاً . إن السبب الذي
دفعنا إلى تجريم اعتناق المسيحية في اليابان هو أننا ، بعد تفكير عميق وجاد ،
وجدنا أن تعاليمها لا قيمة لها بالنسبة للإليابان اليوم .

تناول المترجم في التو قلب الموضوع ، واصل العجوز نو الأذنين الضخمتين
التحديق في الراهب ، متعاطفًا

قال الراهب أخيراً ، مبادلاً العجوز ابتساماً بابتسام :

- إن الحقيقة مطلقة وفق مناهجنا في التفكير ، منذ هنـيـة اعـرـيـتـمـ أيـهـاـ
الـمـسـئـولـونـ عـنـ تـعـاطـفـكـمـ معـىـ ، فـىـ غـمـارـ العـنـاءـ الذـىـ اـجـتـزـتـهـ ، فـاـهـ أـحـدـكـمـ
بـكـلـمـاتـ تـقـدـيرـ رـقـيـقـةـ لـرـحـلـتـىـ ، التـىـ اـجـتـزـتـ فـيـهـاـ أـلـافـ الـأـمـيـالـ مـنـ مـيـاهـ
الـبـحـارـ ، عـبـرـ مـدـدـةـ مـدـيـدـةـ ، لـأـصـلـ بـلـادـكـمـ ، لـوـ أـنـنـاـ لـمـ نـكـنـ نـؤـمـنـ بـأـنـ الـحـقـيقـةـ
مـطـلـقـةـ ، فـلـمـ يـتـحـمـلـ كـلـ هـذـاـ العـدـدـ مـنـ الـمـبـشـرـينـ هـذـهـ الـمـشـاقـ ؟ـ إـنـ ذـكـ
يـرـجـعـ ، عـلـىـ وـجـهـ الدـقـةـ ، إـلـىـ أـنـ الـحـقـيقـةـ مـشـاعـ لـكـلـ الـبـلـادـ ، وـالـعـصـورـ كـافـةـ ؛ـ
وـمـنـ هـنـاـ فـإـنـنـاـ نـطـلـقـ عـلـيـهـاـ اـسـمـ الـحـقـيقـةـ ، وـلـوـ أـنـ مـذـهـبـاـ حـقـيقـيـاـ لـمـ يـكـنـ
حـقـيقـيـاـ فـىـ الـيـابـانـ ، كـمـاـ هـوـ فـىـ الـبـرـتـغـالـ ، لـمـ كـانـ بـمـقـدـورـنـاـ أـنـ نـصـفـهـ بـأـنـهـ
«ـحـقـيقـىـ»ـ .ـ

بين الفنية والأخرى ، كانت الكلمات تعوز المترجم ، لكنه بوجه خلا من أى
تعبير كوجه الدمية راح ينقل المعنى إلى الساموراي الأربع الآخرين .

وحده العجوز الجالس أمامه مباشرة واصل الإيماء برأسه ، كأنما في موافقة
كاملة مع ما يقوله الراهب ، فيما كان يومئ شرع ببطء يمرر كفه اليسرى فوق
كفه اليمنى ، كأنما يحك أحدهما بالأخرى

مضى المترجم ، في تؤده ، يترجم كلمات ساموراي آخر

- كل الآباء يعكفون على قول الشيء نفسه ، مع ذلك ... فإن شجرة تزدهر في
ضرب من التربة قد تذوى إذا ما تغيرت التربة . أما عن شجرة المسيحية فإن
أوراقها قد تغدو وارفة الظلل ، وتتناثر زهورها ، في بلد أجنبى ، بينما الأوراق

تنوى في اليابان ، ولا تلوح الزهور للعيون ، ألم تفكراً أنها الأب في الفارق
بين ألوان التربة والاختلاف في الماء ؟

قال الراهب رافعاً صوته

- لا ينبغي للأوراق أن تنوى ، والزهور يجب أن تبدو للعيان ، أتظنني جاهلاً
بالأمر ؟ في أوربا ، ولندن جانباً ماكاو ، التي أقمت فيها بعض الوقت ، يعرف
الناس ما أنسجه المبشرون هنا ، فمن المعروف للجميع أنه حينما سمع كثيرون من
ملاك الأرض بالتبشير ، بلغ عدد المسيحيين ثلاثة الف

دأب العجوز على الإيماء موافقاً ، مدللاً إحدى يديه بالأخرى ، طوال الوقت
وبيّنما كان المسؤولون الآخرون يصغون بوجه متواترة إلى كلمات المترجم ، بدا
العجز وحده في صف الراهب تماماً

- إذا كانت الأوراق لا تنمو ، والزهور لا تبرعم ، فذلك لأنه لا يوجد سماد
ما عادت الأذن تسمع صوت الزيزان ، لكن شمس الأصيل ازدادت ضراوة
لـ الصمت المسؤولين ، كأنما ضاع منهم الكلام . شعر الراهب ، مدركاً أن
المسيحيين في السجن خلفه يرهفون السمع لما يقال ، بأنه يكسب أرضاً في
المحاورة ، اصيّع إحساس سار فاغماً صدره

قال ، منكساً عينيه ، في هدوء :

- لم بدأتم عملية الإنقاذ هذه ؟ أيا كان ما أقوله فلن تغيروا قناعاتكم ، وليس
في نيتى كذلك أن أبدل نهج تفكيرى
شعر ، حتى خلال حديثه ، بدقق فجائي من المشاعر ، كلما عظم شعوره بأن
المسيحيين يرقبونه من خلف ، أوغل في تحويل نفسه إلى بطل ، قال بصوت عالٍ
- أياً كان ما أقوله ، فسيحل العقاب بساحتى

ترجم المترجم ، على نحو ألى ، هذه الكلمات للآخرين . جعلت أشعة الشمس ذلك الوجه المسطح يزداد تسطحاً . الآن للمرة الأولى جمدت كف العجوز ، هز رأسه ، تطلع إلى الراهب ، كأنه يهدى طفلًا عابثاً ، وقال :

– لن نعاقب الآباء بونما سبب

– ليست تلك فكرة إينوى ، لو أنك كنت إينوى لأنزلت بي العقاب توأ ما إن ترددت هذه الكلمات ، حتى انفجر المسؤولون ، كأنما سمعوا طرفة بديعة

– مم تضحكون ؟

– أيها الأب ، هذا هو إينوى ، حاكم شيكوجو ، إنه هنا أمامك .
حدق ذاهلاً في العجوز ، الذي رد بسذاجة طفل نظرته ، وقد عاود فرك يديه كيف كان بوسعي أن يتعرف أمراً خيب تماماً ، على هذا النحو ، توقعاته كلها ؟
الرجل الذي وصفه فاللينانو بأنه شيطان ، الذي جعل المبشرين يرتدون عن دينهم الواحد إثر الآخر ... كان حتى الآن يتصور وجه هذا الرجل بالغ الشحوب والخبث ، لكنه هنا أمام عينيه جلس هذا الرجل المتفهم ، الذي بدا طيباً حليماً
انتصب إينوى حاكم شيكوجو واقفاً ، ببعض العناء ، هامساً بكلمة أو اثنتين للساموراي الجالس إلى جواره ، تبعه المسؤولون الآخرون ، دلفوا من الباب الذي قدموا منه ، اختفوا عن الأنظار ، تردد صوت الزيزان ، ويرق نور الأصيل ، وألقت المقاعد المهجورة ظلاً أشد عتمة على الأرض .

بونما سبب ، اضطرم انفعال عارم في صدر الراهب ، انبعثت الدموع في عينيه . كان انفعالاً يحاكي ذلك الذي يستشعره المرء عقب تحقيق إنجاز عظيم لف الصمت السجن ، فجأة شرع أحدهم يرتل

إِنَّا عَلَى دربِنَا ، إِنَّا عَلَى دربِنَا ،
إِنَّا عَلَى دربِنَا إِلَى معبدِ الفريوس ،
إِلَى معبدِ الفريوس
إِلَى المعبدِ العظيم ...

استمرت الترتيلة وقتاً طويلاً ، بعد أن زج به الحراس كرة أخرى ، في الزنزانة ، عارية الأرض إنه على الأقل لم يجعل الأمر يختلط على المسيحيين ، لم يأت ما من شأنه أن يزعزع يقينهم ، لم يكن سلوكه متسمًا بالخور أو الجبن ، على هذا النحو انسابت خواطره

انسكت أشعة القمر ، عبر قضبان السجن ، مرقة الحائط بظلال ، ذكرت الراهب برجل الجليل . كانت العينان منكستين ، الا انهما تتطلعان اليه ، أضفى الراهب على هذا الوجه ، الذي صاغته الظلال ، ملامح ، رسم العينين والفم . راح يفكر بأنه أحسن اليوم صنعاً ، فاشتعل غبطة ، مثلاً طفل صغير من الفناء ، تصاعدت أصوات صفق الأبواب ، كان الحراس يقومون بجولتهم في السجن ، في كل ليلة كان هذا شأنهم

اليوم الثالث ، اختار الحرس ثلاثة رجال من بين المسيحيين ، وجعلوهم يحتفرون ثلاثة حفر وسط الفناء . كان بوسع الراهب ، من نافذة زنزانته، أن يرى تحت أشعة الشمس الوهاجة شبح الأعور (أما كان اسمه يوحنا؟) ممسكاً بفأسه، مع الآخرين ، ينقل الطين إلى سلة يحملها بعيداً . تجرد ، جراء الحر ، إلا من قماش يستر ما دون خاصرته ، فالatum العرق . كالفولاذ ، على ظهره .

سأل أحد رجال الحرس لم يحتفرون بهذه الحفرة ، فقيل له إنهم يقيمون

مرحاضاً

كان المسيحيون ، عندئذ ، في قرارة الحفرة ، التي تعمقوا في حفرها ، دون أن تخالجم الشكوك ، يلقون بالطين بعيداً

في غمار عملية الحفر، داهم شعور بالمرض أحد الرجال، جراء ضربة شمس، صاح به الحراس متهررين، ضربوه ، لكنه جثم على الأرض، وقد أعجزه النهوض ، حمله يوحنا والمسيحيون الآخرون ، محتضنين اياه ، مضوا به إلى السجن

انقضت برهة ، وأقبل أحد الحراس يستدعي الراهب ، فقد انقلب حاله المريض فجأة ، وألح المسيحيون في طلب الراهب انطلق إلى الزنزانة مسرعاً ، فوجد يوحنا ومونيكا والآخرين يتحلقون المريض ، الذي رقد في العتمة ، وقد اكثروا وجهه ، فغدا في لون الحجر

- ألا تشرب ؟

سألته مونيكا ، رافعة إلى شفتيه بعض الماء في قدر مكسور ، لكن الماء تقاطر من فمه على حلقه

عادت فسألته

- أملك عظيم ، هل بمقنورك التماسك ؟

حينما أرخى الليل سدوله ، شرع الرجل يكافح لالتقطان انفاسه ، كان من المستحيل القيام بمثل هذا العمل بجسد نال منه الضعف ، لا تمسك عليه الحياة إلا كسر من خbiz الذرة . رکع الراهب إلى جواره ، وتأهب لمناولته سر المرضى المقدس ، لكنه حين رشم الصليب ، لفظ المريض نفسه الأخير ، كانت تلك هي النهاية . أصدر الحراس الأمر للمسيحيين بإحرق الجثمان ، لكنهم جميعاً احتجوا، قائلين بأن في هذا العمل ما يخالف التعاليم المسيحية ... حيث تقضى التقاليد المسيحية بدفع الجثمان . هكذا ، دفن الرجل ، في اليوم التالي ، في

الأجنة ، المتدة خلف السجن

غمف أحد المسيحيين ، فى حسد

- هيساجورو يرقد الآن سعيداً ، انتهى عناوه ، ولج رحاب الراحة الأبدية

فى شroud ، أصغرى الآخرون لهذه الكلمات

ضرب الأصيل أطنايه ، اختلط الهواء الحاد الراكد ، ثم بدأ المطر فى الانهيار، أحدث صوتاً كثيناً مكروراً ، فيما قطراته تلطم سقف السجن الخشبى والأجنة التى دفن بها الميت ، جلس الراهب ضاماً ركبتيه إلى صدره ، وواصل التساؤل عن الأمد الذى تعتمز السلطات أن تتركه خلاله يحيا حياة كهذه . لم يكن كل شيء يمضى بصورة متكاملة فى حياة السجن هذه فحسب ، وإنما وافق الحرس ، بصورة ضمنية ، على أن يقيم المسيحيون الصلوات ، مادام السجن لا يشهد اضطرابات ، سمحوا للراهب بزيارتهم ، وبكتابة رسائله ، تساعل لم يسمحون بهذا كله ، بدا ذلك امراً بالغ الغرابة

من خلال قضبان نافذته ، لمح رجلاً يعتمر قلنسوة ، والحرس يقرعونه غاضبين ، حالت القلنسوة دون تبيان هويته ، لكنه كان من الجلى أنه لا ينتمي للجمع الذى يضم السجن . بدا وكأنه يتسلل من أجل شيء ما ، لكن الحرس هزوا روعهم راضين ، وطربوه بعيداً ، دون أن يصفعوا إلى ما كان يقوله

- إذا دأبت على هذا فستتال عقابك

صاح أحد الحرس ، ملوحاً بهراوة ضخمة ، فتخاذل ذلك الشخص ، متراجعاً نحو البوابة ، مثل كلب مسعور

لكنه بعد هنيهة ، عاد إلى الفناء ، ووقف تحت المطر ، وراح يحدق بانتباه فيما أمامه

عندما أقبل الليل ، تطلع الراهب عبر قضبان زنزانته ، فالفى الرجل ذا
القلنسوة لا يزال فى موضعه ، منتسباً فى عناد ، دونما حركة ، وقد أغرقه
المطر. لم يخرج أى من الحرس من الكوخ ، فقد كفوا ، فيما ي يبدو ، عن محاولة
طرده بعيداً

حينما تطلع الرجل ناحية الراهب ، التقت أعينهما . كان كيشيجiro تشنج
وجهه خوفاً للحظة ، وتراجع إلى الوراء عدة خطوات
- أبت !

تردد صوته ، مثل نباح كلب
- أبت ! أصحع إلى !
أعرض الراهب عن النافذة ، حاول أن يسد مسامعه ، فلا يلجهها هذا
الصوت ، كيف يسعه أن ينسى تلك الأسماك المقددة والظماء الحارق يكوى
حلقه . لئن حاول أن ينسى هذا الرجل ، لما استطاع أن يطرد من ذاكرته المقت
والغضب ، اللذين كمنا فى أعماقها
- أبت ! أبت !

استمر الصوت الضارع متواصلاً ، كصوت طفل يناشد أمه
- ألا تصفي إلى يا أبت ! لقد واصلت خداعك ، منذ أنبتني شرعت فى
كراهيتك وكل المسيحيين ، نعم ، صحيح أنى وطئت الأيقونة المقدسة ، كان
موكيشى و ايشيزو قويين ، ليس بمحضورى أن أكون قوياً مثلهما
أقبل الحرس بالعصى ، وقد أعجزهم الاستمرار فى احتماله لاز كيشيجiro
بالهرب ، صارخاً فى هربه

- لكنى لدى ما يدفعنى للتوصل ، من يطئ الأيقونة المقدسة يظل لديه ما
يقوله ايضاً

أتظن أنى وطئتها مختاراً ؟ لقد التوت اقدامى ألمًا . يطالبني الرب بأن
أقلد الأقواء ، رغم أنه خلقنى ضعيفاً . أليس هذا مجافياً للمنطق ؟
يسود السكون هنيهة ، تتعالى أصوات غاضبة ، تدوى صرخة ضارعة ،
تهمى دموع

- أبتاباه ، ماذا عسانى أفعل وأنا الضعيف ؟ لم أسلنك من أجل المال ، وإنما
هددى رجال الحكومة

صاحب الحرس ، مطلين براء وسهم من مسكنهم

- سارع بالابتعاد عن هنا ، لا تستند صبرنا !

- أصغ إلى يا أببت ، لقد أتيت ما لا استطيع التكبير عنه أبداً ، وأنتم يا رجال
الحكومة إبني مسيحي ، فأؤودعوني السجن !

أغمض الراهب عينيه ، شرع يرتل «أمنت بك» راوده شعور بالبهجة ،
لقدرته على أن يتخلى عن هذا الرجل الضارع تحت المطر ، فعلى الرغم من
أن المسيح صلى من أجل يهودا ، إلا أن هذا شنق نفسه في حقل الدم
أتري المسيح صلى لأجل يهودا ؟ لم يرد شيء عن هذا في الكتاب المقدس ،
وحتى إذا كان قد ورد عنه شيء ، فما كان بوسعي أن يضع نفسه في إطار
ذهني يسمح له بإثبات أمر كهذا . على أى حال ، ما مدى امكانية الثقة
بهذا الرجل ؟ كان ينشد العفو ، لكن ذلك ربما لا يتتجاوز لحظة انفعال
عايرة

شيئاً فشيئاً هدا صوت كيشيجيرو ، ثم اضمحل . تطلع من خلال

القضبان ، فرأى الحرس يدفعون الرجل بخشونة في ظهره ، وهم يقتلونه
إلى السجن

مع مقدم الليل ، أقلعت السماء ، ألقيت له قبضة من الأرض وبعض السمك
المقدد . كان السمك تعفن بالفعل ، وغدا غير صالح للأكل . تناهت إلى
سمعه ، كالمعتاد ، أصوات المسيحيين ، وهم يرتلون الصلوات ، مضى
بموافقة الحرس لزيارتهم ، في سجنهم ، هناك ألفي كيشيجiro ، ملقى في
أحد الأركان ، وحيدا ، نائياً عن الآخرين . فقد رفض المسيحيون السماح
له بالاختلاط بهم

همسو للراهب بصوت خفيض

- حذار من هذا الرجل ، فغالباً ما يستغل رجال الحكومة المرتدية ، ربما
يريدون نصب شرك لنا

كان صحيحاً أن الحاكم يدس أحياناً المسيحيين ، الذين هروا من علياء
إيمانهم ، في صفوف الآخرين لبث القلاقل ، ولدفعهم إلى التخلّي عن دينهم ،
لربما تلقى كيشيجiro كرة أخرى المال ليقوم على وجه الدقة بهذه المهمة ، لكنه كان
من المستحيل على الراهب أياً كان الأمر أن يولى كيشيجiro ثقته

- أبتاه ! أبتاه !

حينما رأى كيشيجiro أن الراهب أقبل إلى السجن ، راح يناشد كرة أخرى ،
من قلب العتمة

- دعني أعترف بخطاياي واكفر عنها !

لم يكن من حق الراهب أن يحجب سر التوبة المقدس عن أحد ، فإذا سأله أحد
أن يمنحه السر المقدس ، فليس من حقه أن يقبل أو يرفض ، وفق ما تملّيه عليه

مشاعره . رفع كفه مباركاً . رد بتأثير الشعور بالواجب ، الصلاة المفروضة ، وضع أذنه قريباً من الآخر . فيما الانفاس الكريهة تلفح وجهه ، ارتسمت أمام عينيه الأسنان الصفراء والنظرية الماكرة

توجع كيشيجiro ، بصوت استطاع المسيحيون الآخرون سماعه

- اصغ إلى يا أبى ، إننى مرتد ، لكنى لو كنت لقيت حتفى قبل عشر سنوات لمضيت إلى الفردوس مسيحياً طيباً ، ولما لقيت الازدراء الذى يلقاء المرتد . كل ذلك لأنى عشت زمن الاضطهاد .. إننى لنادم

تساول الراهب ، باذلاً أقصى ما فى وسعه لاحتمال الخوف الكريه المنبعث مع أنفاس الآخر

- لكن أمازالت تؤمن ؟ الغفران ، لكنى لا استطيع أن أثق بك ، ليس بمقدوري أن أفهم لم جئت هنا

تقلب كيشيجiro فى موضعه ، متقلقاً ، وملتقطاً نفساً عميقاً ، راح يبحث عن كلمات للإيضاح . لف الراهب لف خلوفه وعرقه الكريهين أيمكن أن يكون المسيح قد أحب وسعى وراء أقدر الرجال هذا ؟ فى غور الشر تكمن تلك القوة وذلك البهاء ، اللذان يعنوان للشر عادة ، أما هذا الكيشيجiro فلم يكن جديراً حتى بائن يدعى شريراً . كان ناحلاً ، قذراً كالخرق المهللة ، التى يرتديها . تغلب الراهب على اشمئزازه ، رتل الكلمات الأخيرة من الغفران ، ثم عملاً بالعرف السائد همس: «امض فى سلام» . بأقصى سرعة نأى عن خلوف ذلك الفم ولفع رائحة ذلك الجسد . عاد إلى حيث كان المسيحيون

لا لا . لقد سعى المسيح وراء نوى الخرق والروائح الكريهة ، على هذا النحو غرق في التأمل ، مضطجعاً على الأرض ، ومن بين الشخصوص التى تلوح عبر

صفحات الكتاب المقدس ، كان من سعى المسيح وراعم بالحب هم المرأة من كفر ناعوم ، الفارقة في قضية الثأر ، والمرأة الزانية ، التي أراد الناس رجمها ، شخص لا جاذبية فيها ولا جمال . يمكن للحسن والبهاء أن يجتنبا الجميع ، ولكن أيُّمْكَن أن يدعى هذا حبًا ؟ إن الحب الحق هو تقبل الإنسانية حتى حين تكون مهدرة كالخرق والهلاميل . كان الراهب ملماً بهذا كله ، على الصعيد النظري ، لكنه رغم ذلك ما كان بمقدوره أن يغفر لكيشيجيرو ما أتاه بحقه ، مرة أخرى دنا من وجهه محبًا المسيح ، وقد بلله الدمع . حينما تطلعت إليه العينان ،

أفعم الراهب خجلًا

بدأ الابتلاء بالأيقونة . اصطف المسيحيون صفًا واحدًا ، مثلاً حمير بنت خارج المدينة . في هذه المرة لم يواجههم رجال الحكومة ذاتهم ، كما لردة السابقة ، وإنما جمع من الأتباع الأحدث سنًا ، الذين اقتعدوا مقاعد عالية ، وقد عقدوا أيديهم على صدورهم . أمسك الحرس بعصى غليظة ، وعكفوا على المراقبة . اليوم أيضًا تناهى صوت الزيزان متتابع الموجات ، كانت السماء صافية الزرقة ، والهواء طلقاً منعشًا . غير أن الوقت لن يطول ، قبل أن يستأنف الحر مسيرته ، كان الوحيد الذي لم يدفع إلى الفناء هو الراهب نفسه ، الصدق وجهاً تهدلت ملامحه إلى القضبان ، راح يتحقق في المشهد ، الذي بدأت وقائمه .

ز مجر أحد رجال الحاكم :

— كلما أسرعتم بالانتهاء من الأمر ، عجلنا بخروجكم من هنا ، لا أقول لكم بأن تدهسوا عن أخلاق واقتئاع ، فليس هذا إلا إجراء شكلياً . ضعوا أقدامكم فحسب على الشيء ، ولن يضطير هذا عقائدكم .

وواصل رجال الحكومة التأكيد ، في حديثهم لل فلاحين ، على أن دهس الأيقونة لا يعود أن يكون أمراً شكلياً ، كل ما عليك أن تفعله هو أن تضع قدمك عليها ،

لئن فعلت هذا ، فلن يهتم أحد بما تؤمن به ، وبمقتضى أوامر الحاكم طلب منكم أن تضعوا أقدامكم بخفة على الأيقونة ، وفي الحال يطلق سراحكم أصغرى الرجال والنساء الأربع إلى هذه الخطبة الطنانة بأوجهه تجردت من أي تعبير . أما الراهب فلم يستطع ، وقد أصدق وجهه بالقضبان ، وأن يخمن ما هم بسبيله . أما الوجوه المسيحية الأربعة الهضيمة ، التي نتأت عظام وجناتها ، واكتسست لوناً شبهاً ، رهيباً ، جراء الحرمان من أشعة الشمس ... فقد بدت كوجوه الدمى ، مجردة من إرادتها الذاتية

حان وقت ما طال انتظاره ، أدرك ذلك تمام الإدراك ، لكنه لم يستطع الشعور بالاقتناع بأن مصيره ومصائر هؤلاء المسيحيين سيقرر سريعاً ، على هذا النحو . كان رجال الحاكم يحادثون المسيحيين ، وكأنهم يسألونهم معروفاً . هؤلاء الفلاحون رعوسم راضفين . فتراجع رجال الحاكم بوجوه دماغها القلق هوناً إلى الوراء

وضع الحراس على الأرض ، بين الفلاحين والمقاعد العالية ، التي اقتعدوا رجال الحاكم ، الأيقونة ملتفة بقطعة من القماش ، ثم ارتدوا إلى أماكنهم .

من واقع القائمة ، تلا أحد رجال الحاكم الأسماء :

- ايكيتسوكيجيما ، كوبو - نو - أورا ، توباي

اقتعد المسيحيون الأربعة الأرض هناك شاردين . غلب الانفعال أحد رجال الحرس ، فهو ببرأته على الرجل الجالس في أقصى اليسار ، لكنه لم يتحرك من موضعه . تلقى دفعه أو دفعتين في ظهره ، فسقط ، وجثم على الأرض ، لكنه لم يبذل جهداً للنهوض من سقطته

- كوبو - نو - أورا ، شوكيشى

هزَّ الأعور رأسه رافضاً ، مرتين أو ثلاثة ، لكم بدا طفولياً

- كوبو - نو - أورا ، هارو

أحنت المرأة ، التي وهبت الراهب ثمرة الخيار ، ظهرها ، ونكست رأسها ،
دفعها الحرس ، وهي في وضعها هذا ، لكنها لم ترفع عينيها
أخيراً ، نودى العجوز ميتاشى ، لكنه بدوره تشبث بالأرض ، ولم يتحرك من
موضعه

لكن رجال الحكم لم يرفعوا صوتاً غاضباً ، لم يوجهوا توبيناً ، حتى
ليظنن المرأة انهم كانوا يتوقعون هذا ، منذ البداية ، من الطريقة التي ظلوا بها
مقتعدين مقاعدهم العالية ، متبدلين الهمس فيما بينهم . ثم نهضوا فجأة ،
فانسحبوا إلى كوخ الحرس

تصالبت الشمس فوق السجن ، انهالت أشعتها بسيطرتها على
المسيحيين الاربعة ، الذين خلفهم رجال الحكم وراغبهم . ألقى شخصوهن
المقعدة على الأرض ظللاً سوداء ، فيما شرعت الزيزان مجدداً تصدر
صوتها ، لكانما أرادت أن تحرك الهواء ، الذي صقلاته الأشعة ، فحاكي
البلور ، بل شرع الحرس والمسيحيون يتداولون الحديث والفكاهات ، لكانما
تبددت علاقة القائم بالتحقيق والتحقق معه ، التي كانت تربطهم ، لكن أحد
رجال الحكم نادى من الكوخ ، أمراً بإعاداة الجميع إلى السجن ، عدا
الأعور شوكيشي

أرخي الراهب يديه عن القضبان ، التي كان متشبثاً بها ، اقتعد الأرض
لم يكن يدرى ما الذي سيعقب ذلك ، لكن اليوم انقضى بسلام ، على أي
حال ، أفعمته هذه الفكرة بشعور عميق بالراحة . إذا كان اليوم قد انقضى

على نحو طيب ففي هذا الكفاية ، دع أمر الغد لخالق الغد ، لو أنه بقي على
قييد الحياة في الغد

- أليس إلقاءها بعيداً أمراً مؤسفاً ؟

قالها صوت مجهول ، ورد الآخر

- بلـ ، هو أمر مؤسف تماماً

لم يستطع تخمين ما يدور حوله الحوار ، لكن الريح ، على أى حال ،
حملت إليه هذا الحديث الويدود بين الحارس والأعور ، وثبت ذبابة من خلال
القضبان ، شرعت تطن حول رأس الراهب ، كان دقيق اجنتهـ يوشـك أن يدفعـهـ
للنـعـاصـ

فجأة ، انطلق أحدهـم يعلـو عبر الفـنـاء ، ترددت هـسـهـة صـوتـ حـادـ ، ثـمـ
صـوتـ سـقوـطـ حينـما تـعلـقـ الـراهـبـ بالـقضـبـانـ ، مـتـشـبـثـاـ ، كانـ أحـدـ رـجـالـ الحـاكـمـ
يـعـيدـ سـيفـهـ المـرهـفـ ، الـوهـاجـ ، إـلـىـ غـمـدـهـ ، فـقـدـ اـنـتـهـىـ الإـعدـامـ ، كـانـ جـثـةـ الأـعـورـ
منـبـطـحةـ عـلـىـ الـأـرـضـ . أـمـسـكـهاـ أحـدـ الـحرـاسـ مـنـ الـقـدـمـينـ ، شـرـعـ فـيـ جـرـهاـ بـيـطـءـ
إـلـىـ الـحـفـرـةـ ، التـىـ اـحـتـفـرـهـاـ الـمـسـيـحـيـوـنـ . خـضـبـ الدـمـ الـقـاتـمـ ، الـذـىـ شـخـبـتـهـ ،
الـأـرـضـ ، فـىـ كـلـ مـكـانـ ، كـائـنـ زـنـارـ رـداءـ

انبعثـتـ مـنـ السـجـنـ فـجـأـةـ صـرـخـةـ اـمـرـأـ ثـاقـبةـ ، تـواـصـلـ صـوـتهاـ فـيـ تـرـدـدـهـ كـائـنـهاـ
ترـقـلـ أـنـشـوـدـةـ ، ثـمـ اـضـمـحـلـ ، مـعـانـقاـ الصـمتـ ، وـشـابـ الـهـوـاءـ هـدوـءـ قـاتـلـ . وـحدـهـماـ
كـفـاـ الـراهـبـ الـقـابـضـتـانـ عـلـىـ الـقـضـبـانـ اـرـتـجـفـتاـ ، كـائـنـاـ تـشـنـجـتـاـ ، وـضـرـبـهـماـ فـالـجـ

- انـظـرـوـاـ إـلـىـ الـجـثـةـ !

صـاحـ رـجـلـ أـخـرـ مـنـ رـجـالـ الـحـاكـمـ ، مـوـاجـهـاـ السـجـنـ ، مـوـليـاـ دـبـرـهـ إـلـىـ الـراهـبـ
- هـذـاـ مـاـ يـحـدـثـ حـينـ تـسـتـخـفـونـ بـالـحـيـاةـ ، إـنـهـ أـمـرـ شـاقـ ، لـكـنـكـمـ كـلـمـاـ عـجلـتـمـ

بالانتهاء منه ، عجلنا بإخراجكم من هنا ، لا أمركم بأن تدهسوا الأيقونة عن اقتناع ، لئن اجترتم هذا الإجراء الشكلي ، فلن يضير ذلك عقائلكم

اقتاد حارس عقب ذلك كيشيجورو ، صارخاً به ، لم يكن يستره إلا قماش يحيط خاصرته ، وقد أخذته الرعدة ، من قمة رأسه حتى أطراف قدميه . وقف أمام رجال الحكم ، انحنى مراراً وتكراراً ، ثم رفع قدمه الناحلة المشوهة ، ودهس الأيقونة بها

- اسرع ! غادر المكان !

صرخ به أحد رجال الحكم ، مشيراً إلى البوابة . اختفى كيشيجورو عن الأنظار ، متعرضاً في عدوه . لم يلتفت مرة واحدة إلى الكوخ ، الذي سجن به الراهب . لكن ما أتاهم لم يعد يعني الراهب كثيراً

انصببت أشعة الشمس الذهبية باهرة ، على الفناء الربح ، وامتد تحت سياطها ، التي لا ترحم ، سواد الدم ، الذي خلفته جثة الأعور واصلت الزيزان انشاد اغنيتها الجافة الخشنة ، كذى قبل . سكن الهواء . كعدها قيلاً ، واصلت ذبابة طنينها ، حول وجه الراهب . لم يطرأ تغير في الدنيا . لقى رجل حتفه ، وما من تغير طرأ

ارتعد الراهب ، متشبثاً بالقضبان ، غمم

- هكذا وصل الأمر إلى هذا ... هكذا ، وصل الأمر إلى هذا

غير أن حيرته لم تتبع من الواقعه ، التي حدثت بمثل هذه السرعة . كان سكون الفناء هو ما عجز عن فهمه ، صوت الزيزان ، دقيق أجنحة الذباب . لقى رجل حتفه ، غير أن الدنيا واصلت مسيرتها ؟ لم تلتزم الصمت ؟ ها هنا لقى هذا الأعور حتفه ... ومن أجلك أنت ، ينبغي أن تعرف . سكون الظهيرة هذا ، طنين

الذباب ، هذا الشيء المجنون ، هذا الأمر الضارى . وانت تشيح بوجهك . كأنما
الأمر لا يعنيك ، هذا ... هذا ما لا أستطيع معه صبراً

كيرى لا يسون . يارب ارحم ! تتمت شفتاه المرتعشتان هنيهة بالصلة ، لكن
الكلمات نوت هاربة من شفتيه إلهى لا ترقلنى ! لا ترقلنى على هذا النحو
المليبس ! هذه صلاة ؟ ظننت طويلاً أن الصلاة ترتل ثناء عليك ، وتمجيداً لك ،
لكنني حين أتوجه بالخطاب اليك يبدو لي أنى لا أتى إلا تجديفاً أفى يوم حتفى
أيضاً ستمضى الدنيا بلا هواة على هذا النحو فى مسيرتها لا مبالغية مثلماً هي
الآن ؟ بعد مصرعى أتصدر الزيزان أصواتها ويُدفِّن الذباب بأجنحته جالباً
النعاشر إلى العيون ؟ أترانى أنشد بطولة على هذا النحو ؟ مع ذلك أترانى أتعلّم
إلى الشهادة الحقيقة المحتسبة عن العيون أو أنشد موتاً مجيداً فحسب ؟ أترانى
أرغب في التكريم والتسلل باسمى وأن أدعى قديساً ؟

ضم ركبتيه إلى صدره ، وقد اقتعد الأرض ، محدقاً فيما أمامه «و عند
الظهر خيم الظلام على الأرض كلها حتى الساعة الثالثة» حينما مات ذلك
الرجل ، على الصليب ، صدرت من قلب المعبد ثلات نفحات في البوق ، احدهما
طويلة ، والأخرى قصيرة ، ثم ثالثة طويلة كرة أخرى ، كانت ترتيبات الاحتفال
بالفحص قد بدأت . رقى الكاهن الأعظم في أردية زرقاء ضافية درج المعبد ،
وقف أمام المذبح ، الذي تمددت عليه الأرضية ، نفح في النفير . في هذا الوقت
كانت السماء قد أعممت ، خبت الشمس خلف السحب «واحتجبت الشمس وانشق
حجاب الهيكل من الوسط» . كانت تلك هي صورة الاستشهاد ، التي أمعن
التفكير فيها طويلاً ، لكن استشهاد أولئك الفلاحين - الذي وقع أمام ناظريه -
ما كان أشد تعاسته ، باسأاً كان ، مثماً الأكواخ التي يلجهن إليها ، كالخرق
التي يستترون بها

الفصل السابع

في المساء بعد خمسة أيام ، التقى بإينوبي ، سيد شيكوجو ، كرهاً أخرى كان النهار ساكنا ، سكون القبر ، لكن حقيقة رقباً كان الآن يند عن أوراق الشجر ، في همس نشط مع نسيم المساء . هكذا وجد نفسه وجهه مع إينوبي ، لم يصحبه أحد إلا المترجم ، بينما أقبل الراهب مع الحراس ، كان الآخر يرتشف في بطء الماء الفاتر ، مداعباً قدحاً ضخماً .

- أخشى أنني أهملتك ، كان لدى عمل في هيرانو .

قالها إينوبي ، ولا يزال ممسكاً بالقدح بيديه كليهما ، فيما عيناه الواسعتان ترمقان الراهب بغضون .

أمر الحكم بأن يجلب ماء فاتر للقس ، وابتسمة تتلاعب طوال الوقت على شفتيه ، ثم شرع يتحدث وئيداً عن رحلته إلى هيرانو .

- ينبغي أن تذهب إلى هيرانو ، إذا اتيحت لك الفرصة إليها ألا؟

بدا في حديثه ، كما لو كان الراهب رجلاً مطلق السراح .

- هناك قلعة ماتسوزا ، تعلو جبلاً يواجه خليجاً هادئاً .

- نعم سمعت من رعاعة كانوا في هيرانو أنها مدينة جميلة .

- لا أقول إنها جميلة ، أوثر القول بأنها مثيرة للاهتمام .

هز إينوبي رأسه ، خلل حديثه ، واضاف :

- حينما اشاهد تلك المدينة ، افكر في رواية سمعتها ، منذ زمن طويل ، أنها عن

تاكينوبو ماتسوزا، وهو حاكم قديم لهيرابو ، كانت له اربع خليلات دائمات الشجار ، بداع الغيرة ، وحينما عجز عن احتمال المزيد ، انتهى به الأمر الى طردهن جميعا من قلعته ، لكن ربما لم تكن تلك رواية مناسبة لأننى راهب متبتل .

- لابد ان ماتسوزا هذا كان رجلا بالغ الحكمة.

شعر الراهب بالاسترخاء في حديثه ، حيث ان إينوى غدا صريحا على هذا النحو .

- أتعنى ذلك حقا ؟ اذا كنت تقصده فإن السعادة تغمرنى ، ذلك ان هيرابو بل ياباننا بأسراها ، في الحقيقة ، تحاكي ماتسوزا .

دار سيد شيكوجو بالقدح حول يده، واستطرد:

- اسبانيا ، البرتغال ، هولندا، انجلترا، وما الى ذلك من النساء ، يواصلن الهمس الغيور بقصد الاغتياب، في أذن الرجل المسمى باليابان.

بدأ الراهب يدرك ما يرمى اليه إينوى ، فيما كان يصفى الى المترجم . كثيرا ما سمع في جوار ماكاو كيف ان الدول البروتستانتية، مثل انجلترا وهولندا، والدول الكاثوليكية، كأسبانيا والبرتغال ، قد اقبلت الى اليابان، وفي غمار غيرتها مما احرزته الآخريات من تقدم، ردت الافتراضات على مسامع اليابانيين احداها عن الأخرى، واقدم الدعاة كذلك، بداع التنافس، في وقت من الأوقات، على فرض حظر التعامل مع البريطانيين والهولنديين على اتباعهم.

- إذا كنت ايها الأب تعتقد ان ماتسوزا كان حكينا، فلعلك تدرك عن يقين ان تجريم اليابان لاعتناق المسيحية لم يكن عملاً أخرقاً، أو بلا مبرر.

خلال حديثه، لم تنسحب ملامح البسمة عن هاتين الوجنتين اللحيتين

المتوردين، استقرت العينان عامتين على مهيا الراهب، كان لونهما البني غريبا بالنسبة لعييني ياباني، بينما لم يبد اثر للون الابيض في فوبيه (ترى أكانا مصبوغين؟).

عن عدم اختيار الراهب مسيرة مرحة للحديث، قال:

- تعلم كنيستنا ان لكل رجل امرأته، فإذا كان للرجل زوجة شرعية، فإني اتسائل بما إذا كان من الحكمة ان يثقل كاهله باتخاذ خليلات، ماذا لو ان اليابان اختارت زوجة شرعية واحدة من بين النساء الأربع؟

- تعنى بهذه الزوجة الشرعية البرتغال؟

- أوه لا، انى اعني كنيستنا.

عندما مرر المترجم، دونما انفعال، هذا الرد ، تهدلت ملامح إينوي، ندت عنه ضحكة عالية، كانت ضحكة صاحبة، بالنظر الى تقدمه في العمر، لكن العينين اللتين استقرتا على الراهب لم تفصحا عن اي انفعال، لم تكن عيناه ضاحكتين.

- ألا تظن أيها الأب، انه من الافضل لهذا الرجل المدعو باليابان ان يكفل عن اتخاذ نساء من بلاد اجنبية، وان يرتبط بامرأة ولدت معه، على الأرض نفسها، امرأة تتعاطف مع نهجه في التفكير.

كان الراهب يعرف حق المعرفة، ما يعنيه إينوي بالمرأة الاجنبية، ولكن بما ان الآخر مضى بالمحاورة على هذا النحو، الذي يبدو في مظهره عابثا، فقد احس بأن عليه بدوره ان يواصل الحوار على النحو ذاته، قال:

- في رحاب الكنيسة لا تهم جنسية المرأة، المهم هو اخلاصها لزوجها.

- هذا واضح، ومع ذلك إذا كان حب الزوجة والزوج يقوم على العاطفة فحسب لما قاسى احد مما ندعوه بالحب الملحم لأمرأة قبيحة.

أوما الحاكم راضيا ، كأنما اغتبط بطريقته فى ادارة دفة الحديث ، واضاف

- هناك رجال في هذه الدنيا يضيقون ذرعا بالعاطفة الملاحقة، التي تبديها نحوهم نساء قبيحات.

- أترى في الدعوة فرضا للحب؟

- أجل ، هذا ما أعنيه.. من وجهة نظرنا، وان لم يرق لك هذا التعبير، فدعنى اطرح الامر على هذا النحو، إننا نصف المرأة التي لا تلد اطفالا لأنها عقيم، ونعتقد ان مثل هذه المرأة ليست جديرة بأن تكون زوجة.

- إذا لم يكن مذهبنا قد أحرز تقدما هنا في اليابان، فإن التبعة لا تقع على كاهل الكنيسة، مثلاً ينتزع الزوج من أحضان زوجته.

التزم المترجم الصمت ببرهة ، باحثا عن الكلمات ، كان ذلك هو الوقت الذي ينبغي ان تناسب فيه صلاة المساء محلقة من سجن المسيحيين ، أما اليوم فلم يتزدد صوت . فجأة ، انتقلت خواطر الراهب الى حكم الاعدام، الذي نفذ قبل خمسة ايام ، سكون حاكى هذه اللحظة لكنه في الحقيقة كان مفارقا، كان ذلك في الوقت الذي انبطحت فيه جثة الأعور، على الارض تحت وهج الشمس، والحارس يمسك بإحدى ساقيهما في برود ، ويجرها الى الحفرة ، تاركا اثرا من دم ، كأنه خط على الارض تبعته مقشة ، راح الراهب يفكر، أمن الممكن ان يكون العجوز الوادع الجالس امامه هو الذي أصدر الأمر بهذا الاعدام

قال سيد شيكوجو:

- أيها الأب ، لا يبيو انك والداعية الآخرين تعرفون اليابان

رد الراهن:

- وانت ايها الحاكم المجل لا يبيو انك تعرف المسيحية.

هنا انبعثا معا ضاحكين، قال اينوى:

- ومع ذلك ، فقبل ثلاثين عاما، حينما كنت وكيلا للحاكم في جامو، لطالما سعيت طالبا النصح من الآباء.

- واذن؟

- إن أسباب معارضتي للمسيحية تختلف عن أسباب الناس بعامة، فلم يحدث ابدا ان نظرت الى المسيحية بحسبانها عقيدة تحمل الشر.

أصفى المترجم الى هذه الكلمات، وقد ارتسمت الدهشة على ملامحه، فيما كان يتلجلج باحثا عن الكلمات، واصل العجوز النظر الى القدر بين كفيه، بما بقى من ثمالة الماء الفاتر، مبتسمـا طوال الوقت:

- اريدك ايها الأب ان تمعن التفكير في امررين، حدث العجوز المائل بين يديك عنهمـا، أولهما ان العاطفة الملحة التي تكنها امرأة قبيحة هي وقر لا يحتمل بالنسبة للرجل، والأخر ان المرأة العقيم لا ينبغي ان تصبح زوجة.

حينما انبعث الحاكم واقفا، انحنى المترجم، حتى اوشكـت رأسه ان تمـس الأرض وقد تضامـت يداه امامـه، مدـ الحارس ، مرتبـا ، نعلـى الحاكم، فوضعـ سيدـ شيكـجو قدمـيه متـئـدا فيـهما ، واختـفى ، دونـ ان يـلـتفـت وراءـه مـرة وـاحـدةـ، فـي عـتمـةـ الفـنـاءـ . عندـ بـابـ الكـوخـ ، احتـشدـ سـرـبـ منـ الـبعـوضـ، وـفـي الـخـارـجـ تـرـددـ صـهـيلـ جـوـادـ.

ضربـ اللـيلـ اـطـنـابـهـ، هـمـيـ المـطـرـ نـاعـماـ، مـحـدـثـاـ صـوتـاـ يـحاـكـيـ رـمـيـ الحـصـىـ وـسـطـ الـأشـجـارـ، عـنـدـ مـؤـخـرـةـ الكـوخـ، أـسـلـمـ الـراـهـبـ رـأـسـهـ لـلـأـرـضـ الـصـلـدةـ، أـصـفـىـ

لصوت المطر، فكر في الرجل الذي تعرض مثله للابتلاء. في بكرة السابع من ابريل، دفعوا هذا الرجل، ناحل البدن، عبر المنحدر، في بيت المقدس . امتدت اشعة شمس الفجر، فيما وراء البحر الميت، تغسل الآماد الجبلية بالنضار، واصلت عين سلوان خيريرها، شادية بنغم جديد ابدا، لم يمنه احد فرصة التقاط انفاسه، بعد ان اعلن الكهنة والشيوخ الحكم، كان من الضروري الحصول على موافقة بيلاطس الوالي الروماني . كان بيلاطس في مخيمه، بأكناf المدينة، غير بعيد عن المعبد، قد سمع بالنبأ ، ومن المحتم انه كان في الانتظار الآن.

كان الراهب، منذ طفولته يستحضر بذكرياته تفاصيل صباح السابع من ابريل الحاسم ذاك كلها. هذا الرجل ناحل البدن، كان قوته شامخة الكمال، افعمت عيناه، شأن الضحايا كافة، باستسلام أسيف، فيما كان يتطلع عاتبا الى الجمع، الذي راح يسخر منه، ويصدق عليه . وسط هذا الجمع وقف يهودا، لم يتبعه يهودا؟ أترى دفعته شهوة الانتقام لمشاهدة هلاك الرجل الذي باعه؟ اي ما كان الأمر، فإن هذه الحالة تشبه وضعه الراهن، لقد اسلمه كيشيجiro ، كما سبق ليهودا ان اسلم المسيح، وشأن المسيح فإن قضاته هم اقوىاء هذا العالم، نعم، ان مصيره ومصير المسيح يشبه احدهما الآخر، ازاء هذه الفكرة في ذلك اليوم المطير، تدفق في صدره شعور بالبهجة يخز البدن، تلك هي بهجة المسيحي الذي يستطيع حقيقة التوحد مع ابن الرب.

من ناحية اخرى، فهو لم يذق اي من ضروب العذاب البدني الذي تحمله المسيح ، وقد جعلته هذه الفكرة يستشعر القلق . في قصر بيلاطس، شد وثاق ذلك الرجل الى دعامة، ارتفاعها قامتان، لينزل به العقاب بسوط رقش المعدن اطرافه، احترمت المسامير يديه. لكن الراهب منذ زج به في هذا السجن لم يمسه رجال الحكم ولا الحراس، لم يعرف ان كانت تلك خطة عمد اليها إينوى ام لا،

لكنه احس انه ليس من قبيل المستحيل ان تنتصرم الايام احدها بعد الآخر، دون
ان يمس بدنه اذى..

ما سبب هذا ؟ لطالما سمع عن عدد لا يحصى من الدعاة اسروا في هذه
البلاد، وأخضعوا لألوان. تستعصى على الوصف من العذاب والايذاء ، هناك
نافارو الذى تعرض للشى حيا، ثمة كارفالو وجابريل، اللذين ألقيا مرارا وتكرارا
إلى المياه الكبريتية فى أونزين ، وهناك أولئك الدعاة الذين قطع عنهم الزاد فى
سجن أومنورا، حتى هلكوا جوعا، مع ذلك، هؤلا فى السجن يسمح له
بالصلوة، يؤذن له بالحديث مع المسيحيين، يتناول طعاما، إن لم يكن وفيراتاما
فإنه يقدم فى وجبات ثلاثة يوميا، ورجال الحكم، بل والحاكم نفسه، يكتفون
بالشكليات، حين يقبلون إلى السجن ، وهم أبعد الناس عن الضراوة . ترى ما
الذى يرمون اليه؟

راح الراهب يفكر فى ايام كوخ توموجى الخوالى، وكيف كان يتداول
وخاربي الحديث ، عن العذاب، وما إذا كان بمقدورهما احتماله، إذا ما قدر لهما
ان يقعوا تحت طائلته . كان الشىء الوحيد الذى يمكن القيام به هو الضراعة
للعناية الإلهية، لكنه فى ذلك الوقت كان يحس فى قراره قلبه بأن بمقدوره
النضال، حتى يلقى حتفه، وحينما كان يضرب ضائعا فى الجبال كذلك، كان
يتمسك بالقناعة القوية بأنه ما سقط فى قبضة شانتيه ، فإنهم سينزلون
بساحته العذاب، وأحس (أتى) كان ذلك من عوارض الانفعال العنيف؟) بأنه
ايا كان العذاب الذى سيتعرض له فسيكون بمقدوره ان يكظم ما يحسه ،
ويتحمل ما يحل به.

أما الآن ، فقد وهن عزمه هونا. انتصب واقفا وهز رأسه، ساعل نفسه عما اذا

كانت شجاعته قد بدأت في التداعى .. ترى أهل يرجع ذلك إلى الحياة التي يعيشها الآن ؟ ثم فجأة ومن سويدة قلبه هتف به هاتف : « ذلك لأن حياتك هنا رضية ». .

منذ قدمه إلى اليابان ، لم تتح له الفرصة عملياً ، إلا في هذا السجن ، ليحيا حياة الراهب ، كان في توموجي معتكفاً بمخبئه ، ثم عقب ذلك لم يتح له الاتصال بأى من الفلاحين ، اللهم الا بكيشيجورو ، منذ مجئه إلى هنا فحسب ، اتيحت له فرصة معايشة الناس ، وقضاء الشطر ، الأعظم من النهار في الصلاة والتأمل ، دون معاناة تباريغ السفب .

كانت الأيام جميعها تكر ، هنا في هدوء ، مثلما ينساب الرمل عبر ساعة رملية ، تدريجياً ، تراخت حدة مشاعره ، التي كانت متواترة ومتصلبة ، من قبل ، كالفولاذ ، بدأ الشعور يراوده بأن التعذيب والمعاناة البدنية ، اللذين أمن بحتميتهما ، قد لا يحلان بساحتته في النهاية . كان مسلك رجال الحكم والحرس معه مسلكاً كريماً ، واصل الحكم ريان المحسن حواره الطريف عن هيرانو . الآن ، وقد عرف أمواه السلام والأمن الفاترة أتراه سيمتشق ثانية العزيمة كي يضرب عبر هاتيك الجبال ويعتكم في كوخ ؟

ثم خطر له ، وللمرة الأولى أن المسؤولين اليابانيين وحاكمهم لم يخطوا خطوة واحدة لأنهم ، شأن عنكبوت يرقب طريدة وقعت في شباكه ، كانوا ينتظرون أن ينال الوهن من روحه . استعاد بمرارة ذكري ضحكة سيد شيكوجو ، وكيف كان العجوز يفرك يديه سروراً ، الآن استطاع أن يدرك بوضوح لم بدرت هذه الحركة من الحكم

تصدرت هذا التصور حقيقة أنه منذ ذلك الحين وحتى الأمس زيدت

الوجبتان اليوميتان الى ثلات وجبات، كان الحراس الطيبون الذين يجهلون حقيقة الأمر، يضحكون ، حتى لتبدو نواجذهم، قائلين:

- أما تأكل؟ تلك هي إرادة الحكم ، لا يعامل على هذا النحو كثير من المساجين.

كان الراهب ينظر الى الوعاء الخشبي، بما حوى من أرز لم يعرف كمال النضج طريقا اليه ومن اسماك مقددة، يهز رأسه رافضا، يرجو الحرس ان يقدموه للمسيحيين، راح الذباب يطير فوق الأرض، حين غربت الشمس، جلب الحرس حشيتين من القش . نعم بدأ الراهب يدرك شيئا فشيئا ما وراء هذا التغير في المعاملة ، فقد يعني ان يوم العذاب غدا وشيكا. لسوف يكون بدنه المتراخي اكثر وهنا في مقاومته للألم.. كان رجال الحكم باستخدام هذه الأساليب المخاتلة يمتصون ببطء حيويته، ثم فجأة يحل العذاب، يقينا كانت تلك خطتهم.

الحفرة ..

انبعت في ذاكرته الكلمة التي سمعها من المترجم في يوم أسره بالجزيرة، لئن كان فيريرا قد صبا، فذلك لأنـه - مثـلـما يـحدـثـ لهـ الآنـ - لـقـىـ معـاـملـةـ طـيـيـةـ فيـ أولـ الـأـمـرـ، ثـمـ حـيـنـ طـرـأـ الضـعـفـ عـلـىـ روـحـهـ وجـسـدـهـ انـزـلـ هـذـاـ العـذـابـ بـسـاحـتـهـ، عـلـىـ حـيـنـ غـرـةـ ، وـبـغـيرـ ذـلـكـ فـإـنـهـ لـاـيـخـطـرـ بـيـالـ اـحـدـ اـنـ مـثـلـ هـذـاـ الرـجـلـ العـظـيمـ يـتـخلـىـ فـجـأـهـ عـنـ عـقـيـدـتـهـ . نـعـمـ اـىـ اـسـالـيـبـ شـيـطـانـيـةـ تـلـكـ التـيـ تـفـتـقـتـ عـنـهـ قـرـيـحـتـهـ !

تأمل كلمات كزافييه القائلة: « اليابانيون اكثر الشعوب التي صادفناها، حتى الان، ذكاء» وضحك ساخرا..

كان قد رفض الطعام الذى قدم له، ولم يمس الحشيتين ليلا.

يقيينا ان ذلك تناهى إلى مسامع رجال الحكم والحاكم، عن طريق الحرس. غير ان أحدا لم ينبس بكلمة، استهجان، فاستحال عليه ان يعرف ما إذا كانوا قد ادركوا ان خططهم منيت بالإخفاق أم لم يتوصلا إلى ذلك.

ذات صباح، بعد عشرة أيام من زيارة الحكم، أيقظته ضجة في فناء السجن. الصق وجهه بقضبان النافذة ، شاهد ساموراي يست卉ن ثلاثة من المسيحيين إلى خارج السجن. في غيش البكرة ، راح الحرس يدفعونهم لفعا، وقد شد وثاقهم معا ، كانت المرأة التي منحت الراهب ثمرة الخيار هي الأخيرة في الركب.

صاحوا لهم يمرون بسجن الراهب:

- أبت، نحن ماضون للسخرة.

مد يديه عبر القضبان، باركهم واحدا إثر الآخر، راشما الصليب، لم تكن اصابعه تمس جبين مونيكا فيما كانت، بشجن وابتسامة طفل، ترفع وجهها نحوه. ساد السكون والهدوء طوال النهار، ارتفعت الحرارة تدريجيا في الظهيرة، اخترق اشعة الشمس الضاربة بلا رحمة قضبان السجن، ساعل الحرس الذين جلبوا له الطعام عن موعد عودة المسيحيين الثلاثة ، قيل له انهم سيعودون في المساء إذا ما انتهى العمل . كان العمل جاريا على قدم وساق ، في عدد من المعابد في نجازاكى ، تنفيذا لأوامر الحكم ، وكانت الحاجة ماسة بلا انتهاء للعمال.

- الليلة أورابون، يا أبت، اظنك تعرف ما هو أورابون؟

اووضح الحارس انه في ليلة أورابون يعلق اهالى نجازاكى القنابل، على طرف

بورهم، ويوقدون بداخلها الشموع، اجاب الراهب بقوله انه في الغرب يحتفل الناس بعيد هولووين، حيث يقومون بما يشبه ذلك.

من بعيد، تناهت الى سمعه اصوات اطفال صارخة، ارمه السمع، فحملت

الريح الكلمات الى اذنيه:

ايه القنديل وداعا ، وداعا، وداعا.

إذا حسبته بحجر تسل يدك.

ايه القنديل وداعا، وداعا، وداعا.

إذا حسبته بحجر تسل يدك.

وشَّت نغمة اسيانة ، على نحو ما ، انشودة الأطفال متباude المقاطع.

رحلت الشمس ، على اغصان الاجرسترمية الهندية استقرت
الزيزان ، ورقشت المساء بصوتها . حتى هذا الصوت سرعان ما خبا في
هدأة المساء . لكن المسيحيين الثلاثة لم يرجعوا . فيما كان يتبلغ لقيمات
عشائه ، تناهت الى سمعه اصوات الأطفال الواهنة ، من بعيد ، في عماء
الليل ، تدفقت اشعة القمر وهاجة ، عبر القضبان ، فأيقظته من نومه . انتهى
المهرجان ، كانت الظلمة عميقه ، غليظة ، لكنه لم يدر ما اذا كان المسيحيون قد
رجعوا ام لا .

ايقظه الحرس في الصباح ، حدثوه بأن عليه ان يرتدى ملابسه ، وان
يخرج توا.

تسائل :

- ما الامر؟

ردًا على سؤاله عن وجهتهم اجاب الحرس بأنهم لا يعرفون عن ذلك شيئاً ،

غير ان هذه الساعة المبكرة قد اختيرت لتجنب حشود الفضوليين ، الذين سيجتمعون حتما للفرجة على الراهب المسيحي الأجنبي.

كان ثلاثة ساموراي في انتظاره، تقدموا بدورهم بالإيصال القائل بأن تلك هي رغبة الحاكم. تحلقوا أسييرهم، وانطلقوا معه، في صمت على درب الصباح.

لاحت نور التجار المسقوفة بالقش والغضار وأبوابها الموصدة في غبش الفجر كأنها جمع مكتئب من الكهول. على جانبي الطريق امتدت حقول الأرز، تكومت الأحطاب في كل مكان، اختلط عبق الغابات المنعش برائحة الفيمة، فنم خيشومي الراهب. كانت عملية شق طرق نجازاكى لاتزال تسير على قدم وساق، وفي ظلال الأبنية الجديدة ، رقد الشحانون ومن لا مأوى لهم، وقد التحفوا حسرا من القش.

- تلك ، اذن، هي رحلتك الأولى في نجازاكى؟

قالها أحد الساموراي ضاحكا، واضاف :

- تلال كثيرة، أليس كذلك؟

كانت هناك حقا تلال كثيرة. على بعضها تكاثفت أكواف من الغضار. صاح ديك، معلنا مقدم الفجر، تحت طنف الدور تناثرت القناديل ذابلة النور على الأرض، كبقايا وليمة البارحة.

عند قدمي التل، امتد البحر، مخاصرا شبه الجزيرة بкамملها، ترami الى البعيد متخما بالأعشاب كبحيرة حلبية، حين انقضعت غيمة الصباح مسفرة عن سماء صافية، فلاحت في خلفية المشهد تلال خفيفة.

امتدت قرب البحر أجمة صنوبر، حيث مدت عدة سلال، عكف عليها اربعة او خمسة ساموراي تخففوا من نعالهم، أقعوا يلتهمون شيئا لا ييبين ، وبينما

اشداقهم تلوك ما تقذفه اليها ايديهم ، تجمدت اعينهم المتوجهة فضولا على الراهب.

اسدل ستار ابيض في قلب الأجمة، وضعت مقاعد عالية هناك، اشار احد الساموراي إلى مقعد فيها، طلب من الراهب ان يقتعده. جاءت هذه الإيماع بالنسبة للراهب ، الذي توقع تحقيقا ، بمثابة مفاجأة.

ترامت اطراف الرمال الرمادية، ممتدة في رفق، حتى الخليج الصغير، فيما كانت السماء الملبدة بالغيوم تكسو البحر الكسول حلقة كستنائية. اعاد الصوت المكرود للأمواج، وهي تلطم الشاطئ ، الى ذاكرة الراهب موت موكيشى و ايشيزو. في ذلك اليوم ايضا، همى المطر الملتئف بالغمام، دونما انقطاع على البحر، في ذلك اليوم حلت النوارس فوق الأوتاد، كان البحر صامتا، لكانما شفه الاعياء، واصل الرب بدوره التزام الصمت لم يكن لديه حل بعد لهذه المشكلة، التي ما انفك تعاوده.

- أيها الأب!

رن صوت ، أتيا من خلفه، التفت ، فرأى رجلا مسترسل الشعر حتى العنق يبتسم، فيما راح يتلاعب بمرروحة ، كان ممتنعا ، مربع الوجه.

- آه

كان الصوت، لا الوجه، هو الذي ذكر الراهب بأن هذا الرجل هو المترجم، الذي تبادل الحديث، معه في الكوخ بالجزيرة.

- أتذكر ؟ كم يوما انقضى منذ لقائنا الاخير؟ ولكن يا لها من سعادة استشعرها في لقياك! السجن الذي تقيم به الآن مشيد حدثا، وليس بالمكان الذي يسوء المرء ان يحيا فيه ، وقبل ان يبني كان الدعاة المسيحيون يقيمون

دائماً في سجن سوزودا ، ب OEMORA ، وفي الأيام المطيرة يتسرّب الماء ،
وحيث تعصف الرياح ، تتخلّل السجن ، لقد أمضى السجناء وقتاً عصبياً
حقاً هناك.

- هل يأتي الحكم عما قريب؟

قالها الراهب مغيراً الموضوع، ليوقف هذر الآخر، لكن هذا الرفيق لطم
راحته بمروحته وواصل الحديث:

- أوه ، لا ، لن يأتي سيد شيكوجو. لكن ما رأيك فيه؟ ما رأيك في الحكم؟
- لقيت معاملة طيبة منه، تقدم إلى ثلاثة وجبات كل يوم، بل وقد زدت ببطء
لفراشي، وقد بدأت اعتقد أن جسمى قد خذل فؤادى ، بسبب هذا الضرب من
الحياة، واظن ان ذلك هو ما تنتظرون.

أشاح المترجم بوجهه شارداً، وقال :

- الحق أن ديوان الحكم أعد خطة لتدبير لقاء بينك وبين شخص سيصل
إلى هنا عما قريب، هو برتغالي الأصل مثلك، واعتقد أن حبل الحديث سيحصل
مديداً بينكمَا.

تطلع الراهب، واجماً، إلى عيني المترجم الصفراوين، لاحظ أن الابتسامة
انجابت سريعاً عن وجهه. خطر بياله اسم فيريرا. هكذا الأمر إذن. لقد جلب
هؤلاء الرفاق أخيراً فيريرا، كوسيلة لجعله يرتد عن دينه. لم يستشعر منذ وقت
طويل كراهية على وجه التقرير نحوه، لا شيء ، اللهم إلا الاشفاق، الذي
يستشعره أمرؤ في مكانة أسمى، حيال رجل تعس، لكن الآن وقد حلّت لحظة
المواجهة، فيما ي يبدو، تملكت رهبة جامعة ناصيته . خفق قلبه مضطرباً ، لم يدر
هو نفسه لم يحدث هذا كله.

تساءل المترجم:

- أتعلم من هو هذا الشخص ؟

- أجل ، أعلم.

- هذا جلى.

تلعبت ابتسامة خافتة، على شفتي المترجم، حرك مروحته، وهو يتطلع، في جدية، الى الشاطئ الرمادي وهناك في بعيد لاحت شخص ضئيلة لجمع من الرجال يدنو.

- هو بين هذا الجمع.

حرص الراهب على كتمان عذابه، لكنه انتصب واقفا، دونماوعى، دنا الجمع وئيدا من أجمة الصنوبر، الآن غدا بوسعيه ان يتعرف الاشخاص، كان اثنان من الساموراي ، وقد بدا انهما يقمان بالحراسة، يتصدران الجمع، خلفهما سار ثلاثة سجناء، تشدتهم معا سلسلة واحدة، ثم لاحت مونيكا متربحة، متغيرة ، خلف السجناء الثلاثة لمح الراهب شبح رفيقه جاربي.

صاحب المترجم، وقد بدت عليه دلائل الظفر

- أها ! أهذا ما كنت تتوقع ايها الأب ؟

سافرت عينا الراهب تتبعان جاربي، تلتقطان التفاصيل جميعها. ربما لم يكن جاربي يعلم هوية من ينتظره بالأجمة. كان - شأنه - يرتدي ملابس الفلاحين، تنتأ ساقاه اسفل ركبتيه منها ببشرتهما البيضاء، على نحو يثير الارتباك، سار وراء الآخرين لاهثا، يغدو السير، بقدر ما يطيق

لم يكن من قبيل المفاجأة للراهب ان يجد صديقه القديم بين يدي شانييه،

فمنذ هبطا شاطئ توبيخى، كانا مقتنيين بأن يوم اعتقالهما آت، بلا ريب
كان ما أراد الراهب معرفته هو الموضع الذى اعتقل به، وفيما يفكر الآن، وهو فى
قبضة أسرية.

قال:

- أود أن أحدث جاربى.
- تود محادثته. أليس كذلك؟ لكن النهار طويل وما زلنا فى الصباح، ما من
داع يدعونا للتعجل.

تشاءب المترجم عامدا، كأنما ليطيل عذاب الراهب، شرع فى ترطيب وجهه
بتحرير الهواء بمروره.

- بالنسبة ، أيها الأب ، حين تحدثت معك بالجزيرة كان ثمة شيئاً نسيت
سؤالك عنه؟

حدثنى ، هذه الرحمة التى يتصدق المسيحيون بها .. ما هي؟
غمغم الراهب، محدقا فى الآخر بعينيه الغائرتين:
- إنك تحاكي القط الذى يلهم بجرذ صغير، إنها لذة خسيسة تلك التى
 تستشعرها فى الحديث معى ، على هذا النحو ، خبرنى أين اعتقلتم جاربى
 وكيف ؟

- ليس من المباح لنا ان نكشف للسجناء، دونما سبب ، اسرار عمل ديوان
الحاكم.

فجأة، توقف الركب فوق الرمال الكابية، وشرع رجال الحاكم ينزلون كومة من
حشيات القش، كانت على ظهر إحدى الدواب، فى مؤخرة الركب.

تطلع المترجم الى المشهد، بابتسامة تشنى بالبهجة وقال:

- آه، أتعرف فيم سيسخدمون هذه الحشايا ؟

بدأ رجال الحكم يلفون الحشايا حول اجسام السجناء، تركوا جاربى وحده وشأنه، سرعان ما حاکى السجناء، برعوسهم المطلة من الحشايا ديدان السلال.

- الآن سيوضعون في زوارق وينقلون الى المياه الضحلة، والماء في هذا الخليج عميق حتى لتعجز عن رؤية القاع.

كانت المياه وئيدة الحركة تحدث الصوت المكرر ذاته، فيما هي تمضغ رمال الشاطئ، غطت السحب صفة السماء الرصاصية الدانية من البحر والبر.

- انظر هوذا احد رجال الحكم يحادث الأب جاربى.

بدا المترجم وكأنه يتزم بآغنية، او هكذا كان طربه يوحى، اضاف:

- ترى ماذا عساه يقول؟ ربما كان يقول شيئاً من هذا القبيل: إذا كنت أباً ملء جوانحك الرحمة المسيحية ، فعليك ان تشفع على هؤلاء التعساء الثلاثة، الذين جلببوا القش، لا ينبغى ان تقف مكتوف اليدين، وتكتفى بمشاهدتهم ، وهم يلقون حتفهم!

الآن أدرك الراهب حق الإدراك ما الذي يرمى اليه المترجم، هز غضب جامع كيانه كله، كدفقة ريح عاصفة. لو انه لم يكن راهبا لما تورع عن لى عنق هذا الرجل.

- أما الحكم فيقول إنه إذا ارتدى الأب جاربى ، طيب، باختصار لن يلقى الثلاثة مصرعهم، على اية حال فقد صبأ هؤلاء التعساء الثلاثة بالفعل، أمس، في ديوان الحكم ، دهسوا الأيقونة.

دهسوا.. ومع ذلك فهذه القسوة.. حتى الان.

جمجم الراهب في حديثه، لكن الكلمات خانته.

- ليست هذه الأسماك الصغيرة هي طريدتنا، ففي الجزر القريبة من الساحل لايزال هناك الكثيرون من الفلاحين، الذين أبقوا على ولائهم للمسيحية، ونحن نسعى وراء ارتداد الآباء ليكونوا قدوة لهؤلاء.

«هبا حياة نقية، امنع الأمان لخطانا».

حاول الراهب أن يرتل «السلام لك يا مريم المقدسة يانجمة البحر» لكن كلمات الصلاة لم تتبعت، وإنما قفزت إلى ذاكرته في موضعها صورة الزيزان، ترقش المساء بصوتها، قابعة على أغصان الاجرسترمية الهندية، خط الدم المسود، الممتد على أرض الفناء، تحت الشمس الوهاجة.

لقد هبط هذه الأرض ليهب حياته للناس، لكن اليابانيين هم الذين يهبون حياته له الآن واحداً إثر الآخر، ماذا عساه يصنع؟ كان ممكناً، بحسب المذهب الذي تفقه فيه، حتى الآن، أن يصدر حكماً على أعمال بعينها، فيبين الصواب من الخطأ، والخبيث من الطيب، لو ان جاري هز رأسه رافضاً، فإن هؤلاء المسيحيين الثلاثة سيشقون طريقهم إلى قاع الخليج، كالأحجار، أما إذا استسلم لأفانيين أغاوا رجال الحكم، فلن يعني ذلك إلا التخلّى عن عمره بأسره، ماذا عساه يصنع؟

- أى رد يطرحه هذا الجاري؟ قيل لى إن أول شيء في المسيحية هو الرحمة وإن الله هو الرحمة ذاتها.. اوه.. انظر إلى القارب!

فجأة.. تعثر اثنان من المسيحيين الثلاثة في اندفاعهما إلى الإمام، لكانما كانا يلوذان بالهرب، لكن رجال الحكم كانوا يدفعونهما دفعاً، فيهرعان إلى الانطلاق، حتى سقطا، وتمدداً على الرمل، وحدها مونيكا، التي بدت كإحدى

ديدان السلال، وقفت تحدق في البحر الساجي. انبعث في فؤاد الراهب عبق ثمرة الخيار، التي انتزعتها من صدرها، ومنحتها اياه، وتردد صوتها الضاحك :

- ارتد! ارتد!

صرخ بالكلمات في قرارة فؤاده مناديا جاربي، الذي كان يصفى لرجال الحكم، وقد أولى ظهره للراهب.

- ارتد ! لا بد ان ترتد!

احس بالعرق ينحدر على جبينه، اغمض عينيه، ثم اشاح بوجهه عن المشهد، الذي سيصافح ناظريه حين يفتحهما، وان ادرك اي جبن شاب ما صدر عنه.

صامت انت، حتى في هذه اللحظة تتلزم الصمت؟ حين فتح عينيه، كانت ديدان السلال الثلاث تواجه الزورق، ورجال الحكم يدفعونها في خشونة دفعا.

سأرتد سأرتد، ارتفعت الكلمات حتى بلغت حلقه، لكنه كظم انفعاليه، حاول منع نفسه من التلفظ بها عاليا، الان تبع اثنان من رجال الحكم، يحملان الحراب السجناء ، رفعا اطراف ثوبيهما حتى الخصر، استقلوا الزورق، الذي رجرجه الأمواج، فيما كان ينطلق مغادرا الشاطئ ..

ثمة وقت لايزال ! لا تنسب هذا كله لجاربي ولى.. هذه المسئولية عليك وحدك الاضطلاع بها. لكن جاربي كان قد اندفع، واثبا الى الامام، رافعا كلتا يديه، انطلق مغادرا الشاطئ الى رحاب البحر، ناثرا سحبا من الرذاذ، دنا من القارب وصاح بشيء لا يبين ، مواصلا السباحة.

- إلهي استجب دعانا..!

لم يشب الصوت عتاب ، ولا غضب . خبا ، فيما الرأس الفاحم يغوص ، وسط الأمواج.

- إلهي استجب دعانا!

انحنى رجلًا الحاكم على حافة القارب، اغرياً في الضحك، حتى بدت نواجذهما، راح احدهما ينقل رمحه من يد لأخرى، ساخرًا من جاري، الذي حاول الاقتراب من القارب، لكن الرأس ضاع في اللجة، وحمد الصوت، عاود الظهور فجأة، كمزقة من نهاية سوداء، تلطم الأمواج وهن الصوت عن ذى قبل، لكنه تردد هاتقا بشيء لا يبين مرارا وتكرارا.

نصب أحد رجال الحاكم مسيحيًا عند حافة القارب، دفعه بزوج الرمح دفعة قوية، فسقط الشبح الملتف بالقش ، كالدمية ، في البحر ، واحتجب عن العيان، أخيراً ابتلع البحر مونيكا. وحده رأس جاري، الذي لاح كمزقة صوف وسط حطام زورق ، طفا لبعض الوقت فوق سطح الماء ، حتى غطته الأمواج القادمة من القارب.

- أمر رهيب. أيا كان عدد المرات التي يشاهده فيها المرء، يظل رهيبا. قالها المترجم، منبعثاً من مقعده ، ثم فجأة انشق مرتدًا إلى الراهب.. والمقت يتوجه في عينيه ، اضاف:

- أيها الأب هل فكرت في العذاب الذي أوقعته بالعديد من الفلاحين، بسبب حلم يراودك، لا شيء إلا لأنك تريد فرض حلمك الأناني على اليابان.. تطلع هوذا الدم يتدفق من جديد ، دم أولئك الجهلاء، يتدفق مرة أخرى.

استطرد ، وكأنما يرغب في بصدق الكلمات:

- كان جاري على الأقل طاهرا، أما أنت.. أنت.. أوهى الناس اراده، لست جديرا بلقب أب.

أيها القنديل، وداعا ، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشنل يدك.

ايه القنديل ، وداعا، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشنل يدك.

انتهى المهرجان لكن الاطفال كانوا في بعيد لا يزالون على غنائهم، كانوا في دور نجازاكى يهبون الشحاذين وابناء السبيل الآن ألوانا شتى من الخضر، ترحا على ارواح الموتى، كانت اللاجرسترمية الهندية كعهدها أبدا ، والزيزان عاكفة على انشودتها اليومية، لكن هذه الاوصوات راحت تتخافت شيئا فشيئا.

- كيف حاله؟

قالها احد رجال الحاكم، خلال جولته اليومية.

- كعهده يقتعد الأرض، محدقا في الحائط سحابة نهاره.

رد الحارس خافض الصوت، مشيرا الى الزنزانة، التي أودع الراهب بها.

تطلع رجل الحاكم، عبر النافذة ذات القضبان، الى الراهب الجالس على الأرض، تحت اشعة الشمس، موليا النافذة ظهره، كان يقضى يومه مواجهها الجدار، يحدق في البحر المظلم، ورأس جاربي الفاحم الصغير طاف على سطحه، الآن يغوص المسيحيون الثلاثة كالفقاعات الى القاع، ملتفين بالقش.

حين يهز رأسه، ين稼ب ما يرى، لكنه حين يغمض عينيه، يعود المشهد، عنيدا ليرتسم خلف اجفانه كرة اخرى.

قال المترجم، صادرا عن مقعده: «انت اوهى الناس اراده، لست جديرا بلقب أب» عجز عن انقاد المسيحيين، لم يستطع ، شأن جاربي ان ينطلق وراءهم حتى تغيب الامواج، كان اشفاقه عليهم جارفا، لكن الاشفاق ليس عملا، لم يكن حبا، فالاشفاق ، شأن العاطفة لا يعلو ان يكون نوعا من الغريزة،

لقد تعلم هذا قديما، فيما كان يقتعد مقاعد الدرس الصلبة بالمعهد الديني، لكنها
في ذلك الوقت لم تكن إلا معرفة نظرية

تطلع! تطلع! هوذا الدم يتدفق لأجلك، دم الفلاحين يتدفق منسوبا على
الأرض.

ثم استمر خيط الدم متطاولا ، في حديقة السجن، التي عمها لهب الشمس.
كان المترجم قد قال إن حلم المبشرين الأناني هو الذي سفع خيط الدم هذا،
وقارن سيد شيكوجو هذا الحلم الأناني بالحب المفرط تبديه امرأة قبيحة، كان قد
قال إن الحب الملحم الذي تبديه هو وقر، لا طاقة للرجل باحتماله.

- مع ذلك..

تماوج امام عينيه محييا المترجم الباسم، ووجه سيد شيكوجو الريان، الممتلىء،
أحدهما فوق الآخر.

- لقد هبطت هذه الأرض لتهب حياتك لهم، لكن الحق انهم يهبون حياتهم
من أجلك.

تعمق الصوت الضاحك المفعم ازدراة، ناغرا في جراح الراهن كاءلا، هز
رأسه في وهن لا ، ليس من اجله حاق ال�لاك طويلا بالفلاحين ، لقد اختاروا
الموت لأنفسهم. لأن الايمان ملا قلوبهم ، لكن رده ما عاد يملك القوة ليلاتهم
جراحه.

على هذا النحو، كرت الايام، احدهما في اعقاب الآخر، بين اغصان
اللاجرستمية الهندية، تواصل صوت الزيزان الخالي من الحياة ، كعهد ابدا.
- كيف حاله؟

قالها احد رجال الحكم، خلال جولته اليومية.

- كعده ، يقعد الارض، مدققا في الحائط ، سحابة نهاره.

رد الحارس ، خافض الصوت، مشيرا الى الزنزانة.

- لدى تعليمات من الحاكم بالحضور، وتفقدجرى الأمور، كل شيء يمضي وفق خطة سيد شيكوجو.

بعد رجل الحاكم وجهه عن القضبان، تلاعبت ابتسامة رضا على شفتيه، كذلك التي تعلو شفتي طبيب يتفقد تقدم احد مرضاه.

الآن انتهى العيد، ساد الهدوء شوارع نجازاكى ، فى نهاية الشهر يحتفل بيوم لصلة الشكر، ويقدم كبار رجال القرى من نجازاكى واودرا كامي صناديق ملئى بالأرز الناضج مبكرا الى ديوان الحاكم. فى الفاتح من اغسطس، يتعين على كل مسئول ومندوب بكل مدينة ان يمثل ، مرتديا ملابس التشريف البيضاء.. بين يدى الحاكم .

طلع البدر وئدا ، ردت البومة والقمرية احداهما على الأخرى، فى الأجمة الواقعه وراء السجن، فى انشودة الليل . عاليًا فوق الأشجار سبع البدر، فى حمرة مخيفة، فيما هو ينسدل من قلب السحب السوداء ، ثم يلجهها كرة اخرى، تهams الكهول متخففين من ان العام المقبل قد تأتى ريحه بما لا تشتهى سفن الناس .

الثالث عشر من اغسطس ، فى نور نجازاكى أعد الناس سلطة السمك ، وطهوا البطاطا الحلوة والبقول ، فى هذا اليوم قدم العاملون بالديوان للحاكم اسماكاً وكعكاً ، فقدم لهم بدوره الساكي والحساء والزلابية .

عكف الحرس ، فى تلك الليلة ، على الساكي ، حتى وقت متأخر ، تناهت الأصوات الخشنة ورنين قرع الكنوس دائبة إلى مسامع الراهب ، أقعى على

الأرض ، وكتفاه المتهدلتان تستحملان فى سنا القمر الفضى ، الذى تخلل قضبان سجنه ، انعكس ظل شبحه الذى على الحائط ، بين الحين والآخر ، ينتفض لسماع سقسقة صرصور ، وسط الأشجار ، أغمض عينيه الفائزتين فى محりهما ، مستطيبا الظلمة التى ضمته فى رحابها ، فى هذا الليل ، حين يغرق من يحبهم جميعا فى نوم عميق ، احترم صدره ألم غامر ، فكر فى ليل آخر ، نعم، اقتعد رجل أرض حديقة الجسمانية الكابية ، التى تشربت حر النهار كله ، وحيداً، بعيداً عن حواريه الرقادين ، وقال «روحى حزينة حتى الموت» وغدا عرقه يحامى قطرات من دم . كان ذلك هو المحيا الذى تراعى للراهب ، أطل مئات المرات فى أحلامه ، ولكن لم ييد الوجه العارق المضنى نائيا الآن فحسب ؟ لكنه الليلة ركز كل انتباهه على التعبير ، الذى وسم الوجنتين الناحلتين

أترى استشعر ذلك الرجل بدوره فى تلك الليلة صمت الرب ؟ أترى ارتجف بدوره فرقاً ؟ لم يكن راغباً فى الظن بذلك ، مع ذلك فقد انبعثت هذه الفكرة ناهضة فى صدره ، حاول ألا يصفى للصوت الذى يحدثه بذلك ، هز رأسه مهتاجاً مرتين أو ثلاثة ، يا للبحر المطير الذى غاص فيه موكيشى و ايشيزو موثقين إلى الأوتاد ! يا للبحر الذى تابع جاربى القارب الصغير على صفحاته وجال مهتاجاً ثم خبا طافياً مثلما قطعة خشب يحملها التيار ! يا للبحر الذى هوت فيه تلك الأجساد الملتقة بالقش ! امتد هذا البحر ، بلا انتهاء ملتفاً بالحزن . طوال هذا الوقت ، التزم الرب فوق البحر صمته ، الذى لا هوادة فيه «إيلى ، إيلى لماذا أرقلتني !» مع ذكرى البحر الكابى ، اندلعت هذه الكلمات فجأة فى وعيه «إيلى ، إيلى ، لماذا أرقلتني !» إنها الساعة الثالثة من يوم الجمعة ذاك ، ومن فوق الصليب دوى ذلك الصوت نحو سماء تحجبت بالظلمة ، كان الراهب يعتقد دائماً أن هذه الكلمات صلاة رتلها الرجل ، لا أنها انبعثت ازاء صمت الرب

أشمة إله حقاً لئن لم يكن هناك إله ، فكم يغدو مضحكاً النحو الذي أنفق عليه نصف عمره ، يجوب بحاراً ممتدة بلا انتهاء ، ليهبط هذه الجزيرة العصية ، ويغرس البنور الصغيرة في تربتها ، لكم تصبح مضحكة حياة الأعور ، الذي لقى حتفه ، فيما الزيزان تطلق العنان لصوتها ، في وضع النهار ، كم تغدو مثيرة للسخرية حياة جاري ، الذي سبع وراء المسيحيين ، المدددين على سطح ذلك القارب الصغير في مواجهة الحائط ، ندت عن الراهب ضحكة عالية

- ما الذي يثير ضحكك أيها الأب ؟

خدمت أصوات الحرس المنكرة في سكرهم ، دنا أحدهم ، من الباب ، وطرح هذا السؤال

رغم ذلك ، فقد استرد الراهب روعه ، حينما اشرقت الشمس ، واخترفت أشعتها العفية قضبان السجن ، فأفلت من سطوة الوحدة ، التي سيطرت عليه البارحة ، ومدد قدميه ، وأراح رأسه على الجدار ، وتمتم بكلمات من المزامير ، في صوت أسيف « ثابت قلبي يا الله ثابت قلبي أغنى وأرني . استيقظ يامجي ، استيقظي يا ربب ويا عود أنا استيقظ سحراً ». في طفوته ، كانت هذه الكلمات تتبع في ذهنه دائمًا ، حين يرقب الريح في هبوبها ، عبر زرقة السماء ، وخلل الأشجار ، لكن ذلك كان في زمان لم يكن الرب فيه موضوعاً للخوف والاضطراب ، وإنما كان دانياً من الأرض يهب التناغم وفرحة الحياة

بين الحين والآخر ، كان رجال الحكم والحرس يتطلعون إليه عبر القضبان ، وقد توهجت عيونهم فضولاً ، لكن الراهب ما عاد يكتثر ، حتى بالنظر إليهم ، وفي بعض الأحيان كان يأبى أن يمس الوجبات الثلاث التي تقدم له

الآن أقبل شهر سبتمبر . ذات أصيل طلق النسيم ، زاره المترجم ، على
غير انتظار

تحدى بطريقته المألوفة ، التي تداخلها روح المداعبة ، متلاعباً بمروره ،
وقال :

- أود أن تقابل اليوم شخصاً ، لا ، لا ، ليس الحاكم ، ولا من رجاله ، وإنما
هو شخص أحسب أنك ترغب في لقائه
ظل الراهب عاكفاً على صمته ، تجمدت عيناه الخاليتان من الحياة على
الآخر ، كان يذكر بجلاء الكلمات التي قالها له ، في مناسبة أخرى ، لكنه لم
يستشعر كرماً له ، ولا غضباً منه ، كان أكثر اعياء ، حتى من أن يستشعر
الكره .

مضى المترجم يثرثر ، بابتسامته الباهتة المعهودة :

- سمعت أنك لا تتناول الكثير من الطعام ، من الأفضل ألا تمنع التفكير على
هذا النحو .

حينما فرغ من قوله هذا ، أمال رأسه ، وراح يذرع المكان جيئة وذهابا
قال :

- ما الذي يعطى هذه المحفة ، لقد حان وقت وصولها ؟

لكن الراهب كان قد فقد اهتمامه بهوية من سيقابل ، لم ييد منه إلا جمود
عينيه على شبع المترجم ، الذي لا ينوي عن الحركة
- الآن تناهت أصوات حملة المحفة ، عند مدخل السجن ، كانوا
يحاودون المترجم .

- أيها الأب ، هيا بنا !

انتصب الرهب واقفاً ، ففي صمت ، شق طريقه إلى الخارج ، فاترا ، وئدا
أعملت أشعة الشمس أستتها في عينيه ، احمرت حدقتاه واصفرتا اعياء ،
وقف حاملا المحفة ، لا يسترهما إلا قماش ، التف حول خصريهما ، يحملان
المحفة على كاهليهما ، ويحدقان في وجوم نحوه ، غمغما فيما كان الراهب يدلّف
إلى المحفة :

- لكم هو ثقيل ! كم هو ضخم !

اسدوا ستار المحفة ، لتجنب فضول المارة ، وحتى لا يرى شيئاً مما يجري
في الطريق . تناهت إلى مسامعه أنواع الأصوات كافة ، صراغ الأطفال ، رنين
أجراس الراهبان ، أصوات البناء بين الحين والآخر ، كانت أشعة الشمس الغاربة
تحترق الستار ، وتظلم وجهه ، لكن الصوت لم يكن هو وحده الذي ينسل إليه ،
وانما أضيفت إليه أنواع الروائع كافة ، مناسبة إلى حيث كان ، عبق الأشجار
والطين ، رائحة الدجاج ، الأبقار ، الجياد ، أغمض عينيه هنيهة ، ضم إلى صدره
حياة أولئك الناس الذين يحيطون به ، ثم فجأة غمر صدره توق إلى محادثة
الآخرين ، إلى أن يكون كالآخرين ، أن يسمع حديث الآخرين ، أن يلقي بنفسه في
خضم حياة الناس ، نعم ، لقد ضاق بهذا ذرعا .. هذا الاختباء في كوخ الطهاب
هذا ، ذلك التجوال عبر الجبال في ذعر من مطارديه ، رؤية المسيحيين يذبحون كل
يوم أمام عينيه ، لم تعد لديه بعد القوة لاحتمال هذا كله مع ذلك .. «ملء قلبك ،
بجماع روحك ، بكل عقلك ، بكل قوتك ..» كان هذا هو القسم الذي أقسمه ،
ليصبح راهباً ، من أجل أمر واحد ، أمر واحد فحسب .

دلت هذه الأصوات وحدها على أنهم ولدوا المدينة ، قبل ذلك كان ما يتناهى إلى
سمعيه هو قوقة الدجاج وخوار الأبقار ، أما الآن فقد اخترق الستار وقع الأقدام

التي لا تكل ، وتناثي إلى حيث جلس ... أصوات الباعة والمشترين الصارخة ،
انطلاق العربات وأصوات المشاجرين الصاكرة

لم يكن يعنيه الآن إلى أين يمضي أو من سيقابل ، فكائناً من كان ، ستطرح
الأسئلة المعهودة بعينها ، ويتوالى التحقيق ذاته عن عمله . وما التحقيق إلا أمر
شكلى ، فشأن هيرليوس حين واجهه المسيح ، لم يكن الرد ليعني هؤلاء الناس فى
كثير أو قليل ، ثم لماذا رفض سيد شيكوجو قتله وحده وتركه على قيد الحياة
دون أن يطلق سراحه ؟ أياً كان الأمر فإن خوض هذا العباب يبعث المضيق ،
ويثير القلق

- ها قد وصلنا

أزاح المترجم العرق بكفه ، أوقف المحفة ، ورفع السجف . دلف الراهب إلى
الخارج ، فلطمـت أشـعة الشـمس الغـاربة عـينـيه فـجـأـة ، رـأـى رـجـالـ الحـرسـ الذين
لا زـمـوهـ فـي السـجـنـ أـمـامـهـ ، لـرـبـماـ صـحـبـواـ هـذـاـ الرـجـلـ خـوفـاـ مـنـ انـطـلـقـهـ وـمـحاـولـهـ
الهـربـ خـلالـ الرـحـلـةـ

انتصبـتـ ، فـىـ أعلىـ درـجـ ، بـوـابـةـ شـامـخـةـ ، وـمـنـ خـلـفـهـ لـاحـ معـبدـ صـغـيرـ ، يـسـبـحـ
فـىـ سـنـاـ الشـمـسـ الـراـحـلـةـ ، وـقـدـ لـاحـتـ خـلـفـهـ جـبـالـ كـسـتـائـيـةـ وـصـخـورـ تـرـامـىـ إـلـىـ
الـبـعـيدـ ... دـاخـلـ الـمـعـبدـ الـمـوـحـشـ الـمـعـتمـ تـبـخـتـرـ دـيـكـانـ أـوـ ثـلـاثـةـ ، فـىـ صـلـفـ ، عـبـرـ
أـرـجـاءـ الـمـكـانـ ، أـقـبـلـ كـاهـنـ شـابـ مـتـطلـعاـ إـلـىـ الـرـاهـبـ بـعـينـينـ تـتـالـقـانـ مـقـتاـ ، اـحـتجـبـ
عـنـ الـأـنـظـارـ ، دـونـ أـنـ تـنـدـ عـنـهـ كـلـمـةـ تـحـيةـ .. حـتـىـ لـلـمـتـرـجـمـ

- لا يكن الكهنة لكم ودا ، أنتم معاشر الآباء

قالـهـ الـمـتـرـجـمـ ، وـقـدـ وـشـىـ صـوـتـهـ بـبـهـجـةـ ، فـيـمـاـ كـانـ يـعـتـقـدـ الـأـرـضـ ، وـيـتـطـلـعـ إـلـىـ
الـحـديـقـةـ . وـأـضـافـ :

- ليس الجلوس وحيداً طيلة النهار ، محدقاً في الحائط ، وغارقاً في التفكير إلا سما تتجربه ، كف عن هذا الهراء ، فلا جدوى من إثارة متاعب لا طائل من ورائها !

لكن الراهب ، كالمعتاد ، لم يعر مضايقاته انتباهاً ، كان ماشت تفكيره هو أنه اشتم فجأة في هذا المعبد ، الذي يحترق فيه البخور ، وتفوح منه رائحة الطعام الياباني ، رائحة غريبة ، وسط هذا كله ، كانت رائحة لحم .. اللحم الذي أجبر طويلاً على الاقلاع عن تناوله ، فاكتسب حساسية بالغة نحو أدنى رائحة له

تناهى إلى سمعه ، من بعيد ، وقع أقدام ، كان أحدهم يدنو ، عبر الممر الممتد

- هل خمنت من الذي ستلقاه ؟

تصلب محيا الراهب ، هذه المرة ، للمرة الأولى أوماً مجيئاً ، أحس بركتبيه تخونانه ، ترتعدان نعم ، كان يعلم أنه يوماً ما لابد له أن يلتقي هذا الرجل ، لكنه لم يظن أبداً أنهما سيلتقيان في مكان كهذا

- طيب ، حان وقت لقائكم

قالها المترجم ، بفرحة طاغية ، وهو يرقب شبح الراهب المرتجف . أضاف

- هذا هو أمر الحاكم

- إينوى ؟

- نعم ، والآخر ، يود أن يراك بيوره

أقبل فيريرا ، في أعقاب كاهن عجوز ، مرتدية كيمونو أسود اللون ، منكس العينين ، كان الراهب القصير الحريم ، الذي نفح صدره منتعشًا ، في ثقة ،

يؤكـد اذـعـان فـيـرـيرـا ، الـذـى أـوـتـى بـسـطـة فـى الـبـدـن ، وـبـدا بـعـيـنـيـه المـنـكـسـتـين
كـحـيـوـانـ هـائـل ، يـقـادـ منـ خـطـمـهـ بـحـبـل .

وقف الكاهن العجوز ، نظر فـيـرـيرـا إـلـى الـرـاهـب ، دونـ أـنـ تـنـدـ عنـهـ كـلـمةـ وـاحـدةـ ،
اقـتـعـدـ الـأـرـضـ فـى رـكـنـ أـنـارـتـهـ الشـمـسـ الـغـارـبـةـ ، سـادـ صـمـتـ قـاتـلـ هـنـيـهـ .

- أـبـتـ !

أخـيرـاً ، تـحدـثـ روـدـريـجـيزـ ، بـصـوتـ رـاعـشـ :

- أـبـتـ !

رفع فـيـرـيرـا رـأـسـهـ المـنـكـسـ قـلـيـلاًـ ، وأـلـقـىـ نـظـرـةـ عـلـىـ الـرـاهـبـ ، للـحظـةـ لـمـ عـتـفـ فـىـ
عـيـنـيـهـ اـبـتـسـامـةـ مـسـتـخـزـيـةـ وـشـعـورـ عـابـرـ بـالـعـارـ ، لـكـنـهـ مـاـ لـبـثـ أـنـ حـدـجـ الـآـخـرـ ، عـامـدـاًـ
فـىـ تـحدـ ، بـعـيـنـيـنـ لـاـ تـعـرـفـانـ الـانـكـسـارـ

ضـاعـ الـكـلـامـ مـنـ روـدـريـجـيزـ ، حـيـنـماـ اـسـتـرـدـ وـعـيـهـ بـكـونـهـ رـاهـبـاًـ يـبـثـيـ بـهـذـاـ
المـوقـفـ ، كـانـ قـلـبـهـ أـكـثـرـ اـمـتـلـاءـ بـالـشـاعـرـ مـنـ أـنـ يـفـوهـ بـكـلمـةـ ، لـسـوـفـ يـبـدوـ كـلـ ماـ
يـقـولـهـ كـائـنـاـ هوـ كـذـابـ يـطـلقـهـ ، كـماـ لـمـ يـرـغـبـ فـىـ إـثـارـةـ الـفـضـولـ الـمـتـعـالـىـ ، الـذـىـ كـانـ
الـكـاهـنـ وـالـمـتـرـجـمـ يـرـقـبـانـ بـهـ المـوقـفـ ، وـهـمـاـ يـحـدـجـانـهـ بـنـظـرـاتـ لـاـ تـرـحـمـ . ضـارـبـتـ فـىـ
صـدـرـهـ الـشـاعـرـ كـافـةـ ... الـاـكـتـئـابـ ، الـغـضـبـ ، الـحـزـنـ ، وـالـمـقـتـ . صـاحـ فـىـ أـعـماـقـ
فـؤـادـهـ لـمـ يـبـدوـ مـحـيـاـكـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ ؟ لـسـتـ هـنـاـ لـإـدـانتـكـ ، لـسـتـ هـنـاـ لـأـصـدرـ
حـكـمـاـ عـلـيـكـ ، فـلـسـتـ بـأـفـضـلـ مـنـكـ . حـاـوـلـ أـنـ يـفـتـصـبـ اـبـتـسـامـةـ ، لـكـنـ دـمـعـةـ شـهـباءـ
هـمـتـ ، بـدـلاـ مـنـ الـاـبـتـسـامـةـ ، مـنـ عـيـنـيـهـ ، وـتـحدـرـتـ وـئـيدـةـ عـلـىـ خـدـهـ .

- أـبـتـاهـ ، بـعـدـ الـعـهـدـ بـلـقـائـنـاـ

أخـيرـاًـ شـقـ صـوتـ روـدـريـجـيزـ الـرـاجـفـ الصـمـتـ ، كـانـ يـدـرـكـ وـالـكـلـمـاتـ عـلـىـ
شـفـقـيـهـ لـأـتـزالـ ، كـمـ تـبـدوـ حـمـقـاءـ بـلـاـ مـعـنـىـ ، لـكـنـ شـيـئـاـ آـخـرـ لـمـ يـخـطـرـ بـيـالـهـ .

مع ذلك ، ظل فيريرا على صمته ، وبسمة التحدى تتلاعب على شفتيه ، كان الراهب يدرك حق الإدراك كيف يمكن لهذه الابتسامة الواهنة المستخرذية أن تنتحى ، مفسحة المجال لهذا التعبير المفعم بالتحدي ، وأنه كان يفهم ، راوده شعور بالرغبة في السقوط بموضعه ، مثل شجرة ذاوية

تحدى رو드리جيز ، لاهثاً على وجه التقريب ، بين مقاطع حديثه
– قل ... شيئاً ... إن كانت بك شفقة على ... فقل ... شيئاً !

أدرك فجأة ما الذي أراد أن يقوله ، بدأت كلمات غريبة ، كما لو كانت تتصاعد إلى حلقه . لقد اجتثت لحيتك ، كان هذا هو ما أراد أن يقوله ، لكنه لم يستطع فهم السر في أن مثل هذه المشاعر الغريبة قد عنت له ، تذكر أن فيريرا ، الذي عرفه مع جاربي في الأيام الخوالي ، كان يطلق لحية ضافية الطول ، كانت شيئاً يضفي على مظهره رقة ، تمازجها الجدية ، أما الآن فقد بدا جلد ذقنه وشفته العليا لاماً ، شعر الراهب بأن هذا الجزء من وجه فيريرا يشد عينيه . كان يعكس بشكل ما حسية رهيبة

قال فيريرا

– ما الذي يسعني قوله في هذا الموقف ؟

– إنك تخدع نفسك .

– أخدع نفسي ؟ كيف استطيع أن أفسر لك ذلك الجانب من ذاتي الذي لا يشبه خداع الذات ؟

نهض الراهب على ركبتيه ، حتى لا تفوته كلمة من الحديث الدائر بالبرتغالية ، وثبت بجاجتان أو ثلات من الأرض إلى الشرفة ، وهي تدف بأشنحتها
– أجهت هنا منذ وقت طويلاً ؟

- منذ حوالي عام ، فيما أظلن

- ما هذا المكان ؟

- معبد يدعى معبد «سايشوجي»

التفت اليهما الكاهن العجوز ، الذى كان يحدق أمامه ، مثل تمثال حجرى
لبوزا ، حينما سمع كلمة «سايشوجي»

- أودعت ، بدورى ، فى سجن بمكان ما من نجازاكى ، لست أدرى موقعه
على وجه الدقة

- أعرفه فى ضواحى المدينة

- ما الذى تفعله طوال اليوم يافيريرا ؟

- ارتسنت لحة من الالم على محيا فيريرا ، وهو يضع يده على ذقنه
الحلقة

تدخل المترجم هذه المرة ، ليتحدث باسم فيريرا

- يقضى سوانو المجل يومه عاكفاً على الكتابة

- أترجم بأمر من الحاكم كتاباً في الفلك

قالها فيريرا مسرعاً ، كما لو كان يرغب في إغلاق فم المترجم ، أضاف :

- نعم ، هذا هو ما أعكف عليه ، فلى بعض النفع ؛ إذ يستفيد مني أهل هذه
البلاد ، لدى اليابانيين إلمام وعارف من كل الألوان ، ولكن غريباً مثلى لا يزال
بوسعه أن يقدم يد المساعدة ، فيما يتعلق بالفلك والطب ، وهناك بالطبع في هذه
البلاد معرفة متميزة بالطب مستمدة من الصين ، لكنه مما له جداوله إضافة بعض

المعارف ، شأن الجراحة ، والشيء عينه ينطبق على الفلك ، ولهذا السبب طلبت من القائد الهولندي أن يعيينا منظاراً وبعض العدسات ، هكذا فلست بلا جدوى في هذه البلاد ، ويمقورى أداء بعض الخدمات ، أجل بمقدوري ذلك

حج الراهب فيريرا ، الذي واصل الحديث بإصرار ، لم يستطع فهم السر في أن الرجل استرسل فجأة في الحديث . مع ذلك ، فقد شعر ، بشكل ما ، أن بوسعي أن يفهم الدافع النفسي وراء تأكيده المستمر لكونه ذا نفع لهذه البلاد لم يكن فيريرا يخاطبه وحده ، فقد كان المترجم والكافن موجودين بدورهما ، وقد أرادهما فيريرا أن يسمعاه ، أضف إلى ذلك أنه واصل الحديث ليبرر وجوده في نظر نفسه «لست بلا جدوى في هذه البلاد» .

أحس بالأسف وهو ينظر إلى فيريرا ، نعم ، كانت الرغبة في أن يكون مفيداً للآخرين وأن يساعدهم ، هي الرغبة الوحيدة والحلم الذي لا ثانى له لرجل وهب نفسه للرهبنة ، فعزلة حياة الراهب لا تطبق مخالفتها ، إلا حين يتجرد من النفع للآخرين أدرك الراهب أن فيريرا لم يستطع ، حتى بعد رده ، أن يهرب من تركيبة النفسي القديم ، الذي وجده دائماً ، بدا مستميتاً في تمسكه بحلمه القديم بأن يساعد الآخرين ، تماماً كامرأة مخبولة تدفع بثديها إلى طفل ولد

غمغم روبيجيز

- أسعيد أنت ؟

- من ؟

- أنت !

اتقدت عينا فيريرا ، المفعمتان بالتحدي ، مرة أخرى ، وقال - في مفهوم السعادة تحتشد أنواع العناصر الموضوعية كافة

لم يكن هذا ما اعتدت أن تقوله ... ارتفعت هذه الكلمات إلى شفتي الراهب ،
لكنه قمعها ؛ فهو في النهاية لم يأت إلى هنا ليحاكم فيرييرا ، على رده وتخليه
عن رعيته ، لم تكن لديه رغبة في أن ينكاً ذلك الجرح الغائر ، تحت سطح ذهن
الآخر ، والذى حاول أن يخفيه

تحدث المترجم ، من مكانه بين الرجلين ، محققاً بخيث فى وجهيهما
- الأمر كذلك ، إنه يساعدنا نحن اليابانيين ، بل هو يحمل كذلك اسماء
يابانياً: سوانو شوان ، ويعكف على تأليف كتاب آخر ، يدور حول تفنيد تعاليم
المسيح وأظهار أخطار المسيحية ، وعنوانه باليابانية «جينجروكو»

فى هذه المرة لم يستطع فيرييرا المسارعة بإيقاف المترجم ، حول ناظريه
للدجاج ، الذى يدف بأجنبته ، محاولاً اكتساب مظهر من لم يسمع ما
قاله الآخر

واصل المترجم حديثه

- طالع الحكم المخطوط ، وأشار به ، ويقول إنه بديع التأليف ، كان ينبغي أن
تطلع عليه بنفسك ، فلديك وقت طويل في السجن
الآن أدرك الراهب بجلاء لم كان فيرييرا يتحدث مسرعاً ومتعجلاً عن ترجماته
في الفلك . فيرييرا ، الرجل الذى اضطر بأمر من سيد شيكوجو أن يجلس إلى
مكتبه كل يوم ، فيرييرا ... الذى كان يكتب أن هذه المسيحية ، التى وهبها عمره ،
كانت ديناً زائفاً . أحس بأن بمقدره أن يرى فيرييرا منحنياً .. وهو يعمل ريشته
في الورق .

قال روبيجيز :

- بالضراورة !

- ما الذى يتسم بالضراوة ؟

- ضار ، أسوأ من أى تعذيب ، لا أستطيع التفكير فيما هو أكثر خسدة
من هذا

فجأة لمح الراهب ، فيما كان فيريرا يحاول أن يشيح بوجهه ، دمعة شهباء
تطلق فى عينيه . الكيمونو اليابانى الاسود ! الشعر الكستنائي معقوضاً إلى
الخلف على الطريقة اليابانية !

الاسم : سوانو شوان . رغم ذلك فمازال هذا الرجل على قيد الحياة . يا الهى !
صامتا أنت لاتزال ، عاكفاً على صمت عميق مازلت فى حياة كهذه !
- سوانو شوان ، لم نأت بهذا الأب إلى هنا اليوم مجرد اجراء مناقشة
مستفيضة .

كان المترجم هو الذى انبرى للحديث ، التفت إلى الكاهن العجوز ،
الجالس كتمثال حجرى لبودا ، على الأرض ، التى انارتها أشعة الشمس الأفلة ،
وقال :

- ها ، إن الكاهن متنقل بالعمل بدوره ، انجز عملك سريعاً !
الآن بدا فيريرا وقد تجرد من روح القتال ، التى اعتصم بها قبلًا ، كانت
الدموع الشهباء لا تزال عالقة بأهدابه ، تواصل تألقها ، لكن الراهب خالجه شعور
بأن قوام هذا الرجل قد انكمش فجأة ، فبدأ ضئيلاً .

قال فيريرا بصوت متعجب :

- قيل لي بأن على دفعك إلى الردة ، انظر إلى هذا !
 وأشار بهدوء إلى أذنه ، حيث كان ثمة أثر لجرح ، كان أثراً بنياً ، كذلك الذى
تخلفه الحرق .

- هذا النوع من التعذيب يدعى بالحفرة ، ولعلك سمعت به ، فيقيدونك بحيث لا تستطيع تحريك يديك أو قدميك ، ثم تدلّى رأسك على عقب ، وتعلق في الحفرة

مد المترجم يديه ، كأنما داشر الفزع قلبه ، فشرع يدفع خطراً داهماً ، أخذته الرجفة لمجرد تذكرة ، قال

- هذه الفتحات تجترح خلف الآذان ، حتى لا تلقى حتفك على الفور ، فينساب الدم قطرة ، قطرة ، وقد ابتدع الحاكم إينوى هذا النوع من التعذيب تراعى محييا إينوى أمام الراهب ، الأذنان الكبيرتان ، البشرة الريانة ، والوجه اللحيم ارتسم أمام عينيه ذلك الوجه ، على نحو ما كان حينما راح إينوى يتلاعب بالقدح ، مديراً إياه بين يديه ، فيما هو يرتشف الماء الفاتر . هذا هو الوجه الذى تلاعبت على ملامحه ابتسامة ، تشي بالموافقة ، بينما كان الراهب يجادل دفاعاً عن موقفه . ولقد قيل بأنه بينما نزل العذاب بساحة رجل آخر ، جلس هيرودس يتناول العشاء ، على مائدة زانتها الزهور

واصل المترجم حديثه

- تأمل الأمر مليأً ، لعلك الراهب المسيحي الوحيد الذى بقى فى هذه البلاد ، الآن ها أنتذا قد وقعت بين أيدينا ، وما من أحد ينشر التعاليم بين الفلاحين ويلقنهم مذهبك ، ألسست تجد نفسك بلا جدوى؟

الآن ضاقت عينا المترجم فجأة ، لأن صوته ، مكتسباً نفمة رقيقة ، وهو يقول

- لقد سمعت ما قاله شوان ، إنه يترجم كتب الفلك والطب ، ويساعد المرضى ، ويعمل لصالح الآخرين ، فكر في هذا أيضاً . وكما يواصل الكاهن

العجز تذكير شوان ، فإن السير في درب الرحمة يعني أن تدع الذات ، لا ينبغي لأحد أن يكرث بجعل الآخرين يعتنقون دينه ، فمساعدة الآخرين هي درب بودا ولب تعاليم المسيحية ، عند هذه النقطة يصبح الدينان شيئاً واحداً ، ما جدوى إن كنت تسير في الطريق الحق أم لا ، إن سوانو يكتب هذا في مؤلفه حينما فرغ من حديثه ، تطلع إلى فيريرا ، مناشداً عنه

انصب سانا الشمس الأفلة كله على ظهر فيريرا المكتهل ، الناحل ، الذي كسته الاثواب اليابانية ، حدق الراهب في هذا الظهر النحيل ، وعبثا راح يبحث عن فيريرا ، الذي حظى بتوقيره ، في المعهد الديني بشبونة ، في الزمن الحالي . أما الآن فلم تراوده مشاعر الازدراء نحوه ، وإنما ملأ صدره الإشراق ، الذي يستشعره المرء نحو كائن ينبض بالحياة ، ويتوهج بها ، حين يفقد حياته وروحه

همس فيريرا ، في وهن ، خافض الصوت :

- طوال عشرين عاماً .. طوال عشرين عاماً ، كدحت في هذه البلاد ، خبرتها خيراً منك قال الراهب ، رافعا صوته ، في محاولة لتشجيع الآخر
- خلال هذه السنوات العشرين ، أنجزت عملاً رائعاً ، من موقعك كرئيس للإرسالية ، لقد طالعت ، بعظيم الاجلال ، الرسائل التي بعثت بها إلى رئاسة الجمعية

- طيب ، من يقف أمامك الآن هو شبح داعية عجوز ، ألحقت الدعوة الهزيمة به

- لا تهزم الدعوة أحداً ، وحين يغمرني الموت وإياك ، سيسقط داعية آخر مركباً في ماكاو ، ويهبط سراً بقعة ما من ساحل هذه الأرض .

تدخل المترجم ، مسرعاً

- يقيناً سيعتقل ، وحين يعتقل داعية جديد ، فإن الدم الياباني هو الذى يشتبه ، ما أكثر ما حدثك بأن اليابانيين هم الذين يلقون حتفهم ، من أجل حلمك الأناني ، لقد حان الوقت الذى ينبغى أن تدعونا فيه وشائنا

كرر فيريرا ، بصوت تعرى من الانفعال

- طوال عشرين عاماً ، كدحت فى هذه الارسالية ، والشيء الوحيد الذى أعرفه هو أن ديننا لا يضرب جنوره فى هذه الأرض
صاحب روديجيز ، بصوت عال ، هازأ رأسه

- ليس الأمر جذراً لم يضرب فى الأرض ، وإنما هو جذر يقتلع
لم تند حركة من فيريرا ، إزاء صيحة الراهب الصاكة ، ردّ خافض الرأس ،
كالدمية ، دونما انفعال

- هذه البلاد مستنقع ، سيأتى حين من الدهر تدرك ذلك بنفسك ، هذه البلاد
مستنقع مخيف على نحو يفوق ما يمكن أن يحلق إليه خيالك ، حينما تغرس
شجيرة فى هذا المستنقع ، فإن الجنور تشرع فى التحلل ، تشجب الأوراق ،
وتتنوى ، وقد غرسنا شجيرة المسيحية فى هذا المستنقع

- أتى على هذه الشجيرة حين من الدهر نمت فيه وازدهرت
- متى ؟

للمرة الأولى ، حَدَّجَ فيريرا الراهب بنظرة مباشرة ، فيما تلاعبت على
خديه الغائرين مطالع بسمة من يشفق على صغير ، لا يدرى من أمر
الدنيا شيئاً

- حين هبطت أنت هذه الأرض ، لأول مرة ، كانت الكنائس يشاد صرحها ،

في كل مكان ، والإيمان يضوع عطره كعبير الزهور في البكرة الندية ، واليابانيون يتسابقون للتعميد ، مثلاً احتشد اليهود عند نهر الأردن

- وماذا إذا افترضنا أن الرب ، الذي أمن به هؤلاء المسيحيون ، لم يكن إله

الذي تتحدث عنه التعاليم المسيحية

قالها فيريرا ، مغمضاً بالكلمات وئيداً ، وابتسمة الإشراق على حالها ،
تلعب ماتزال على شفتيه

استشعر الراهب غضباً يستعصى على الفهم ، متتصاعداً من أعماق فؤاده ،
شدّد قبضتيه ، بونما وعي ، وحدث نفسه يائساً : «تعقل ، لا تخدعنك شقشقة
اللسان هذه ، فالرجل المهزوم يستغل أى وسيلة لخداع النفس ، دفاعاً عن ذاته»

قال بصوت عال :

- إنك تنكر مالا سبيلاً إلى انكاره

- كلا ، على الاطلاق ، مما أمن به اليابانيون في هذا العهد لم يكن إلهنا ،
وإنما ربهم . لقد فشلنا طويلاً في إدراك هذا ، واعتقدنا جازمين أنهم أصبحوا
مسيحيين .

اقتعد فيريرا الأرض ، في إعياء ، انفتح ذيل الكيمونو ، الذي يرتديه ، كاشفاً
عن ساقين عاريتين ، متسختين ، كقصبتين من خشب ، أضاف

- لا أقول هذا دفاعاً عن نفسي ، ولا رغبة في إقناعك ، ففي اعتقادى أن أحداً
لن يصدق ما أقول ، فلن ترفض أنت وحدك تصديقى ، وإنما سيمتد هذا الرفض
إلى الدعاة في جوا وماكاو والدعاة الأوروبيين بأسرهم ، ورغم ذلك وبعد كدح دام
عشرين عاماً عرفت اليابانيين ، وأدركت أن جنور الشجيرة ، التي غرسناها ، قد
تحلت شيئاً فشيئاً ، ودون أن ندرك ذلك

- القديس فرانسيس كزافييه

اندفع رودريجيز مقاطعاً الآخر ، وقد عجز عن مواصلة السيطرة على نفسه

- القديس فرانسيس كزافييه لم تخطر بباله هذه الفكرة ، حينما هبط

أرض اليابان

أوما فيريرا برأسه

- حتى ذلك القديس أخفق في أن يلحظ هذا ، لكن اللفظ الذي استخدمه للإشارة إلى الرب هو «الله» لم يتحرج اليابانيون في تحريفه إلى «الهليو» «أى الشمس العظيمة» ذلك أنه بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا يعبدون الشمس لم يكن ثمة فارق بين اللفظين . ألم تقرأ الرسالة التي تحدث فيها كزافييه عن ذلك الخطأ ؟

- لو أن كزافييه أتيح له مترجم محنك ، لما حدث مثل هذا الخطأ الغريب والهامشى

- لا ، يبدو أنك لا تفهم ما أقول .

ارتسم الضيق عصبياً ، للمرة الأولى ، على صدغى فيريرا ، وهو يطرح هذا الرد ، وواصل حديثه

- لست تفهم شيئاً ، والجمع الذي أقبل إلى هذه البلدان ، ليرضى فضوله ، من أديرة جوا وماكاو باسم الدعوة ، لا يفهم شيئاً بيوره ، منذ البداية عمد هؤلاء اليابانيون ، الذي خلطوا بين الله والهليو ، إلى تحوير وتغيير إلها ، وشرعوا في خلق شيء مختلف ، حتى حين انجاب الخلط اللفظي ، استمر التحوير والتغيير ، بعيداً عن الأنظار ، وخلال فترة الدعوة المجيدة ، التي أشرت إليها ، لم يؤمن اليابانيون برب المسيحيين ، وإنما بتحريفهم لصورة هذا الرب

بيطء ، مضغ الراهب هذه الكلمات ، بين أسنانه :

- حوروا وغيروا هنا ، وخلقوا شيئاً مختلفاً ، بل لم يكن هنا أصلاً ؟

- لا ، فقد تغير رب المسيحيين ، في أذهان اليابانيين .

- ما هذا الذي تقول ؟

دفت الدجاجات ، التي كانت تتقرر الطعام في هدوء على الأرض العارية ، منطلقة نحو أحد الأركان لدى سمعها صيحة الراهب الصاكرة .

- ما أقوله أمر بسيط ، أنت وأمثالك لا ترون في التبشير إلا مظاهره ، ولا تضعون لهه موضع الاعتبار ، صحيح ، كما قلت ، أن الكنائس قد شيدت ، خلال السنوات العشرين ، التي أمضيتها كائحاً في كيوتو ، كيوشو ، شيوجو ، سينداي ، والمدن الأخرى ، كما أنشئت معاهد دينية ، في أريما وأزوسي ، وتنافس المسيحيون في إقبالهم على المسيحية ، وقد قلت لتوك إنه كان هناك مائتا ألف مسيحي ، وإن كان هذا الرقم متحفظاً ؛ فقد أتى حين من الدهر كان هناك أربعمائة ألف مسيحي

- ذلك أمر يبعث على الفخار

- فخار ؟ نعم ، ذلك إذا كان اليابانيون قد آمنوا بالرب الذي كرّزنا بتعاليمه ، ولكن اليابانيين لم يصلوا في الكنائس ، التي رفعنا عمارتها ، لرب المسيحيين ، لقد حوروا هذا الرب ، بما يتفق ونمط تفكيرهم ، على نحو ما كان يمكن أن يخطر لنا قط على بال . فإذا ما أسميت هذا إلهاً

نكس فيريرا عينيه ، وتجلجلت شفتيه ، كأنما عنّ له خاطر :

- لا ، ليس هذا إلها ، وإنما هو يحاكي فراشة طالها نسيج عنكبوت ، في البداية تبدو يقيناً كالفراشة ، ولكن في اليوم التالي لا يعود ثمة شبه يربطها

بالفراشة ، إلا الجناحان والجذع ، أى مظهرها الخارجي ، لقد فقدت جوهرها الحق ، وغدت هيكلًا ، لقد أصبح إلهاً في اليابان مثل تلك الفراشة ، التي طالها نسيج العنكبوت ، يدوم شكله الخارجي ، لكنه غدا بالفعل هيكلًا

- هراء ! لا أريد سماع شقشقة لسانك ، لم أمهث في اليابان قدر ما قضيت أنت على أرضها ، لكنني رأيت الشهداء بعيني هاتين

حجب الراهب وجهه براحتيه ، فأنساب صوته ، من خلال أصابعه

- بعيني هاتين رأيتم يلقون حتفهم ، وهم يتوجهون إيماناً

اصناعدت أمام عيني خياله ، باعثة الألم ، ذكرى البحر المحاصر بالمطر ، والوتدان الاسودان طافيان على سطحه وما كان بوسعي أيضاً أن ينسى الأعور ، الذي قتل في وضح النهار ، وارتسمت على صفحة ذهنه ، عميقه ، فلا تمحي ، صورة المرأة ، التي منحته الخيار ، وقد حولت إلى سلة ، أغرت في البحر ، إذا كان هؤلاء الناس لم يلقو حتفهم من أجل إيمانهم ، فأى تجديف بحق الانسان ليس ما يقوله فيريرا إلا محض افتراء

بجلاء ، وثقة بالنفس ، ومعتمدا الضغط على مخارج الحروف كافة ،

قال فيريرا

- لم يؤمنوا برب المسيحيين ، لم يقدر للبابانيين ، حتى اليوم ، أن يدركوا جوهر الرب ، ولن يدركوه أبداً

هبطت هذه الكلمات على قلب الراهب كثقل صخرة هائلة لا يتزحزح ، وبشيء من ذلك العنفوان ، الذي كان كامناً في قلبه ، حينما سمع لأول مرة في طفولته عن وجود الله

- ليس بمقدور اليابانيين أن يفكروا في إله مفارق للإنسان تماماً ، فهم لا يستطيعون التفكير في وجود ، يتجاوز ما هو إنساني .

- المسيحية والكنيسة حقيقة تتجاوز بلاد والبقاء كافة ، ولئن لم يكن الأمر كذلك فائي جدوى فيما تقوم به من دعوة ؟

- ما يتصوره اليابانيون هو إنسان بھي الطلعـة ، جلـيل المقام ... وهم يدعون هذا بالرب ، يطلقون اسم الرب على شيء يتمتع بنوعية الوجود ذاته ، الذي للإنسان ، لكن هذا ليس الرب ، الذي تكرز الكنيسة باسمه

- أهذا هو الأمر الوحيد ، الذي تعلمته من الأعوام العشرين ، التي انفقتها في هذه البلاد ؟ ! . أوما فيريرا موافقاً ، في شرود

- أجل ، هذا الأمر وحده ، وهكذا فقدت الارسالية معناها بالنسبة لي ، سريعاً تحلت الشجيرة ، التي جلبتها إلى هذا المستنقع حتى الجنور ، وقدر لي ألا ألحظ هذا طويلاً ، وألا أعرفه .

سيطر شعور مرير بالاستسلام ، يستعصى على محاولة الكبح ، على الراهب ، الذي سمعه كلمات فيريرا الأخيرة ، وهن سنا الغروب ، استطالت الظلال شيئاً فشيئاً على الأرض ، وتناهى إلى سمع الراهب من بعيد قرع الطبول الخشبية المكروه ، وصوت الكهنة يرثلون آيات حزينة النغم ، همس في مواجهة فيريرا

- نعم ، لست فيريرا الذي عرفته .

رد فيريرا ، منكس العينين :

- حقاً لست فيريرا ، وإنما أنا رجل تلقى من الحكم لقب واسم سوانو شوان ، ولم أتلق الاسم وحده ، وإنما زوجة وأطفال الرجل ، الذي قضى نحبه قتيلاً

حلت ساعة الدب . مرة أخرى ، عاد الراهب إلى المحفة ، التف به رجال الحاكم والحرس ، انطلق الركب على الطريق ، ادلهم الليل ، فما من داع يدعو للقلق إزاء المارة الفضوليين ، الذين يتطلعون إلى المحفة . كان رجال الحاكم قد سمحوا له برفع السجف ، ولو أنه شاء لكان بوسعيه أن يلوذ بالهرب ، لكنه لم يعد يشعر برغبة في القيام بذلك . كان الطريق ضيقاً ، أفعوانى الالتواء ، ورغم أن الحرس حدثوه بأنهم لا يزالون في المدينة ، فقد كانت الدور الريفية لا تزال متراكمة تحاكى الأكواخ ، حينما تجاوزوها ، لاحت هنا وهناك أسوار المعابد ، متراحمية الأطراف ، والأجمات ملتفة الأشجار ، فلم تكن نجازاً قد اكتسبت بعد معالم المدينة . علا القمر خلف الأشجار المعتمة ، وبدا كأنه يشق طريقه أبداً ، مع

المحفة نحو الغرب

علا القمر خلف الأشجار المعتمة ، وبدا كأنه يشق طريقه أبداً ، مع المحفة ،
نحو الغرب

تساول رجل الحاكم ، الذي مضى بجواهه إلى جوار المحفة ، في رقة
- أتشعر بتحسن الآن ؟

حينما بلغوا السجن ، تتمم الراهب بكلمة شكر للحرس ولرجال الحاكم ، ثم دلف إلى الداخل ، سمع صوت المزلاج الكثيف يرتج خلفه . انقضى وقت طويل منذ كان هنا ، وما هوذا قد عاد ، بدا كما لو أن دهراً انقضى ، منذ سمع هديل القمرية المتقطع في الأجمة ، كان هذا اليوم الواحد طويلاً ، ومؤلاً ، بالمقارنة بالأيام العشرة السابقة ، التي قضتها بالسجن

لم يكن لقاوه بغيريرا مثار دهشة ، راح يفكر في ملامح العجوز ونهجه ، وما طرأ من تغيير عليه ، كان هذا شيئاً توقعه ، منذ هبط هذه الأرض ، لم يكن هيكل

العجوز النا حال ، فيما هو يدب عبر المشى مقبلًا من بعيد ، أمراً مفزعاً ، الآن لم يعد هذا كله يهم ، لم يعد يهمه . لكن ما مدى صدق ما قاله ؟

اقتعد الراهب الأرض ، محدقاً في الحائط الأجرد ، فيما انسابت أشعة القمر ، عبر القضبان ، فغطت ظهره بسنها . أما كان فيريرا يتحدث على هذا النحو دفاعاً عما جنته يداه وتغطية لضعفه ؟ بلـ ، هذه هي الحقيقة ، طبعاً ، كان الأمر كذلك . واصل شق منه التأكيد على هذا ، لكن دفقة خوف اعتصرته فجأة ، فراح يتسائل عما إذا كان ما قاله فيريرا صحيحاً حقاً ، قال إن هذا شخصاً واحداً ، إلى عدد أولئك الذين تراجعوا في خوف ، من أمثاله ، ليشاركه الآخرون خوره ووحدته

راح في الظلمة ، يسائل نفسه عما إذا كان فيريرا غافياً الآن لا ، لا يمكن أن يكون نائماً لابد أن العجوز قابع في الظلمة بأحد أركان المدينة ، وعيناه تحدقان فيما أمامه ، ماضغاً أغوار عزلته ، ووحدته هذه أكثر برودة وإثارة للفزع من تلك التي يحتملها في زنزانته بهذا السجن ، كان يحاول استدراج الآخرين إلى الدرب الذي أراده ، ليضيف ضعفاً إلى ضعف . إلهي ، أما تنقذه ؟ لقد قلت ملتفتاً إلى يهودا «اعمل ما أنت تعلمـ ولا تبني» ، أترـاك ستعـدـ هذاـ الرـجـلـ أيضاً في عـدـادـ القـطـيعـ الذـىـ هـجـرـتـهـ ؟

هـكـذاـ اـسـتـشـعـرـ لـلـمـرـةـ الـأـلـىـ بـعـضـاـ مـنـ اـحـتـرـامـ الذـاتـ وـالـرـضاـ عـنـهـ ، وـهـوـ يـقارـنـ وـحـدـتـهـ وـحـزـنـهـ بـمـاـ يـشـعـرـ بـهـ فـيـرـيـرـاـ ...ـ وـاسـتـطـاعـ فـيـ هـدوـءـ أـنـ يـطـلقـ ضـحـكـةـ ،ـ ثـمـ اـفـتـرـشـ الـأـرـضـ الـعـارـيـةـ الـصـلـبـةـ ؛ـ لـعـلـ طـيفـ النـعـاسـ يـوـاتـيـهـ

الفصل الثاني

أقبل عليه المترجم زائراً ، في الصباح ، كرهاً أخرى . بادره قائلاً

- لعلك أدرت الأمر في ذهنك ؟

لم يجد حديثه في هذه المرة كمداعبة القط للفأر ، لاح محياه كالحاج ، أضاف

- لقد حدثك سوانو بجلية الأمر ، فكف عن هذا العناد ! لسنا ندعوك إلى أن تدهس الأيقونة بملء الإخلاص . ألا تجتاز هذا الإجراء الشكلي فحسب ؟ مجرد الشكل لا غير ! وعندئذ يغدو كل شيء على ما يرام

لزم الراهب الصمت ، وقد تجمدت عيناه على نقطة في الجدار ، لا يتحول عنها ، لم يكن ذلك راجعاً إلى أن زلاقة لسان الآخر تشير ضيقه ، وإنما انزلق ما قاله عبر أذنيه دون أن يعني شيئاً له

- الآن هيا ! لا تشر المزيد من المتابع ، لا أسألك أن تدهس الأيقونة ،
والإخلاص يغمر قلبك ؛ فالأمر يحزنني نفسى بدورى
- لم لا تعلقونى في الحفرة ؟

- الأمر جلي ... طيب ، لا مناص ، إذن

هوى صوت المزلاج الكئيب ، حينما أعيد إلى موضعه ، على أذني الراهب ، فعلم أن النقاش المنطقى قد انتهى ، مع انبعاث ذلك الصوت المقيت

لم يكن بوسعه أن يقدر إلى أى مدى سيمكنه احتمال التعذيب ، غير أنه بشكل ما لم يعد يحمل لبدنه المضنى ذلك الرعب ، الذى أثاره فيه ، حينما كان يضرب ضائعاً في الجبال ، كان الألم قد خدره ، أحس بأن من الخير للموت أن يسارع إلى معاونته ما وسعته المسارعة ، إذا ما كان هو السبيل الوحيد للإفلات من هذا الانتظار اليومى ، بل لعل الحياة في رحاب عذاب التفكير في الرب واليقين بدت شيئاً مقيتاً ، ضرع في قرارة فؤاده أن يجلب وهن ذهنه وجسده الموت عاجلاً . طفت وراء جفنيه ، كرؤيا محموم ، رأس جاربي ، الراحل إلى أعماق اليم . لكم حسد رفيقه ! نعم ، لكم حسد جاربي ؛ إذ نجا من هول عذاب لهذا الذي يعانيه !

كما توقع ، لم يقدم له الإفطار ، في صباح اليوم التالي ، فتح الباب في الظهيرة ، وأطل عملاق عار حتى الخصر ، لم يكن قد رأه من قبل أحكم قيد يدي الراهب ، حتى أنه ما إن يحرك جسمه قليلاً حتى يحرز الحبل في رسفيه ، فتند صيحة ألم كظيمة عن شفتيه ، وفيما كان يقيد يديه خلف ظهره ، راح يصب عليه سيل إهانات لم يستطع الراهب فهمها ، وحدث نفسه قائلاً «أخيراً آن الأوان» . لكن هذا الشعور ، لدهشته ، صحبه انتعاش وابتهاج ، لم يعهدهما قبلًا

اقتادوه إلى الخارج ، احتشد الفناء ، السابح في النور ، بثلاثة من رجال الحكم وأربعة من رجال الحرس والمترجم اصطفوا جميعاً ، يحدقون فيه ،

فتطلع إليهم ، مركزاً على المترجم ، وقد تلاعبت ابتسامة على شفتيه ، تشي بشعوره بالانتصار ، حدث نفسه بأنه أيا كانت الظروف ، فما من انسان يستطيع الإفلات من براثن الغرور ، تذكر مبتهجاً أنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد لاحظ

تلك الحقيقة

شدد العملاق قبضته على الراهب ، ورفعه بخفة بين ذراعيه ، فوضعه على ظهر حصان ، بلا سرج ، لم يكن يبدو حصاناً ، وإنما بالأحرى حماراً ، هزيلاً ، يتضور جوحاً ، ترنح على الطريق متقلقاً ، وفي أعقابه رجال الحاكم والحرس والمترجم

غض الطريق باليابانيين ، انتظاراً لقدم الركب . ابتسم لهم الراهب ، من فوق حصانه . كهول فغروا أفواهم دهشة ، صبية يقضمون ثمار الخيار ، نسوة كن يضحكن أول الأمر ، يحدقن في الراهب كالبلهاوات ، وفجأة يتراجعن مرتاعات ، حين تلتقي أعينهن بعينيه ، كان الضوء يتراهمى على كل وجه من هذه الوجوه ، ملقياً ظللاً شتى طن خلف أذنه شئ ، لاح كتلة بنية اصابته ، كان روث حصان ، لطخه أحدهم به

عقد العزم على ألا يدع البسمة تغيب عن شفتيه ، هوذا يشق شوارع نجازاكى ، على ظهر حمار ، ثمة رجل آخر دخل بيت المقدس ، راكباً حماراً أيضاً ، وقد كان هذا الرجل هو الذى علمه أن أكثر الاحتلادات ، التى ترتسم على محيا انسان ، نبلأ إنما تتجسد فى الرضا بملء الحبور بالهزء والإهانة . لسوف يحافظ على هذا الرضا ، حتى النهاية ، فهوذا محيا مسيحي وسط جمع الكفرة

جمع رهط من الكهنة البوذيين ، مفصحين عن مشاعر العداء نحوه ،

جمعهم ، تحت شجرة ضخمة ، أقبلوا بقضهم وقضيضهم ، فالتقووا بالحمار الذي اعتلاه ، ولوحوا بالهراءات مهددين ، كأنما ليهددوه ، ويفتنوه عن دينه. تطلع إلى العيون من حوله ، متسائلاً عما إذا كان سيد مؤمناً يعتصم بالحقيقة ، لكنما عبثاً بحثت عيناه ، فما من وجه حوله إلا دفعه العداء أو المقت أو الفضول . هناك في قلب الجمع لحت عيناه رجل لا يكتمل كأنما هو كلب يستجدى الاشفاق ، بينما وعي تصلب الراهب في مكانه ، كان الرجل كيسيجيرو .

ملتفاً بالخرق ، وقف في صدر الصف الأول ، متظراً ، حينما صافحت عيناه مقلتي الراهب ، انكمش ، حاول مسرعاً الاختفاء ، وسط الجمع ، لكن الراهب ، من موضعه فوق ظهر الحمار المتواتي ، كان يعلم حق العلم أى مسيرة طويلة قطعها الآخر ، مقتفياً أثره ، وسط هؤلاء الكفرة جميعاً كان هذا الرجل وحده هو الذي يعرفه

(هدى من روحك ، هدى من روحك ، لست غاضباً الآن ، ليس إلهنا غاضباً)
أوماً الراهب برأسه نحو كيسيجيرو ، كأنما ليهبه العزاء ، الذي يمنح للتأبب بعد الاعتراف

تقول السجلات إن الجموع رافقت الراهب في الطريق من هاكاتا إلى كاتسويا ، ثم اخترقت شوارع جوتو ، وقد جرت العادة بأن يأمر الحكم بالدعابة في اليوم السابق لإنزال العقاب بساحتهم ، فيطاف بهم عبر نجازاكى تجريساً لهم . كان المكان الذي يمضي الركب إليه يوماً هو سوق نجازاكى العتيق ، حيث تنكفي الدور بعضها على البعض الآخر ، ويتلطم الناس خضماً من بشر ، وفي اليوم التالي لتجريسمهم ، كانوا يدفعون إلى ساحة التعذيب

كانت جوتو - ماشى على عهد أومورا سوميتارا ، حينما فتح مرفأ نجازاكى لأول مرة ، هى مستقر المهاجرين من جزر جوتو ، ومن فوقها كان يمكن للمرء أن يلمع خليج نجازاكى ، متلائنا ، تحت شمس الأصيل ، تدافع الجمع ، مطبقاً على الركب ، على نحو ما يفعل فى المهرجانات ، وكل يحاول أن يلقى نظرة على البربرى ، الأجنبى ، على صهوة الحصان ، مجرد من السرج ، ما إن يحاول الراهب أن ينصب قامته المعدبة ، حتى ترتفع صيحة مقت ، يمازجها المزيد من الفرح الصارخ

كان قد حاول أول الأمر أن يغتصب ابتسامة يرسمها على شفتيه ، أما الآن فقد تصلب وجهه ، ولم يعد ذلك ممكناً ، فما وسعه إلا أن يغمض عينيه ، محاولاً حجب الوجوه ، التى عكف أصحابها على السخرية منه والهزء به ، ويا لها من وجوه ناتئة الأسنان ! تسائل عما إذا كان ذلك الرجل قد ابتسم ، فى رفق ، حينما أحدق الجمع بقصر بيلاطس ، صارخين ، هاتفين ، وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ ، حدث نفسه بأنه حتى ذلك الرجل عجز عن اجتراح مثل هذا الأمر «في زمان الآلام المقدس هذا زد لنا في رحمتك». تهافت كلمات الصلاة من شفتيه ، مثلاً يتهاوى الحصى ، وحينما استمر فى ترتيلها ، تناقلت فى الخروج ، مثقلة بالمشقة ، تشتبك تفكيره ، ازاء الألم المبرح المنبعث من الحبل ، الذى راح يقضى رسفيه بينما ارتج بدنـه ، لكن ما أناخ بكل كل الحزن على صدره كان عجزه عن أن يحب هؤلاء الناس ، مثلاً سبق للمسيح أن أحبهم .

- طيب ، أيها الأب ، كيف الحال ؟ أما يقبل أحد ليمد لك يد العون ؟

تسائل المترجم ، مسايراً إياه ، فجأة هتف به

- أما تجد عن يمين أو يسار إلا صيحات المقت ؟ ما أتعجب أن تهبط هذه

الأرض من أجلهم ، فلا يحس أحدهم أنه بحاجة إليك ، أنت رجل بلا جنوى ...
بلا جنوى ..

للمرة الأولى ، اندفع الراهب صائحاً ، وعيناه تدihan شرراً

- رغم ذلك ، في هذا الجمع من يصلى في أعماق سكون فؤاده .

- الآن سأحدّث بشيء ، أتوافق على الإصغاء ، منذ وقت طويل كانت هناك إحدى عشرة كنيسة هنا في نجازاكي ، إلى جوار مائتي ألف مسيحي ، في هذا الجمع أناس كانوا يوماً مسيحيين ، لكنهم الآن يهزاون بك بكل قوتهم ، وعن عمدٍ ليبرهناوا لمن يتلفون بهم أنهم ليسوا مسيحيين .

- صب الاتهامات علىَ ، كيما طاب لك ، فما تزييني إلا شجاعة .

- الليلة ...

ضحك المترجم لاطماً بطن الحصان بجمع كفه :

- ... الليلة ، الليلة سترتد ، قال إينوي هذا بوضوح تام ، وحتى الآن لم يقل إن أبيا سيرتد ، إلا وصدق فيما قال ، حالفه الصواب في حالة سوانو ، وسيحالف في حالتك أيضاً

فرك المترجم كفيه ، في حركة توحى بالثقة المتأهية ، ثم تراجع عن مكانه ، إلى جوار الراهب «في حالة سوانو» ... لم تعلق بذهنك إلا هذه الكلمات ، عمت الرجفة ، على ظهر الحصان الأجرد ، فراح يجالد الكلمات ، لعلها تتأى عن ذهنه .

فيما وراء الخليج ، سحق السحاب عموداً ذهب سنا الأصيل حواشيه ، لاحت له هذه السحب ، لعلة لا يدريها ، قلعة عملاقة ، تنهش في

السماء ببياضها الشاهق . كثيراً ما شهد من قبل أعمدة من سحب ،
لكنها لم تثر فيه قط مثل هذه المشاعر الآن بدأ يدرك جمال الترتيلة
التي رددوها المسيحيون ، والتي سمعها لدى هبوطه أرض اليابان ، «إنا
على دربنا ، إنا على دربنا ، إنا على دربنا إلى معبد الفردوس ، إلى معبد
الفردوس إلى المعبد العظيم» ، كان عزاؤه وسلوانه الوحيد هو التفكير
في ذلك الآخر ، الذي سبقه على درب الخوف والرعدة ، ثم تحل بهجة التفكير
في أنه ليس وحيدا ، ففي هذا البحر عينه احتمل هذان الفلاحان
اليابانيان العماء نفسه ، يوماً بكماله ، قبل أن يرحل بعيداً ، إلى معبد
الفردوس النائي ، فجأة أفعمت صدره فرحة وثابة ، حين فكر بأنه
توحد مع هذين اليابانيين توحد مع جاربي ، توحد مع ذلك الرجل ،
الذى ثبتت المسامير كفيه على الصليب ، ألح عليه محيا ذلك الرجل ،
صورة تتدفق حياة ، وتتوهج حيوية ، المسيح تحت العذاب ، المسيح
الصابر ، دعا من أعماق فؤاده أن يدنو وجهه من ذلك المحي

نحى رجال الحاكم الجموع ، رافعين سياطهم ، فتفرق أيدي سبا في
خنوع ، والذعر ملء العيون ، فاتسع الطريق أمام الركب ، الذى تناهبته
العيون

أخيراً ، أسدل الستار على الغسق ، وهوت الشمس الآفلة ، متوجدة على
سقف معبد ، إلى يسار الطريق . خلف المدينة مباشرة ، لاح جبل ، وكأنه يطفو
محلاً في السماء ، الآن تناوشه من جديد أحجار وقطع من الروث ، تهافت عليه ،
 فأصاب بعضها وجهه

سايره المترجم ، مواصلا إلحاده

- هلم الآن ! لست أدعوك لما فيه ضير ، ارتد ، قل كلمة واحدة ، أرجوك ! لكن فعلت هذا ، فلن يعود بك حصانك إلى السجن أبداً

- إلى أين تمضون بي الآن ؟

- إلى ديوان الحكم ، لا أريد لك العذاب ، أرجوك ، لست أدعوك إلى ما فيه ضير ، ما عليك إلا أن تتبس بهذه الكلمة : «إنى ارتد» .

كظم الراهب غيظه ، اعتصم بالصمت على ظهر حصانه الأجرد ، شخب الدم من وجنته ، متناثلاً إلى ذقنه . تطلع إليه المترجم ، مضى حزيناً ، وقد ارتسם الحزن على محياه ، وارتاحت كفه على بطن الحصان .

انحنى ليلاج الزنزانة الفارقة في ديجور دامس ، فجأة لطمته رائحة كريهة ، فألزمته موضعه . كانت رائحة بول نفاذة ، كان البول يغطي الأرض تماماً ، وقف للحظة جاماً ، محاولاً قمع القئ المتتصاعد داخله ، بعد برهة استطاع أن يميز الجدران في قلب الظلام ، تلمس الحائط ، مستكشفاً طريقه في أنحاء الغرفة ، فجأة ارتطم بحائط آخر ، مد ذراعيه على اتساعيهما ، فادرك أن أطراف أصابعه يمكن أن تمس الجدارين كليهما ، في وقت واحد ، أوحى له هذا بحجم الزنزانة التي زج فيها

أرهف السمع منصتاً ، لكنه عبثاً راح يصفى ، استحال عليه أن يعرف في أي موضع من مبني ديوان الحكم أودعوه ، لكن الصمت القاتل أكد له أنه ليس هناك أحد بقريبه . كانت الجدران من خشب ، وفيما راح يتلمس الجانب العلوي منها ، اكتشفت أصابعه انشفاء كثيراً ، عميقاً ظنه في البداية ضلعاً بين الألواح ، لكنه شعر على نحو ما كذلك أن

الأمر ليس على هذا النحو . حينما مضى متلمساً الجدار بأصابعه ، أدرك تدريجياً أنه حرف - تلاه حرف - وكالضرير تلمست أصابعه طريقها عبر الحروف المنهمرة ، فالفاما تألف «مجدوا الرب» بعدها لم تلمس أصابعه شيئاً ، لربما حفر داعية هذه الكلمات ، حينما زج به في هذا السجن ، لعلها تكون عوناً لمن يأتي على دربه ، لم يكن هذا الداعية مرتدًا ، وهو في سجنه هذا ، وإنما كان يتوجه إيماناً ، هنا أفعى انفعال عارم صدر الراهب ، وحيداً في العتمة ، حتى بلغ مشارف الدمع ، حينما فكر فيما يمكن أن يكون قد وقع . راوده شعور بأن ثمة قوة تمنحه حمايتها ، حتى النهاية ،

على نحو ما

لم يدر إلى أى حد أوغل الليل فى مسيرته . كان المترجم ورجال الحاكم الذين لا عهد له بهم يواصلون طرح الأسئلة ذاتها عليه من أين أقبل ، وإلى أى جمعية ينتمي ، وكم داعية فى ماكاو ، لكنهم لم يدعوه إلى التخلى عن دينه ، بل ويدا كأن المترجم غير نفمة حديثه تماماً ، حيث مضى يؤدى واجبه ، فى الترجمة ، بوجه خلامن أى انفعال ، حينما انتهى هذا التحقيق العبثى ، زجوا به فى هذه الزنزانة

«مجدوا الرب» أ Gund رأسه إلى الحائط ، وسبح فى التفكير بذلك الرجل الذى أحبه ، مثلاً يستحضر شاب محيا صديقه الأثير ، الذى غاب عنه . كان قد اعتاد ، منذ زمن بعيد ، أن يستحضر فى عزلته محيا المسيح ، ورغم ذلك فمنذ وضعوا أيديهم عليه ، وبصفة خاصة منذ سجنه فى تلك الزنزانة القريبة من الأجمة ، حيث يتناهى إليه حفييف ورق الشجر ، أفعى صدره شعور آخر مباين ، لدى انبعاث ذلك المحيا ، ناهضا وراء عينيه المغمضتين ، الآن فى قلب الظلمة ، لاح له هذا

الحياة دانياً ، لفه الصمت في البداية ، لكنه رمقه بنظرة أفعمت أسى ، ثم بدا كما لو كان يحادثه « حينما تتعذب ، معك أتعذب ، سأظل حتى النهاية إلى جوارك »

فيما كان يفكر في هذا المحيـا ، امتد به التفكير إلى جاريـي كذلك ، سرعـان ما سـيلحق به . ترـاعى له ذلك الرأس الفـاحـم في أحـلامـه ، فـي بـعـض الأـحـيـان ، تـارـد القـارـب ، ثـم تـدـلـف إـلـى أـعـماـقـ الـيمـ ، عـنـدـهاـ كـانـ الخـجلـ يـسـتـبـدـ بـهـ ، فـلاـ يـمـلـكـ تـفـكـيرـاـ فـيـ ذاتـهـ ، هـوـ الذـىـ تـخـلـىـ عـنـ المـسـيـحـيـينـ ، كـانـ التـفـكـيرـ فـيـ هـذـاـ أـمـرـاـ لـاـ يـحـتـمـلـ ، حـتـىـ أـنـهـ كـانـ يـحـاـولـ أـحـيـاناـ إـلـقـالـعـ عـنـ التـفـكـيرـ فـيـ جـارـبـيـ تمامـاـ

تناهىـ إـلـيـهـ صـوتـ نـاءـ ، بـداـ كـصـوتـ كـلـبـينـ يـتـعـارـكـانـ نـابـحـينـ أـرـهـفـ السـمعـ ، لـكـنـ الصـوتـ كـانـ قـدـ تـوقـفـ ، ثـمـ تـواـصـلـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ ، أـدـرـكـ أـنـهـ شـخـيرـ شـخـصـ مـاـ ، لـابـدـ أـنـ أـحـدـ الـحرـاسـ كـانـ يـصـدـرـ غـارـقاـ فـيـ نـومـ ، حـمـلـتـهـ إـلـيـهـ وـفـرـةـ السـاكـنـ

تواـصـلـ الشـخـيرـ ، مـتـقـطـعاـ لـفـتـرـةـ ، مـرـتـفـعـاـ حـيـنـاـ ، مـنـخـفـضاـ حـيـنـاـ آخرـ ، شـائـنـ صـوتـ صـدـرـعـنـ نـايـ بـيـنـ يـدـيـ عـازـفـ مـبـتـدـئـ ، هـوـ ذـاـ فـيـ هـذـهـ الزـنـزـانـةـ المـظـلـمـةـ يـغـلـبـهـ انـفـعـالـ رـجـلـ يـواجهـ الموـتـ ، فـيـمـاـ رـجـلـ آخـرـ يـصـدـرـ شـخـيرـهـ هـانـيـءـ الـبـالـ بـدـتـ لـهـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ مـثـيـرـةـ لـلـسـخـرـيـةـ بـلـاـ حدـودـ ، غـمـفـمـ فـيـ هـدوـءـ لـنـفـسـهـ مـتـسـائـلـاـ عـنـ السـرـ فـيـ أـنـ حـيـاـ الـبـشـرـ تـبـدوـ حـافـلـةـ بـمـفـارـقـاتـ غـرـيـبةـ

كان المترجم قد أكد له ، عن يقين ، أنه سيصبـأـ اللـيـلـةـ (أـهـ لـوـ عـلـمـ حـقـيقـةـ مشـاعـرـيـ ...) نـدـتـ عـنـهـ ضـحـكـهـ هـيـنـةـ ، فـيـمـاـ هـوـ يـبعـدـ رـأـسـهـ عـنـ الـحـائـطـ ، وـهـذـهـ الـأـفـكـارـ تـمـرـ بـذـهـنـهـ ، طـفـاـ أـمـامـ عـيـنـيـهـ مـحـيـاـ ذـلـكـ الـحـارـسـ نـاعـمـ الـبـالـ ،

الذى يصدر هذا الشخير ، فى نومه العميق ، لئن كان شخирه عالياً ،
على هذا النحو ، فمن المحقق أنه لا يخشى أن الود بالهرب ، بهذا
حدث نفسه ، رغم أنه لم يكن يعتزم الهرب على الإطلاق ، وليشغل ذهنه
دفع الباب بكلتا يديه ، لكن الباب كان مرتجأً من الخارج فلم يستطع زحزحه
عن موضعه

عرف أن حتفه آت ، لكن مشاعره - ويا للغرابة - لم تكن تساير عقله
نعم الموت يدنو . حينما توقف الشخير ، اعتصره سكون الليل الهائل ،
لم يكن الأمر راجعاً إلى أن ذلك السكون لم تشبهه نائمة ، ومثلاً تطفو
الظلمة فوق الأشجار ، هبطت رهبة الموت فجأة ، فسكنت قلبه ،
وأفعمته بالفزع ، لوى يديه ، صارخاً بصوت عال ، عندئذ تراجع الفزع ،
كارتداد الجزر ، لكنه أقبل كرة أخرى ، هادراً ، كالد . حاول أن يصلى
ضارعا ، فتناهت إليه متقطعة كلمات «وكان عرقه مثل قطرات دم»
حينما تراغى له ذلك الوجه الناحل ، لم يستشعر العزاء في التفكير بأنه قد عرف
ببوره الرعب ذاته ، ساعة الاحتضار . مسح جبينه بكفه ، انبعث واقفاً ، راح
يدرع الزنزانة الضيقة ، ليشغل نفسه ، فما كان بوسعيه أن يظل في موضعه ، كان
عليه أن يتحرك

أخيراً ، تناهى إليه صوت يتعدد بعيداً ، ولئن كان هذا صوت
الجلاد ، مقبلاً لينزل به العذاب ، فذلك خير له من الظلام البارد ، الذى
راح يمزقه ، متغلغلًا في لحمه ، على نحو يفوق ما يمكن لأى سيف أن
يجترحه ، الصق أذنه بالباب ؛ لعله يسمع طرفاً مما يقول صاحب هذا
الصوت

بدا كما لو أن شخصاً يقرع آخر ، تجاوب صوت ، ينم عن الكراهية

والمقت ، مع آخر يتوسل ضارعاً ، كانت الملاحقة تتوقف في البعيد ، ثم لا تثبت أن تبتوكمما لو كانت تدنو من موضعه ، فيما كان يصفى ، شقت أفكاره مجرى مختلفاً تماماً ، حدث نفسه بأن السر فى أن الظلام يخيفنا هو أنه لا يزال فى أعماقنا ذلك الخوف الغريبى ، الذى كان الرجل البدائى يستشعره ، حين يحتاج عن النور ، كانت تلك هى الفكرة المجنونة ، التى وثبتت إلى ذهنه .

ويغ رجل شخصاً ما ، بقوله :

- ألم أقل لك إن عليك الانصراف توا؟

عندئذ ، صاح من وجہ إلیه التقریع ، بصوت باك :

- إنى مسيحي ، دعونى أقابل الأب !

بدا الصوت ماؤفا ، على نحو ما ، نعم ، إنه صوت كيشيجورو .

- دعونى أقابل الأب ! دعونى أقابل الأب !

- صمتا ! لئن واصلت الصياح على هذا النحو ، لأننيتك طعم عصاى !

- اضربونى ! اضربونى !

طوال الوقت ، ظل الصوت على اختلاطه بصوت آخر

- من هذا ؟

تساول صوت ثالث .

- يبدو أنه معتوه ، إنه كالشحاذ ، لكنه منذ الأمس يواصل القول بأنه مسيحي .

فجأة ، ارتفع صوت كيشيجورو ، مردداً كالصدى :

- أبتابه ، اغفر لى ! جئت لأدلی باعترافى ، وأتلقى الغفران على يديك ،
فاصفح عنى !

- عم تتحدث ؟

تنامى صوت ، يحاکي ذلك الذى ينبعث عن شجرة تهوى ، فيما كان الجاد
يلطم كيشيجiro .

- أبتابه . اصفح عنى !

أغمض الراهب عينيه ، وراح يستحضر صامتاً كلمات الإحلال من الذنب ،
 فعلق طعم مرير بلسانه .

- ولدت ضعيفاً ، ومن يضعف فزاده لا يملك أن يلقى حتفه شهيداً ، مازا
عسانى أصنع ؟

آه ، لم جئت إلى هذه الدنيا ؟

انحبس الصوت منكسرأ ، مثلاً تسكن النسمة ، ثم تردد في البعيد .. فجأة
تراهى أمام الراهب كيشيجiro ، على نحو ما كان لدى عودته إلى جوتو ..
الرجل الأثير وسط رفاقه المسيحيين ، لو لم يكن ثمة اضطهاد ، لقضى هذا
الرجل ، يقينا ، حياة هائنة ، يعيشها مسيحياً طيباً

- لم جئت إلى هذه الدنيا ؟ لم ؟ ... لم ... ؟

دفع الراهب أصابعه في أذنيه ، ليحجب هذا الصوت ، الذي تراهى كتابح كلب
بعيد عن سمعه .

نعم ، لقد همس بكلمات إحلال كيشيجiro من خطاياه ، لكن الكلمات لم
تنبعث من أعماق قلبه ، وإنما صدرت عن شعور بالواجب ، باعتباره قساً ،
لهذا بقيت ثقيلة على لسانه ، مثلاً تبقى نكهة طعام مر في الحلق ، حقاً

إن كرهه لكيشيجير قد انقضى الآن ، وتبعد ، لكن ذكرى قيامه بتسليميه إلى أيدي جلاديه ظلت منقوشه على سطح ذاكرته ... رائحة الأسماك المقددة التي جعله يقتاتها ، الظماء الاهب الذي أعقبها ، ظلا راسخين ، لا سبيل إلى محوهما ، رغم أنه لم يعد يكن له كرها ، أو يستشعر غضباً ، إلا أنه لم يستطع اقتلاع شعوره بالازدراء ، مرة أخرى لاك كلمات التحذير ، التي خاطب بها المسيح يهودا

كان قد عجز ، منذ زمن بعيد ، عن فهم هذه الكلمات ، حينما طالعها في الإنجيل ، لم يقتصر الغموض على هذه الكلمات ، وإنما امتد إلى دور يهودا في حياة ذلك الرجل ، لم ضم هذا الرجل إلى رهط حواريه الرجل الذي سيسلمه إلى شانئه ؟ لم مضى في طريقه مثل هذا الوقت الطويل وكأنه لا يعلم شيئاً رغم إمامه بنوايا يهودا ؟ أما كان يهودا دمية استخدمت لصلب المسيح وتمجيده ؟

مع ذلك .. مع ذلك ... إذا كان هذا الرجل هو الحب نفسه ، فلم انتهى إلى نبذ يهودا ؟ لقد شنق يهودا نفسه في حقل الدم ، أتراه نبذ ليتهدى في ظلام أبدى ؟

كانت هذه الشكوك تناهبه ، حتى حينما كان طالباً بالمعهد الديني ، وقسا يدرج بائل الطريق ، تتدافع في ذهنه ، كففاعات تطفو على سطح الماء ، في مستنقع راكد . في مثل هذه اللحظات كان يحاول التفكير في هذه الفقاعات باعتبارها أموراً تшوب نقاء إيمانه ، لكنها الآن تحدق به ، في إلحاح لا يقاوم

هز رأسه ، تنهد ملء رئتيه ، لسوف تحل الدينونة ، فتنجل الأسرار إذ لم يوهب الإنسان اكتناه حقائق أحجيات الكتاب المقدس جميعها

مع ذلك ، فقد أراد أن يكتنه غور السر . كان الراهب قد قال له عن يقين «الليلة يقينا ستصبأ» لكم تبدو قريبة من الكلمات التي خاطب بها ذلك الرجل بطرس «قبل أن يصبح الديك اليوم تنكرني ثلاث مرات» . مازال الفجر بعيداً ، لم يحن وقت صيام الديكة بعد

آه ، ذلك الشخير مرة أخرى . كان يحاكي صوت طاحونة ، يديرها الهواء اقتعد الراهب الأرض الفارقة في البول ، وراح يضحك كمن به مس يا للانسان من مخلوق غريب ! هوذا الشخير الأبله ينبعث عالياً تارة ، خفيضاً تارة أخرى ، شخير غر ، رقد دون أن تمسه رهبة الموت . تمدد ، غارقاً في نومه ، كالخنزير ، فاغراً فاه الضخم ، مطلقاً شخيره ، على هذا النحو ، أحس الراهب أن بمقذوره أن يرى وجهه ذلك الحارس الغافى رؤية العين ، خيل إليه أنه لابد أن يكون وجهه أحيناً ، أثقله الساكي ، حد السكر ، متفرجاً بالعافية لكن الوجه كان رهيباً في عين ضحاياه . فضلاً عن هذا فإن هذا الحارس لم يكن رفيع القدر في ضراوته . وإنما كانت ضراوته هي ضراوة شخص وضعيف إزاء الحيوانات ، حيوانات تقصير عنه قوّة . كان قد رأى أمثاله في ريف البرتغال ، وعرفهم حق المعرفة ، هذا الرجل لم تخطر بباله خاطرة عن العذاب ، الذي سيتحقق بالآخرين ، جراء ما تأثيره يداه . كان أمثاله هم الذين قتلوا ذلك الرجل ، الذي كان محياه هو أسمى وأجمل محياناً يمكن لبشرى أن يحلم به

أجل ، ويا له من شيء مقيت أن يبلي ، في هذه الليلة الأكثر أهمية في عمره بمثل هذا الضجيج الشكّس المنكر .. فجأة أفعى الغضب صدره ، حينما أدرك هذه الحقيقة ، أحس بأن حياته تزدرى ، وحينما توقف

الشخير لحظة ، بدأ يقرع الحائط بجمع يده ، لكن الحراس ، شأن
الحواريين الذين رقدوا في الجسمانية ، دون أن يخطر لهم عذاب ذلك
الرجل على بال ، لم ينهض من نومه شرع يلطم الحائط بجنون ،
فانبعثت عندئذ ضجة الباب ، فيما كان يفتح ، ومن بعيد تناهى وقع اقدام
تسرع إلى حيث كان

- أيها الأب ، ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟
كان المترجم هو الذي يتحدث ، رن صوته محاكيًا صوت قط يتلاعب بطريركته ،
وأضاف :

- الأمر مفزع ، مفزع ، أليس من الخير لك ألا تكون عنيداً ؟ لو أنك قلت :
«إنى أرتد» لصار كل شيء على ما يرام ، عندئذ سيكون بمقدورك أن تريح ذهنك
المكبوت ، وأن تلتقط أنفاسك

رد الراهب عبر الظلام

- لا شيء يثير حفيظتي إلا هذا الشخير
صمت المترجم فجأة ، كأنما ألمنته الدهشة حجرًا
- أتحسبه شخيراً ... ذلك .. سوانو أسمعت ما قال ؟ إنه يحسب هذا الصوت
شخيراً

لم يكن الراهب قد عرف أن فيرييرا يقف إلى جوار المترجم

- سوانو قل له ما هذا الصوت !

سمع الراهب صوت فيرييرا ، ذلك الصوت الذي كان يصفى إليه ، كل يوم ،
في الأيام الخوالي ، كان صوتاً خفيضاً يخالجه الإشفاقي
- ليس هذا شخيراً ، وإنما هو أنين المسيحيين المعلقين في الحفرة .

وقف فيريرا هناك متاجراً ، في موضعه ، وقد نكس رأسه ، كدابة هرمة ، كعادته أطل المترجم من الباب برأسه ، محدقاً فيما أمامه انتظر ، طال انتظاره ، لم تصل إلى أننيه نامة واحدة ، همس قلقاً بصوت أحش :

- أعتقد أنك لم تلق حتفك أوه كلا . كلا . فمن المحرم على المسيحي أن يطفئ بيده نور الحياة ، الذي منحه الله إياه ، سوانو ! سأوكل باقى الأمر لك

قالها منتصراً ، وسرعان ما طوته الظلمة ، وإن ردت صدى وقع اقدامه لم تند حركة عن فيريرا ، حينما اندفع في الموت وقع الاقدام ، وإنما وقف صامتاً ، منكس الرأس . بدا جسده طافيا في الهواء ، كالشبح ، ناحلاً كقصاصة من ورق ، صغيراً كطفل . حتى ليظن المرء أنه من المستحيل أنه يمسك بكفه

قال مطلماً من الباب

- إحم إحم ! أتسمعني ؟

لم يحر الكاهن جواباً ، فكر فيريرا الكلمات عينها ، وأضاف - في مكان ما ، على ذلك الحائط يمكنك العثور على حروف حفرتها هناك «مجدوا رب». ما لم يكونوا قد محوها . ستجد الحروف على الحائط الأيمن أجل في الوسط .. أما تلمستها بأصابعك ؟

ما من صوت ند عن الزنزانة ... وحدها قبعت الظلمة ، التي تكوم الراهب في رحمها ، داخل الزنزانة ، والتي بدا أنه من المستحيل أن تكتنه العين حجبها

تردد صوت فيريرا ، واضحًا ، فاصلًا المقاطع أحدها عن الآخر

- كنت هنا مثلك ، زجوا بي هنا ، كانت تلك الليلة أكثر عتمة ، وأشد بردًا
من أى ليلة في حياتي

أسند الراهب رأسه المثاقل ، على الحاجط الخشبي ، أصفى شارداً إلى
كلمات الكهل ، حتى وإن لم يقل ذلك فيريرا ، فإنه كان يعلم أن تلك الليلة
كانت أشد ظلاماً من أى ليلة سبقتها ، كان يعرف ذلك حق المعرفة لم
تكن تلك هي المشكلة ، وإنما المشكلة أنه لا ينبغي أن تنطلي عليه أحابيل
فيريرا إغواء فيريرا الذي زج به في الظلم مثلاً ، وما هوذا الآن
يدعوه ليسير على دربه

- لقد سمعت هذه الأصوات بدوري ، سمعت أنين الرجال الذين علقوا
في الأخدود

فيما كان فيريرا ينهي كلماته ، بلغت الأصوات التي تشبه الشخير
مسامعهما ، مرتفعة حيناً ، خفيفة حيناً آخر ، لكن الراهب كان يعلم
الآن جليّة الأمر ، كانت لهاث وأنين بشر عاجزين ، تدلوا في أخدود
العذاب

بينما هو مقع هنا في الظلم ، ثمة من يئن ، والدم يتقطّر من أنفه
وفمه ، إنه حتى لم ينتبه إلى هذا ، لم يرتب صلاة ، وإنما ضحك ، أذهله هذه
الفكرة بذاتها ، لقد حسب هذا الصوت شيئاً يبعث على الضحك ،
وقد أغرب في الضحك بصوت عال ، لقد صدق في عماء غروره أنه
موحده في هذه الليلة يشارك ذلك الرجل عذابه ، ولكن ما هنا
إلى جواره تماماً أناس يشاركون في العذاب ، على نحو يفوقه كثيراً

غمغم صوت ، لم يكن صوته ، في أعماقه لم هذا الجنون ؟ أتدعوا نفسك راهبا ؟ راهب أخذ على عاتقه أن يحمل عذاب الآخرين ؟ صاح بصوت عال

- إلهي ! أكنت حتى هذه اللحظة تسخر مني ؟

- «مجدوا الرب» لقد حفرت هذه الكلمات على الحائط

كرر فيريرا قوله ، وأضاف

- ألا تستطيع العثور عليها ، ابحث مرة أخرى !

جرف الغضب الراهب ، صاح بصوت أكثر ارتفاعاً عن ذى قبل

- أعرف صمتاً ! ليس من حقك الحديث على هذا النحو.

- ليس من حقى ؟ يقيناً ، ليس من حقى ، أصغيت طوال الليل إلى أصوات الأنين هذه ، فما عاد بمقاديرى أن أمجد الرب ، لم أرتد لأننى علقت فى الأخدود ، طوال ثلاثة أيام ، أنا ، من يقف أمامك ، علقت فى أخدود امتلا بالبراز المتحلل ، لكنى لم أفع بكلمة واحدة تخذلى أمام رب

رفع فيريرا صوتاً ، بدا كالهدير ، وهو يصبح

- إن السر فى ارتدادى هل أنت على استعداد للسماع ، اصفع ! لقد زجوا بي هنا ، وأصغيت إلى أصوات هؤلاء الناس ، الذين لم يجرح الله شيئاً من أجهم لم يأت شيئاً واحداً من أجهم ، توسلت ضارعاً بكل قوتي ، لكن الله لم يصنع شيئاً

- صمتاً !

- ليكن ، تضرع إليه ، لكن أولئك المسيحيين يعانون عذاباً رهيباً لا يمكن لك

حتى أن تفهمه ، منذ الأمس ، المستقبل ، والآن في هذه اللحظة عينها . لم ينبغي أن ينوقوا العذاب على هذا النحو ؟ وفيما هذا يحدث فإنك لا تفعل لهم شيئاً ، والله .. إنه لا يفعل شيئاً بدوره .

هز الراهب رأسه مهتاجاً ، وضع سبابتيه كاتيهمَا في أذنيه ، لكن صوت فيريرا اندلع ، بينما رحمة إلى سمعه ، متشابكاً مع أنين المسيحيين . كف ! كف ! يا إلهي حان الآوان كى تكسر هذا الصمت . ينبغي ألا تظل صامتاً ، برهن على أنك العدل ، أنك الخير ، أنك الحب ، ينبغي أن تقول شيئاً : لظهور الدنيا أنك الجلال

ارتدى ظل هائل على روحه ، مثما يرتمى ظل جناحى طائر مطلق على شراع سفينة . أعاد جناحا الطائر إلى ذهنه نكرى الطرق العديدة التي لقى المسيحيون حتفهم بها . فى ذلك الوقت أيضاً كان الله يعتصم بالصمت ، بينما هطل المطر وسط الغمام على البحر كان صامتاً ، بينما قتل الأعور تحت أشعة الشمس الوهاجة ، لم يقل شيئاً ، ولكن وقتها كان بمقبور الراهب احتمال الأمر ، أو بالأحرى كان قادراً على أن يدفع الشك الرهيب بعيداً عن اعتاب ذهنه أما الآن فالامر مختلف . لم يواصل الرب صمته فيما هذه الأصوات المتألة تتضاعد ؟

- إنهم الآن في ذلك الفناء

تناهى صوت فيريرا الأسف ، هامساً إلى مسمعه

- ثلاثة مسيحيين تعساء معلقون الآن ، علقوا هناك منذ قدومك

لم يكن العجوز يكذب ، أرهف السمع ، فجأة تكشف الأنين ، الذى بدا صوتاً واحداً عن صوت مزدوج ... صوت يئن عالياً (أبداً لم يخف)

تشابك الصوت المرتفع مع الصوت الخفيض ، صادرين عن شخصين مختلفين .

- حينما أمضيت تلك الليلة هنا ، كان هناك خمسة أشخاص علقوا في الأخدود ... خمسة أصوات تناهت إلى سمعي ، مع زفير الريح ، قال رجل الحاكم :

«لئن صبّات ، لنخرجن هؤلاء الناس من الأخدود ، نحطّم أغلالهم ونضع دواء على جراحهم» أجبت : «ولم لا يرتد هؤلاء الناس؟» ضحك رجل الحاكم ورد قائلاً : «لقد صبّأوا مرات عديدة ، لكنك مادمت لم تصبّأ فلا مجال لإنقاذ هؤلاء الفلاحين»

من بين دموعه ، قال الراهب

- وأنت ... أنت كان عليك أن تصلى

- لقد صلّيت ، وواصلت الصلاة ، لكن الصلاة لم تجترح شيئاً ، لتخفف عذابهم ، شق ما خلف آذانهم ، وانسكب الدم وئيداً ، عبر هذا الشق ، وخلال الأنف والفم . أعرف ذلك حق المعرفة ؛ لأنني جربت هذا العذاب ذاته ، حينما أنزل بيدي . الصلاة لا تجترح شيئاً لتخفيف العذاب

تذكر الراهب كيف أنه لاحظ حينما التقى فيرييرا ، لأول مرة ، في سايسوجى ، أثاراً تشبه أثر الحرق في صدغيه ، بل تذكر لون الجرح البني ، الآن تصاعد المشهد كاملاً ، خلف جفنيه المغمضين ، راح يلطم رأسه بالحائط ؛ ليطرد ما تخيله من ذهنه ، وقال

- سيلقى هؤلاء الناس بهجة أبدية ، نظير هذا العذاب ، الذي لا يقوى في الأرض.

قال فيريرا

- لا تخدع نفسك ! لا تخف وهنـى وراء تلك الكلمات المزيفة !

- وهـى ؟

هز الراهب رأسه نافياً ، لكن ثقته بنفسه كانت قد تبددت ، قال

- ماذا تعنى ؟ إنما بسبب إيمانى بخلاص هؤلاء الناس

- إنك تضفى على نفسك أهمية تفوق ما لهم ، أنت مشغول بخلاصك ، لئن قلت إنك سترتد فإن هؤلاء الناس سيرفعون من الأخدود ، سينجرون من العذاب ، وهـا أنتـذا ترفض أن تفعل ذلك ، وما هذا إلا لأنك ترتعـد فرقـاً من أن تخذل الكنيسة ، ترتعـد فرقـاً من أن تغدو طريدـة مثـلى

اندلعت كلمات فيريرا حتى الآن فى نفس واحد من غضـب ، لكن صوته راح يتـخاذل تدريـجياً ، وهو يقول :

- رغم ذلك ، فقد كنت فى موضعك ، فى تلك الليلة السوداء الباردة ، كنت مثـلاً أنتـالآن ، ومع هذا أتسلـك الآن مسلـكـ الحـب ؟ يـنبـغـى على الراهـبـ أنـ يـحـيـا مقتـديـاـ بالـمـسـيـحـ . ولوـأنـ المـسـيـحـ كانـ هـنـا

لزمـ فيـريـراـ الصـمتـ لـحظـةـ ، ثمـ فـجـأـةـ انـطـلـقـ مـتـحدـثـاًـ ، بـصـوتـ قـوىـ

- يـقـيـناـ لـصـبـاـ مـنـ أـجـلـهـمـ

تراـجـعـ اللـيلـ ، مـتـخـاذـلاًـ أـمـامـ الفـجرـ ، بدـأـتـ الزـنـزاـنةـ ، التـىـ ظـلـتـ حـتـىـ الـآنـ كـتـلةـ منـ ظـلـمـةـ فـاحـمةـ ، تـائـلـقـ بـحـجـرـ وـاهـنـ مـنـ نـورـ شـاحـبـ

- يـقـيـناـ كـانـ المـسـيـحـ سـيـرـتـدـ عـنـ دـيـنـهـ لـدـ يـدـ العـونـ لـهـمـ

قالـ الـراهـبـ ، حاجـباًـ وجـهـ بـكـفيـهـ ، وقدـ تـشـنجـ صـوـتهـ ، منـساـباًـ مـنـ خـلـ

أصابعه :

- لا لا لا

- من أجل المحبة كان المسيح سيرتد ، حتى لو كان ذلك يعني التخلى عن كل ما يحظى به .

- كف عن تعذيبى ! إليك عنى ، إليك !

صاح بها الراهب مهتاجا ، لكن الرتاج كان قد نزع عن موضعه ، وفتح الباب .
فتدفق ضياء الصباح الشاحب ، إلى الزنزانة

قال فيريرا ، ممسكاً في رفق بكتف الراهب

- ستؤدي الآن أكثر أعمال المحبة ، التي اجترحت حتى الآن ، إيلاماً
اجتر الراهب قدميه عبر الدهليز متعرضاً ، تقدم خطوة خطوة ، كما لو كانت
اغلال ثقيلة من الرصاص تنتقل قدميه ، مضى به فيريرا قدماً ، في غبش الصباح
الرفيق بدا الدهليز بلا انتهاء . لكن هناك ، في النهاية ، انتصب المترجم ، ومعه
حارسان ، وقد لاحوا كالدمى السوداء تماماً

- سوانو ، هل انتهى الأمر ؟ أنخرج الأيقونة ؟

قالها المترجم ، واضعا الصندوق ، الذي كان يحمله ، على الأرض ، أخرج منه
لوحة منقوشة من الخشب .

- ستؤدي الآن أكثر أعمال المحبة ، التي اجترحت حتى الآن ، إيلاماً
كرر فيريرا قوله السابق ، في رفق ، وأضاف :

- سيدينك أخوانك في الكنيسة ، مثلما أدانوني ، لكن ثمة ما هو أكثر أهمية
من الكنيسة ، أكثر أهمية من الدعوة هو ما توشك الآن على اجتراره

هي ذى الأيقونة ، الآن ، عند قدميه

ثبتت مطروقة نحاسية ، ساذجة ، على كتلة مرمرة من الخشب القذر ، جرى تجذعها مثل موجات صغيرة ، امتد امامه وجه المسيح ، القبيح ، متوجاً بإكليل من الشوك ، والذراعان ، الناحلان ، الممتدان على اتساعهما . تطلع الراهب ، بعينين غائمتين ، مضطرباً ، فى صمت ، إلى الوجه ، الذى يصافحه الآن ، للمرة الأولى، منذ هبط هذه الأرض

قال فيريرا

- آه ! تشجع !

- إلهي ، منذ زمن بعيد ، بعيد ، أمعنت التفكير مرات لا حصر لها فى محياك، عشرات المرات جال بخاطرى ، خاصة منذ هبطت هذه الأرض ، حينما اختفيت فى جبال توموجى ، حينما عبرت إلى الجزيرة ، فى قارب صغير ، بينما ضربت ضائعاً فى شعاب الجبال ، بينما رقدت فى ليل السجن ، بينما كنت أصلى ، كان محياك يتجلى لى ، وحيداً كنت أمعن التفكير فى محياك ، وأنت تمنح البركات ، وحينما ظفر بي شائئى، منحنى محياك ، على نحو ما بدا حينما حملت الصليب ، الحياة ، عميقاً حفر هذا المحيا فى روحي ، الشيء الأكثر بهاء ، والأقرب إلى القلب ، فى الدنيا ، كان يحيا فى قلبي ، الآن بهذه القدم سأدهسه

لاحت أشعة الشمس الأولى ، تألق النور على عنقه الطويل ، المتد ، كعنق دجاجة ، وعلى كتفيه الهزيلين . أمسك بالأيقونة بيديه ، قربها من عينيه ، ودلو ضم إلى وجهه ذلك الوجه الذى دهسته كل هذه الاقدام الكثيرة ، حدق دائياً ، بنظرة محزنة ، فى الرجل ، الذى يتوسط الأيقونة ،

وقد أبلته ، ودفعته غائراً في الخشب ، دهسات لا تفتأ تكرر . تحدرت

دمعة من عينيه

- آه ، الألم

قالها مرتعداً

- إن هو إلا إجراء شكلي ، ما أهمية الشكليات ؟

راح المترجم يستحثه ، أضاف

- ما عليك إلا أن تجتاز الإجراء الشكلي بالدهس .

رفع الراهب قدمه ، أحس بألم ثقيل كئيب ينتابها ، ليس هذا إجراء شكلياً ، لسوف يدهس الآن ما كان يعده أكثر الأشياء بهاء في الحياة ، يدهس ما عده أكثر الأشياء نقاء ، يدهس ما أفعمه بالمثل العليا ، وبأحلام الإنسان ، لشد ما تؤله قدمه . عندئذ ، حدث المسيح ، القابع في البرونز ، الراهب : «ادهس ! ادھس ! إنني أعرف ، خيراً من الجميع ، الألم ، الذي يعتري قدمك . ادھس ! فقد جئت إلى هذه الدنيا ليدهسني البشر ، حملت صليبي لأشارك الناس ألمهم ...

وضع الراهب قدمه على الأيقونة . اندلع الفجر ، وفي البعيد صاح الديك .

الفصل التاسع

لم ينهر المطر مدراراً في ذلك الصيف . في مداء المساء ، كانت نجازاكي تقد بالحرارة والرطوبة ، كحمام بخار ، حين يتراهى الغسق ، يدفع النور ، المنعكس عن الخليج ، الماء للإحساس بالحر خانقاً ، تدلف العربات ، التي تجرها الثيران ، إلى المدينة ، مثقلة بأجولة القش ، فتتألق العجلات ، مرسلة سحباً من الغبار الأشهب ، وحيثما مضى الماء ، اشتم الهواء مثلاً برائحة السماد

انتصف الصيف ، تدللت القناديل من طنف الدور ، وأركان المتاجر الضخمة ، حيث زخرفت بالزهور والطيور والفراشات ، ورغم أن المساء لم يزح أستاره بعد ، فقد تجمع الأطفال ، صاحبين بأغنيتهم :

أيها القنديل ، وداعاً ، وداعاً ، وداعاً ،

إذا حصبت بحجر تشنل يدك .

أيها القنديل ، وداعاً ، وداعاً ، وداعاً ،

إذا حصبت بحجر تشنل يدك .

انحنى مطلأً من النافذة ، وراح يترنم بالأغنية ، هامساً بها لنفسه ، لم يفهم مغزى ما يصدح به الأطفال ، لكنه كان بشكل ما يعاني شيئاً حزيناً ، يحفي الشجن . لم يدر ما إذا كان هذا نابعاً من الأغنية في ذاتها ، أم من قلب من يشلو بها

في الدار المجاورة ، كانت امرأة ، متهدلة الغدائـر حتى الخصر ، تعدد ثمار

الخوخ والعناب والبقول على أحد الرفوف . كان هذا الرف مخصصاً لأرواح الموتى، وكان العيد أحد الاحتفالات التي يقيمها اليابانيون ؛ ليعثوا العزاء في الأرواح ، التي يفترض أنها تعود في اليوم الخامس عشر ، بعد رحيلها ، إلى سورها . لم يعد المشهد بالنسبة له مناسبة نادرة ، فهو يذكر على نحو غامض أنه قرأ شيئاً عنه في القاموس الهولندي ، الذي أعطاه فيريرا إياه

انغمس الأطفال في عبّتهم ، اصطفوا وراحوا يحملقون فيه ، بينما كان مطلأً من النافذة ، ظلوا يصيحون «بولس المرتد ، بولس المرتد !» بل وألقى البعض بالأحجار عبر ، النافذة

- أولاد أشقياء !

قالتها المرأة ذات الغدائر ، منثية توبخ الأطفال ، وتطردهم بعيداً ، راقبهم يعدون بعيداً بابتسامة حزينة ، فكر في عيد كل القديسين في لشبونة ، تأمل أوجه الشبه بهذا العيد ، هذا العيد الذي توقد الشموع خلاله في نوافذ لشبونة

كانت داره تقع في سوتورامايسى ، فوق أحد المنحدرات العديدة في نجازاكى ، وما كان له أن يغادره ، الا بتصرير من ديوان الحاكم . كانت تسلية الوحيدة أن يطل من النافذة ، مشاهداً الناس في غدوهم ورواحهم . في الصباح ، تمر النسوة حاملات صناديق الخضر على رعسـهن ، قادمات إلى المدينة من أومورا و ايساهايا ، عند الظهيرة يقطع الطريق رجال ، لا تسترهم الا أنثواب شدت حول خواصـهم ، يغنوـن بأصوات مرتفعة ، تتبعـهم خيول ناعـت ظهورـها بما تحـمل . في المساء ، يهبط المنـدر كـنة يـقرونـون أجـاسـهم . كان يـنظر إلى مشـاهـد حـيـاة اليـابـان تلك متـشـربـاً التـفـاصـيل جـمـيعـها ، كـأنـما كانـ عـلـيـه ، عـقـبـ ذـلـك ، أـنـ يـصـفـها لـشـخصـ ما ، حين يـعـودـ إلى دـارـهـ فـي وـطـنـهـ ، عـندـئـذـ يـخـطـرـ بـبـالـهـ أـنـ لـنـ يـرـىـ أـرـضـهـ كـرـةـ أـخـرىـ ، فـتـعـبـرـ ظـلـلـ اـبـتـسـامـةـ اـسـتـسـلامـ مـرـيـةـ وجـنـتـيـهـ

فى مثل هذه المناسبات ، تطفو مشاعر اليأس فى صدره ، بينما يعکف على تأمل الأمر بأكمله . لم يدر ما إذا كان المبشرون فى ماكاو وجوا قد سمعوا بارتداده ، لكنه توصل مما سمعه من التجار الهولنديين ، الذين يسمح لهم بدخول البلاد فى ديجيما ، إلى أن النبأ ربما كان قد بلغهم . وهذا يعني أنه طرد من رحاب الإرسالية

لم يطرد من الإرسالية فحسب ، وإنما جرد من حقوقه كراهب كافة ، وربما كان الدعاة ينظرون إليه بحسبانه خارجاً عن الدين ، كان يغمغم محدثاً نفسه عاصتاً شفتيه : «ما أهمية هذا كله ، ليسوا هم الذين يحكمون على قلبي ، وإنما إلينا» .

رغم ذلك ، فثمة أوقات فى الليل تصاعد هذه الرؤية أمام عينيه ، وتعصف الفكرة المعذبة بروحه ، عندئذ يصرخ ، دونماوعى ، ويقفز من فراشه ، كان التحقيق يطارده ، كالحكم الأخير يوم الدينونة ، متوجه بالحياة وبالتجسد

- ماذا تفهمون ؟ أنتم أيها الرؤساء فى ماكاو وأنتم فى أوربا !

أراد أن يناظرهم وجهاً لوجه ، فى الظلمة ، وأن يدافع عن نفسه

- إنكم تحبون حياة هادئة ، ناعمى البال ، فى «بلهنية» ، فى مكان لا تهب فيه عاصفة ، ولا يحل عذاب بساحة أحد ... إلى هنا ينبغى أن تحملوا لواء الدعوة ! هناك توقرن بحسبانكم قصص الرب العظيمة ، ترسلون بالجنود إلى ساحة المعركة المحتدمة ، لكن القادة ، الذين يصطلون ، إلى جوار النار ، فى خيمة ، لا ينبغى أن يوجهوا اللوم إلى الجنود ، الذين ظفر العدو بهم أسرى (ولكن كلا ، لا يعدو أن يكون هذا تبريراً أصطنعه لذاتى ، إننى أخدع نفسي)

الشاحب ، هوى فى حضن فيرييرا ، من ثم اعتاد أن يشيح بوجهه ، فى عجلة
يسبوها الحرج

أما عن فيرييرا فقد حظرت عليه مقابلته حسب مشيئته . كان يعلم أنه
يقطن فى تيرماشى ، قرب سايسوجى ، لكن تبادل الزيارات كان محظوراً
عليهما . والمرة الوحيدة التى التقى فيها حدثت حينما أقبل إلى ديوان الحاكم ،
بصحبة الأوتونا ، كانوا ، كلاهما ، يرتديان الملابس ، التى تلقياها من الديوان
حياناً أحدهما الآخر بلغتها اليابانية الغريبة ، حتى يمكن للأوتونا أن يعرف
ما يقولانه

فى الديوان ، حرص على التظاهر بالهدوء التام ، لكن مشاعره حيال فيرييرا
كانت تستعصى على الكلمات ، تضاربت فى فؤاده مشاعر متشابكة ، كتلك التى
يمكن أن تسود قلبى رجلين ، يواجه أحدهما الآخر ، لئن كان يكره فيرييرا ، فذلك
لا يرجع إلى أنه الرجل الذى قاده إلى السقوط ، (لم يشعر بكره أو مقت جراء
هذا) وإنما لأنه يجد فى فيرييرا جرحه الفائز ، على نحو ما هو عليه تماماً . كان
 شيئاً لا يطاق أن يرى وجهه القبيح ، على صقال وجه فيرييرا ... فيرييرا الجالس
 أمامه مرتدياً الملابس اليابانية عينها ، مستخدماً اللغة اليابانية ذاتها ، ومثله
 مطروداً من رحاب الكنيسة

ها ! ها ! ها !

كان فيرييرا ينبئ ضاحكاً ، بصوت مستخز ، أمام رجال الحاكم
 - هل جاءت الشركة الهولندية إلى إيدو ؟ فى الشهر الماضى ، بينما كنت فى
 ديجيما ، كانوا يقولون إنهم سيمضون إلى هناك
 يحدق الراهب صامتاً فى فيرييرا ، يلتقط مشهد العينين الفائرتين والكتفين

المتهالتين ، يصفي إلى الصوت الأجيš . لقد غربت الشمس على هاتين الكتفين في سايسوجي ، حينما التقى لأول مرة ، هوت أشعة الشمس ، وكأنها تسوط هاتين الكتفين .

لم تقتصر مشاعره ، حيال فيريرا ، على الازدراء والكراهية فحسب ، وإنما كان هناك كذلك شعور بالإشراق ، شعور مشترك بالإشراق على الذات ، بين رجلين اقتسموا المصير ذاته . أجل كانوا يشبهان توأمين بشعين . جالت بخاطره هذه الفكرة فجأة ، فيما كان يتطلع إلى ظهر فيريرا ، كل منهما يكره قبح الآخر ، يزدرى الآخر ، لكن هذا ما كانوا عليه ... توأمان لا يفترقان

حين ينتهي عمل ديوان الحاكم ، يكون الليل عادة قد أرخى سدوله ، تندفع الخفافيش بين البوابة والأشجار ، تدف عبر السماء الأرجوانية ، يومئـ رجالـ الأوتونـاـ إيمـاعـةـ العـارـفـ بـجـلـيـةـ الـأـمـرـ أحـدـهـماـ لـلـآـخـرـ ، وـيـنـطـلـقـ كـلـ مـنـهـماـ بـالـأـجـنبـىـ الـذـىـ عـهـدـ بـهـ إـلـيـهـ ، ذـاتـ الـيـمـينـ وـذـاتـ الـيـسـارـ ، وـفـيـمـاـ يـرـحلـ إـلـىـ الـبـعـيدـ يـخـتـلـسـ النـظـرـ نـحـوـ فيـرـيرـاـ ، يـلـقـىـ فيـرـيرـاـ بـدـورـهـ نـظـرـةـ مـخـلـسـةـ نـحـوـهـ ، لـنـ يـلـقـيـاـ إـلـاـ فـيـ الشـهـرـ الـمـقـبـلـ . وـحـيـنـماـ التـقـىـ ، لـمـ يـسـطـعـ أحـدـهـماـ أـنـ يـسـبـرـ أـغـوارـ عـزـلـةـ الآـخـرـ

الفصل العاشر

مقططفات من يوميات جوناسين

الكاتب بالشركة الهولندية في دجيمبا بنجازاكى
يوليو ٦٤٤ (يونيو ، عام الشوهو الأول)

الثالث من يوليو : غادرت السفن الصينية المرفا ، تم الحصول على تصريح للسفينة «ليلو» بالرحيل ، في الخامس من يوليو ، ينبغي أن تنقل إليها غدا الفضة، إمدادات حربية ، بضائع مختلفة ، مع إنهاء كل التجهيزات

الثامن من يوليو : تمت تسوية الحسابات الختامية مع التجار ، الصيارة ، أصحاب الدور ، والسيد شيرويمون . دونت بأمر الرئيس أوامر بشأن البضائع المرسلة إلى هولندا ، ساحل كورومانديل ، وسيام ، على أن تشحن في الرحلة التالية

التاسع من يوليو : اكتشفت أيقونة للعذراء مريم ، في دار أحد المواطنين هنا ، زوج بأهل الدار توأ في السجن ، ومنه إلى التحقيق ، تبع ذلك البحث عن الرجل الذي باعهم إليها والتحقيق معه ، يقال إن الراهب سوانوشوان ، وهو من الصابئة ، والراهب رودريجي ، وهو من الصابئة البرتغاليين كذلك ، قد شهدما التحقيق

قبل ثلاثة أشهر ، عثر على عملة معدنية ، تحمل صورة أحد القديسين في دار مواطن هنا ، وتقول شائعة إن أهل الدار جميعاً قد اعتقلوا ، ووضعوا تحت التعذيب ؛ لإجبارهم على التخلص من دينهم ، إلا أنهم رفضوا الردة ، ناشد

الراهب رودريجيز ، الصابىء البرتغالى ، الحكومة الرحمة مراراً ، لكن أحداً لم يصحغ إليه ، فقد حكم عليهم بالاعدام ، ويقال إن الرجل وزوجه وابنيهما حلق نصف شعر رعوسمهم ، وجرسوا في المدينة ، على ظهور خيول مهزولة ، طوال اربعة أيام وقد سمعت أن الأبوين أعدما ، قبل أيام ، بالتعليق من الأقدام ، وأن الابنين قد أودعا السجن ، بعد رؤية هذا المشهد

رست بالمرفأ ، حوالي وقت الغروب ، سفينة صينية ، كانت حمولتها تتالف من السكر والآنية وكمية محلوبة من الحرير المنسوج

الفاتح من أغسطس : وصلت سفينة صينية قادمة من فوشو ، وعليها بضائع متنوعة ، في حوالي الساعة العاشرة ، تعرف الحرس هوية سفينة مبحرة ، على بعد ستة أميال ، خارج خليج نجازاكى

الثاني من أغسطس : بدءاً في الصباح تفريغ السفينة المذكورة ، بأعلاه ، وقطع شوط طيب في ذلك

حوالى الظهيرة ، أقبل كاتب الحكومة ومساعده إلى حجرتى ، يتبعهما جموع من المترجمين ، وجرى سؤالى لمدة ساعتين ، وكان السبب في ذلك أن سوانو شوان ، الصابىء ، الذي يقيم في نجازاكى ، ورودريجيز ، الصابىء البرتغالى ، قد أبلغاهما بأن قراراً اتخذ في ماكاو بإرسال رهبان على متن سفن هولندية من الهند ، ويقول سوانو إن الرهبان سيختفون من الآن فصاعداً تحت ستار القيام بأعمال وضيعة ، يعهد بها الهولنديون إليهم . وقد حذرنا الكاتب قائلاً إن الشركة ستواجه صعوبات خطيرة ، إذا ما وقع شيء كهذا ، ونصحنا بالتزام الحرص البالغ ، فإذا ما جاء راهب إلى اليابان من الآن فصاعداً على متن سفتنا ، ووجد من المستحيل الهبوط إلى البر ، بسبب اليقظة في المراقبة ، وحاول العودة على سفتنا من حيث جاء ، وتم الامساك به ، فإن ذلك سيجر الخراب على الهولنديين ،

وأعلن أنه من حيث إن الهولنديين يدعون أنفسهم برعایا سموه الامبراطوري ورعایا اليابان؛ فمن الطبيعي أنهم يستحقون العقاب، شأنهم في ذلك شأن اليابانيين، إذا ما تورطوا في مثل هذا الأمر. وسلمتني بياناً باللغة اليابانية، أصدره الحاكم، نصه كالتالي

ترجمة البيان

«شهد الراهب سوانو، الذي ألقى ملك هاكاتا القبض عليه، في العام الماضي، أمام السلطات العليا في إيدو، بأن هناك الكثيرين من الكاثوليك الرومان بين صفوف الهولنديين وفي هولندا، وأكد كذلك أن الهولنديين قد استقدموا رهباناً في كمبوديا، وأعلنوا أنهم يتعمون إلى المذهب ذاته، وأنه تقرر التحاق الرهبان بالشركة الهولندية في أوروبا كعمال وبحار وذلك للإبحار إلى نجازاكي باليابان على ظهر سفن الشركة. ولم تستطع الحكومة تصديق الأمر، وتشككت في أنه ينوى الإساءة للهولنديين بالشهادة ضدهم؛ حيث إن البرتغاليين والاسبان في عداء عظيم مع الهولنديين، لكن سوانو شوان أكد أن هذا ليس افتراء، وإنما هو حقيقة؛ ولهذا السبب فإن الحاكم يأمر الرئيس بالتحري بما إذا كان هناك كاثوليكي رومان بين ضباطه وبحارته، وإذا كان الحال كذلك، فعليه الإبلاغ عنه، فإذا ما عثر مستقبلاً على كاثوليكي رومان قادم إلى اليابان، عن طريق سفينة هولندية، دون أن يتم إبلاغ الحاكم، فإن الرئيس سيواجه مأزقاً خطيراً»

الثالث من أغسطس: تم الانتهاء، وقت الغروب تقريراً، من تفريغ السفينة المشار إليها بأعلاه، سأله الحاكم اليوم بما إذا كان على ظهر هذه السفينة مدفع يمكنه استخدام مدفع هاون. تم إرسال بولس فير، الكاتب المساعد، إلى السفينة للقيام بالاستفسارات اللازمة، ولكن لم يتتوفر المطلوب، وتم إبلاغ ذلك،

أمرني الحكم بالاستفسار عن هذا في كل سفينة تأتي من الآن فصاعداً ، وبابلاغ
الأمر ، إذا كان هناك مثل هذا المدفوع

الرابع من أغسطس : في الصباح ، زار السفينة السيد هونجو ، وهو
ساموراي صغير الرتبة ، مندويا عن الحكومة ، وقام بتفتيشها بدقة ، حتى شمل
التفتيش الصناديق ، الملقاء في الأركان جميعها ، قال إن هذا التفتيش الدقيق
يرجع إلى الراهبين الصابئين في نجازاكى ، الذين شهدوا أمام السلطات العليا
بأن كاثوليك رومان في صفوف الهولنديين قد يجيئون على متن السفن الهولندية ،
وقال إنه لو لا هذا التشكيك الجديد ، لكان التفتيش أخف وطأة عن العام الماضي ،
وأوضح هذا لضباط السفينة كذلك . بناء على طلبهم ، صعدت إلى ظهر السفينة
بنفسى ، وفي وجودهم نصحت البحارة بأنه إذا كان أحدهم قد خبأ أى شيء له
علاقة بالمذهب الكاثوليكي الرومانى ، فعليه بإبرازه ، ولن يتعرض لعقاب ، وتلوت
على مسامعهم بصوت عال القوانين واللوائح ، التي ينبغي على بحارة السفن
الالتزام بها ، وبما أن السيد هونجو قد رغب في اطلاعه على ما قلت لهم ، فقد
أوضحت له الأمر تفصيلاً ، عندئذ غادروا المكان ، قائلين إنهم سيرفعون هذا
للحاكم ، ليصفو خاطره

عند الغروب تقريراً ، رست سفينة صينية بالمرفأ قادمة من شوانشو ، تألفت
حملتها الرئيسية من الأقمشة رقيقة النسج والأطلس والكريب الصيني
ومنسوجات أخرى قيمتها المقدرة هي ثمانون خاناً ، يضاف إلى هذا السكر
وبضائع متنوعة

السابع من أغسطس : شد وثاق الابنين ، الذين سبق أن ذكرت نبأ اعدام
أبوهما ، وجرسا على ظهور خيول هزيلة ، مع ضحية ثلاثة ، مروا قرب الشركة ،
إلى ساحة الاعدام ، حيث قطعت رءوسهم

١٦٤٥ (نوفمبر ، ديسمبر عام الشوهو الثاني)

الحادي عشر من نوفمبر : وصلت سفينة صينية قادمة من نانكينج ، وعلى متنها بضائع ، قيمتها ثمانمائة أو تسعمائة خان ، بينها حرير خام أبيض واقمشة رقيقة النسج وأطلس مصنوع قماش مقصب بالذهب ودمقى وما إلى ذلك . وجلبت معها أنباء مفادها أن ثلات أو أربع سفن ستصل إلى هنا ، في خلال شهر ونصف الشهر . قيل لنا إن بوسعهم أن يحصلوا بسهولة على تصريح هناك بالإبحار كما يشاعن إلى اليابان ، إذا ما دفعوا المبالغ المستحقة للمندوب السامي ، التي تتراوح ما بين مائة إلى ستين تايل ، بحسب مقدار حمولاتهم

الحادي والعشرون من نوفمبر : وصلت سفينة صغيرة ، قادمة من شانج -
شيو (ربما شانج - شو) بحمولة تتألف من الكتان وحجر الشب والأوعية ، تقدر بأكثر من ملء صندوقين ذهباً

الحادي والعشرون من نوفمبر أقبل مترجمان ، في الصباح ، إلى مقر الشركة ، بناء على أمر من الحاكم وأريانى منظومة ، طبعت تحت صورة للعذراء مريم ، تقول :

«افرحي ، يا من أنعم الله عليها ، الرب معك ، مباركة أنت في النساء»

قالا إن هذه الصورة تم الحصول عليها من كاهن بالقرب من شيمونوسكي ، وسائلانى بائى لغة كتبت وما معناها ، قالا لي كذلك إن الراهب رودريجيز ، البرتغالى الصابىء ، وسوانو شوان ، قالا إنهم لا يستطيعان فهم هذه العبارة ، لأنها ليست مكتوبة باللاتينية أو البرتغالية أو الإيطالية . كانت «السلام لك يا مريم» مكتوبة بالهولندية ، ومطبوعة على يد بلجيكي يتحدث لغتنا . يقينا إن سفنا هى التي جابتها ، لكننى قررت التزام الصمت ، إلى أن يتم إجراء المزيد من

التحریات. أما عن الحروف فقد أجبت بالصحيح ، حيث إنه من المؤكد أن الراهب رودريجيز وسوانو شوان قد شرحا الأمر لهم .

الثلاثون من نوفمبر : عظيم ، في الصباح الباكر حملنا الموجه والبارود إلى سطح السفينة ، وانهينا تحمیل باقى حمولتها ، توجهت في الظهيرة إليها ، تلوت أسماء أفراد الطاقم ، سلمت الوثائق ، ولدى عودتى إلى مقر الشركة ، استضفت بنجوى ومساعديه على مائدة حافلة بالطعام والشراب . قبل أن يحل الظلام ، انقلب الريح شمالاً بغرب ، فلم تغادر «الأوفرشى» المرفأ

الخامس من ديسمبر حوالى الظهيرة ، جاء المترجم : ليسألنى عن الجهات التي نشتري منها البضائع ، التي نستوردها ، أجبته بأن الصين وهولندا هما المصدران الرئيسيان للإمداد ، أراد أن يعرف ما إذا كانت ستحدث ثغرة في الإمداد ، إذا ما كف الصينيون عن القتوم إلى اليابان

حاولت الحصول على معلومات عن الرهبان الصابئين ، منذ وصولى إلى اليابان . يقال إن يابانيا يدعى توماسى أراكى قد مكث فى روما طويلاً ، وعمل ياورا للبابا ، وقد أقر بأنه مسيحي ، مرات عديدة ، أمام السلطات ، لكن الحكم اعتقد أن الرجل خرف بحكم تقدمه في السن ، وتركه وشأنه ، وفيما بعد علق في الأخدود يوماً وليلة ، فارتدى ، غير أنه مات والإيمان ملء قلبه . وفي الوقت الحالى ، ليس هناك على قيد الحياة إلا اثنين ، أحدهما برتغالي ، يدعى شوان ، كان فيما مضى الأسقف المؤبد من جمعية اليسوع هنا ، وقد أظلم قلبه ، أما الآخر فهو راهب ، يدعى رودريجيز ، من لشبونة بالبرتغال ، وطهى الأيقونة المقدسة في ديوان الحكم ، وكلاهما يقطن نجازاكى ، في الوقت الراهن

التاسع من ديسمبر قدمت للسيد سالبوروزيايمون علبة صغيرة ، تحتوى المراهم المنوعة ، كذلك التي أهديت للأمبراطور وسيد شيكوجو ، وعقاقير أخرى ،

قبلها ممتنا ، ذكر أن الحاكم قد سر سرورا بالغا لمشاهدة القائمة المحلقة بالعلبة
التي توضح باللغة اليابانية مفعول كل مرهم
رسرت سفينة قادمة من فوشو في المرفأ هذا المساء .

الخامس عشر من ديسمبر غادرت المرفأ خمس سفن صينية
الثامن عشر من ديسمبر غادرت أربع سفن صينية المرفأ ، طلب أربعة
أو خمسة من بحارة سفينة قادمة من نانكينج تصريحا بالذهاب إلى
تونكينج أوكيوشين ، على ظهر سفينة صينية أخرى ، لكن الحاكم رفض
الاستجابة لمطلبهم

سمع أحد الملاك التجاريين لشركتنا بهذه الجزيرة بأن شوان ، الصابئ ،
عاكف على كتابة العديد من الأشياء ، عن الهولنديين والبرتغاليين ، وأنه سيبعث بها
في القريب العاجل للباطل الامبراطوري . أوشكت أن اتمنى الموت لهذا الوغد ،
الذى لا يتقى الله ، فلن تعال شركتنا إلا المتاعب بسببه ، لكن الله سيرعاينا ويكفلنا
بحمايته . رسست سفينتان يابانيتان ، أمام مقر الشركة فى الأصيل ، سنرحل على
ظهر إحداهما وأنوات الانتشال على الأخرى . مع المغيب تقريبا حضر
المترجمون ، إلى مقر الشركة . مصطحبين الخدم لرافقتنا إلى كاميجالاتا . كان
أحدهم منظفا للثياب ، يتحدث هولندية طليقة أردت أن يمضى معنا ليعمل
طاهيا ، لكن رينبي وكيشيبى أبلغانى بأن الحاكم حظر علينا أن نصطحب من
يتحدث الهولندية لم أثق بما يقولان ، واعتقدت أنهما كانوا يريدان المضى فى
الأمر ، على نحو ما يرغبان ؛ لذا قلت لهما إن اللغتين اللتين لا غناء عنهما هما
اليابانية والهولندية ، وأن البرتغالية ، لا الهولندية ، هي اللغة التي ينبغي أن تكون
موقع نفور ومقت ، وأنه ليس هناك مسيحي ياباني واحد يتحدث الهولندية ، فيما
استطاع أن اسمى اثنى عشر مسيحيا يتحدثون البرتغالية

الثالث والعشرين من ديسمبر : غادرت سفينة صغيرة من فوشو الميناء ، مع الغروب وصلت سفينة صينية ضخمة ، عند فم الخليج ، وبسبب الريح المعاكس ، قامت زوارق التجديف بقطرها خلال الليل إلى نجازاكي ، كان هناك الكثيرون على السطح ، ومعهم الرایات الحريرية ، وأحدثوا ضجة عظيمة بالطبول والصنوج

نجازاكي ، في الفاتح من يناير ثمة رجل يجوب الشوارع ، من دار إلى دار ، قارعا طبلا كالنقرزان ، وعازفا على الناي . فيما النسوة والأطفال يمنحوه الهبات ، من مواضعهم بالنواخذة التي أطلوا . منها ، هذا هو اليوم الذي يقوم فيه شحاذان أو ثلاثة من فوباتسو وكاكويبار بتشكيل فرقة تعتمر القبعات المدلة بالأشرطة المزركشة ، وتجوب الشوارع ، مرددة أغنية تدعى «يارا»

الثاني من يناير بدأ أول أعمال العام في دور التجار ، وها هم يزينون حواناتهم ، منذ الفجر ، مسدلين ستائر جديدة على الأبواب ، وبائع ثمار خيار البحر يزور الدور جميعها

الثالث من يناير الناس يؤدون عادة الدهس على الأيقونة ، في هذا اليوم يمضى الأوتونا ، ومعهم علية القوم ، ليتلقوا خشبة الأيقونةقادمين من إيدو ، أمازاكارا ، فوناتسو ، فوكورو ، ويمتحنون بها . حرص أهل كل دار على ممارسة عادة وطء الأيقونة بأقدامهم ، عكفت الدور جميعها على تنظيف الطريق ، وها هم الآن ينتظرون جميرا في هدوء الأوتونا وعلية القوم ، أخيرا ، من بعيد ، يتعدد الإعلان عن القديوم بصوت مرئي ، كأنشودة : «ها قد أقبلوا ...». وفي كل دار ، تصطف العائلة ، في غرفة إلى جوار المدخل ، يقف الجميع منتباين ، في انتظار الحفل ، الذي يوشك أن يبدأ . تبلغ الأيقونة ما يتراوح من سبع إلى تسعة بوصات طولا ، وأربع إلى ست بوصات عرضا ، وعليها ثبتت صورة للعذراء والوليد ، أول

من يدهس هو رب الدار ، ثم الزوجة ، فالأطفال . على الأم التي تضم ولديها بين ذراعيها أن تدهس أيضا ، وإذا كان ثمة مرضى بالدار ، فإنهم ينبغي أن يحملوا أيضا في حضور رجال الحاكم ، على لسان الأيقونة بأقدامهم ، من مواضعهم بفرش المرض

فى الرابع من يناير ، وعلى غير انتظار ، تلقى استدعاء من ديوان الحاكم . كان المترجم قد وصل ، ويصحبته محفة ، سكتت الريح ، لكن السماء لاحت كئيبة ، جهمة . كان يوما قرا (ترى هل يرجع ذلك إلى الاحتفال بددهس الأيقونة ؟) بدا الطريق المنحدر مختلفا تماما الاختلاف عنه فى اليوم السابق ... إذ أصبح الآن ساكنا ، هائلا ، حد الموات ، كان أحد رجال الحاكم ، بزيه المراسmi ، فى انتظاره بديوان الحاكم فى هوناماكانا ، قال :

- الحاكم ينتظرك .

جلس سيد شيكوجو ، منتصب القامة ، فى القاعة ، التى وضعت بها مجمرة واحدة . حينما تناهى وقع الأقدام إلى مسمعه ، التفت بكليته إلى الراهب ، محولا نحوه ذلك الوجه ذا الأذنين الكبيرتين ، تلاعبت ابتسامة على شفتيه ، طائفة بخديه ، لكن صداتها لم يتتردد فى عينيه .

قال

- التحيات !

كان هذا لقاء الأول بالحاكم ، منذ رده ، لكنه الآن لم يعد يستشعر العار ، فى حضور هذا الرجل ، فهو لم يجالد سيد شيكوجو أو اليابانيين ، لقد أدرك تدريجيا أنه كان يجالد إيمانه ويقينه ، لكنه ما كان بمقدوره أن يتوقع تفهمها من

سيد شيكوجو لشيء كهذا

- مر وقت طويل منذ التقينا لأخر مرة

أوما إينوى ، مادا يديه فوق المجرة ، أضاف

- أحسب أنك ألفت نجازاكى تماماً الآن

ثم انتهى يسائل الراهب عما إذا كان يعاني أى مشقة ، طالباً أن يعلنه بذلك ، على الفور ، إن كان الأمر كذلك ، أدرك الراهب فى الحال أن الحكم يحاول تجنب أى اشارة إلى حقيقة رده . أترى كان ذلك تقديرًا لشاعره ؟ أم هي ثقة المنتصر بنفسه ؟ بين حين وأخر ، كان الراهب يرفع عينيه المنكستين ، ليحدق في وجه الآخر ، لكن ملامح العجوز ، العارية من أى تعبير ، لم تفصح له عن شيء .

- سيكون من الملائم لك ، في غضون شهر ، أن تمضي للإقامة في إيدو ، ثمة دار هناك أعددت لك أيها الأب ، إنها دار في كوبيناتشو ، المكان الذي اعتدت الإقامة فيه

هل تعمد سيد شيكوجو استخدام كلمة «أب» ؟ لقد اخترقت مقاطعها لحم
الراهب غائرة حتى العظام

- بالإضافة إلى هذا ، وبما أنك ستقضى عمرك في اليابان ، سيكون خيراً لك أن تحمل اسمًا يابانياً ، من حسن الطالع أن رجلاً يدعى أوكيادا سانيمون قد لقى حتفه ، بمقذورك ، بينما تمضي إلى إيدو ، أن تأخذ اسمه على ما هو عليه

نطق الحكم هذه الكلمات ، في نفس واحد ، وهو يفرك يديه فوق المجرة ، وأضاف

- إن لهذا الرجل زوجة ، وسيكون مما لا يلائمك ، أيها الأب ، أن تظل وحيدا يوما ، من ثم فإن بمقدورك أن تتزوجها زوجة لك .

أصغى الراهب إلى هذه الكلمات ، بعينين منكستين ، خلف جفنيه المغمضين تصاعدت صورة منحدر لا يفتأ يتهدى عبره ، بلا انتهاء ، أن يقاوم ، أن يرفض ... لم يعد هذا أمرا ممكنا . أيا كان الأمر بالنسبة لحمل اسم ياباني ، فإنه لا يعتزم أن يمس زوجته

تساءل إينوى

- طيب ؟

هز كتفيه ، أومأ موافقا ، استولى على كيانه كله شعور باستسلام ، يمازجه الإعياء ، صوت ما بداخله تردد خفيقا : «ليكن ، لقد احتملت ضروب الإهانة كافة ، ولئن كنت وحدك تفهم الآن مشاعرى بذلك فيه الكفاية ، حتى إذا كان المسيحيون ورجال الكنيسة ينظرون إلى باعتباري لطحة فى تاريخ الإرسالية فما عاد ذلك يعنينى» .

- أما قلت لك ، المسيحية لا تلائم بلاد اليابان هذه ، لا يمكن أن تضرب جذورها هنا . تذكر الراهب أن فيريرا قال بهذا ، على وجه الدقة ، فى سايشووجى

قال سيد شيكوجو ، محققا فى رمال المجرة ، خلال حديثه

- لم تلق هزيمتك ، أيها الأب ، على يدى ، إنما الحق مستنقع اليابان هذا الهزيمة بك

- لا لا

دونما وعي ، رفع الراهب صوته ، خلال حديثه

- لقد كان صراعي مع المسيحية في فؤادي

عبرت بسمة ساخرة وجه إينوى

- عجبا ، قيل لى إنك حديث فيريرا بأن المسيح المنقوش على الأيقونة
قال لك بشأن تدهسه ، وأن ذلك هو السر في إقدامك على ذلك ، ولكن
أليس ذلك على وجه الدقة هو خداعك لنفسك ؟ مجرد عبارة تستر بها
عري ضعفك . إننى ، أنا إينوى ، لا استطيع التصديق بأن تلك يمكن أن
تكون حقاً كلمات المسيح

قال الراهب ، منكساً عينيه ، وواضعاً كفيه ، على ركبتيه

- ليس لما تعتقد أهمية بالنسبة لي

قال إينوى بصوت بارد

- لربما تستطيع خداع آخرين ، ولكن ليس بمقنورك أن تخدعني . لقد
سبق لي أن طرحت هذا السؤال على آباء آخرين ما هو الفرق بين رحمة
رب المسيحيين ورحمة بوذا ؟ ذلك أنه في اليابان يأتي الخلاص من جراء
رحمة بوذا ، التي يعتمد عليها ، نتيجة لضعفهم ، الذي لا أمل في تجاوزه ،
وطرح أحد الآباء رداً جلياً إن الخلاص الذي تبشر المسيحية به هو أمر
مختلف ، ذلك أن الخلاص المسيحي ليس أمراً متعلقاً بالتوكل على الله
فحسب إنما على المؤمن ، فضلاً عن هذا ، أن يتمسك بكل ما في وسعه
بقوة القلب . ولكن في هذه النقطة بالتحديد حرفت تعاليم المسيحية ، وبذلت ،
في بطء بالغ ، بهذا المستنقع المسمى باليابان

أراد الراهب أن يصرخ : ليست المسيحية كما تظن ... لكن الكلمات التصقت
بحلقه ، حينما أدرك أن أحدها لن يفقه كنه مشاعره الراهنة ، أياً كان ما يقول ...

لأنه لا ينوي ، ولا المترجم . جلس صامتا ، يصفى إلى كلمات الحاكم ،
بعينين معتمتين ، وكفين استقرا على ركبتيه

مضى إينوى في حديثه

- ربما لم يصل إلى علمك أن هناك في جوتو وايكىتسوكى عدد كبير من
ال فلاحين المسيحيين . لكننا لا نوغلى في إلقاء القبض عليهم .

تساءل المترجم

- ولم ؟

- لأن الجنور اجتثت ، فإذا ما كان قد قدر لرجال كهذا الأب أن
يأتوا ، من أركان الدنيا الأربع ، كرة أخرى ، لكننا باشرنا باعتقال
المسيحيين من جديد

قالها الحكم ضاحكا ، وأضاف

- لكننا لم نعد نخشى هذا ، ذلك أن الجنور ، إذا ما اجتثت ، فإن
الشجيرة تنمو ، وتذروا الرياح أوراقها الصغيرة ، والبرهان على هذا هو أن
الرب الذى يعکف عليه فلا هو جوتو وايكىتسوكى سرا قد تحول تدريجيا
وتبدل ، فما عاد يشبه من قريب أو بعيد رب المسيحيين .

رفع الراهب رأسه ، وتطلع إلى وجه الحكم ، حيث تلاعبت ابتسامة
على الخدين وحول الشفتين ، لكن العينين كانتا جهمتين .

قال سيد شيكوجو ، فيما تنهيدة تصاعد من أعماق صدره :

- لقد غيرت المسيحية ، التى جلبتكموها إلى اليابان ، شكلها وغدت
 شيئا غريبا ، وتظل اليابان على حالها ، لا مناص من هذا ، أجل ،
أيها الأب

لم تكن تنحيدة مصطنعة ، كان صوته مفعما باستسلام أليم ، وب أيامه وداع
غادر المكان مع المترجم .

كانت السماء كعهدها كئيبة ، جهمة ، والطريق يلفه البرد ، مضوا به في
المحفة ، تحت السماء الرصاصية ، راح يحدق شاردا في البحر المترامي
كابيا ، كالسماء التي تلفه . سرعان ما يرسلونه إلى إيدو ، وعده سيد
شيكوجو بدار ، لكن ذلك لا يعني إلا أنه سيودع بسجن المسيحيين ، الذي
سمع به كثيرا ، وفي هذا السجن سينفق عمره ، أبدا لن يقدر له مرة
أخرى أن يعبر البحر الرصاصي ، ليعود إلى الأرض التي شهدت مولده ، حين
كان في البرتغال تساوى عنده أن يصبح داعية مع انتقامه إلى هذه الأرض ،
كان قد اعتزم المضى إلى اليابان ، وأن يحيا الحياة ذاتها التي يحياها
اليابانيون المسيحيون ، أيا كان الأمر ، فقد تحقق الآن تماما ما قدره ،
أطلق عليه اسم اوكيادا سانيمون الياباني ، غدا يابانيا . أوكيادا سانيمون ،
ضحك بصوت خفيف ، بينما كان يتلفظ الاسم ، لقد خلع عليه القدر كل ما
كان يمكن أن يتمناه ، منحه إياه على نحو ساخر ، فعليه وهو المترهبن ، أن
يتخذ زوجة (لا أكن لك سخيمة ، إنما أضحك فحسب من مصير الإنسان ،
لقد اختلف إيمانى بك عما كان ، لكنى على عهد محبتك ما زلت باقيا)

ظل حتى المساء واقفا ، مستندا إلى النافذة ، يرقب الأطفال . كانوا يمسكون
بخيط طائرة ورقية ، ويعدون عبر المنحدر ، لكن الريح كانت ساكنة ، فسقطت
الطائرة الورقية ، متراخية على الأرض

ضرب المساء أطنابه ، نفذت الشمس الأفلة ، واهنة ، من فرجة في
السحب ، راح الأطفال ، وقد سئموا اللعب بالطائرة ، يدقون أبواب الدور
بعضى الخيزران صارخين

- دعونا نضرب الخلد قبل أن يعيث فسادا

بو - نومى ، بو - نومى ، دعونا نمنح هذه الدار البركة ثلاثة مرات

دعونا نضرب بالعصا

واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة

حاول تقليد أنشودة الأطفال ، بصوت خفيض ، لكنه لم يحر إنشادا
أحزنته هذه الفكرة ، ووراءه في الدار ، راحت امرأة كهله تقع الأطفال ، كانت
هي التي تحمل له الطعام مرتين كل يوم

ساد المساء ، هبت نسمة ، أرهف سمعه ، مستعينا ذكرى زفيف
الريح ، عبر الأجمة ، حينما كان بالسجن . عندئذ ، وكما يحدث في
الليل دائما ، أصاعد محيا المسيح ، في قلبه ، كان محيا الرجل الذي
دهسه بقدمه

- أبتاباه ! أبتاباه !

تطلع ، بعينين غائرتين ، إلى الباب ، حينما سمع صوتها ، بدا ماؤفا
بشكل ما

- أبتاباه ! أبتاباه ! إنني أنا كيشيجورو .

رد الراهب ، بصوت خفيض ، فيما كان يضم ركبتيه إلى صدره
- لم أعد أبا ، امض سريعا ، وإلا حاق بك الأذى ، إذا ما عثروا
عليك هنا

- لكنك مازلت تستطيع الإصغاء إلى اعترافي

- إنني من هذا لفي شك .

قالها الراهب ، وفي صوت خفيض أضاف :

- ما أنا إلا راهب ضل عن يقينه

- إنهم في نجازاكي يدعونك بولس الصابئ . الجميع يعرفونك
بهذا الاسم

انبعث الراهب يضحك ، وكفاه تضمان ركبتيه إلى صدره لا تزالان ،
كان يعرف ذلك ، ويعلم أنهم يدعونه بيريرا باسم بطرس الصابئ ، ويلقبونه
ببولس الصابئ ، في بعض الأحيان كان الأطفال يتحلقون داره ، مرددين
اسمه ، بصوت عال ، كأنما يتغنون به

- أتوسل إليك أن تسمع اعترافي ، طالما أن بولس المرتد نفسه
كان بمقدوره الأصفاء للاعترافات ، أتوسل إليك أن تحلنني من
خطاياي

حدث الراهب نفسه ، ليس الإنسان هو الذي يملك أن يحكم ، فالرب غير مطلع
على ضعفنا

قال كيشيجيو ، مغروفق العينين بالدموع
- أبتاه ، لقد أسلمتك لهم ، دهست على الأيقونة ، في هذه الدنيا أقوىاء
وضعفاء ، والأقوىاء لا يسلمون للعذاب ، ويمضون إلى الفريوس ، ولكن
ماذا عنهم مثلى ، الذين ولدوا ضعافا ، أولئك الذين حينما يعذبون ويؤمرن
بأن يدهسوا الأيقونة المقدسة

لقد دهستها بدورى، للحظة استقرت هذه القدم على محياه ، دهست
محييا الرجل ، الذي عاش في خاطرى يوما ، المحييا الذي تجلى لي في الجبال ،
في ارتحالاتي عبر شعابها ، في السجن ، على أفضل محييا ، على المحييا

الأكثر بهاء ، الذى يمكن لأى إنسان أن يعرفه أبدا ، على محيا من تقت
بوما إلى محبته ، هوذا الآن يطل على بعينين أسيفتين من الأيقونة التى
برتها الأقدام . قالت ماتان العينان المفعمتان عطفا ادهس ... ادهس ،
فقدك تعانى عذاب الألم ، لابد لها أن تعانى ، شأن الأقدام التى دهست
هذه الأيقونة جمیعها ، لكن الألم وحده يکفى ، وانى لأتفهم عذابك وأملك ،
فمن أجل هذا أتمدد هنا هنا

- إلهى ، لقد خضت ذرعا بصمتك .

- لم أكن صامتا ، وإنما كنت أتعذب ، إلى جوارك

- لكنك أمرت يهودا بأن يمضى بعيدا : «اعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ»
فماذا أصاب يهودا ؟

- ما بهذا تلفظت ، وإنما قلت ليهودا أن يمضى قدما ، فيما اعتزم ،
مثلا حدثتك بأن تدهس الأيقونة ، ذلك أنه كان يعاني العذاب الذى
تقاه الآن

كان قد هبط بقدمه على الأيقونة ، التى صلبها القدر والدم ، ضغطت
أصابع قدمه الخمسة على محيا محبوبه ، رغم ذلك ، فلم يدر سر دفق الفرح ،
الذى غمره ، في تلك اللحظة

تدفق الراهب فى حديثه ، مواجهها مدخل الدار

- ليس هناك أقوىاء ولا ضعفاء . هل بمقدور أحد أن يقول إن الضعفاء
لا يتعدّبون على نحو يفوق الأقوىاء ؟ لما كانت هذه الأرض لا تقل أحدا
غيري فى الوقت الراهن يمكنه أن يسمع اعترافك فأنا لها ... رتل الصلوات
بعد الاعتراف ... امض فى سلام !

رق كيشيجيرو باكيما ، ثم غادر الدار ، لقد منحه الراهب ذلك السر الذى لا يملك إلا راهبا لم يضل الطريق أن يمنحه ، يقينا سيدفع اخوانه فى الرهبنة عمله ، بحسبانه انتهاكا للحرمات ، ولكن حتى لو أنه كان قد أقدم على التخلى عنهم فهو لم يتخل عن ربه ، إنه ليحبه الآن على نحو مختلف عن ذى قبل . كان كل ما وقع حتى الآن ضروريا للوصول به إلى سمت هذا الحب

- إنى آخر الرهبان ، فى هذه الأرض ، لكن إلها لم يكن صامتا ، وحتى إن كان قد لزم الصمت ، فقد كانت حياتى ، حتى هذا اليوم ، تتغنى باسمه

مفتتتم

مذكريات ضابط بالمقر المسيحي العالم الثاني عشر للكانبون أو جرذ الماء الكبير

تصرف ، في الوقت الحالى ، لأوكادا سانيمون جراية عشرة أشخاص ، وتصرف لكل من بوکوى ، يوحنا ، نانهو ، وجيكان جراية سبعة أشخاص ، قدمت الآتين بعد إلى توتومينوكامى ، في السابع عشر من يونيو .

مذكرة

- ١ - سايبيي العمر ٥٠ عاما ، ابن عم زوجة سانيمون ، نجار مراكب بفوكاجاوا
- ٢ - جينيمون : العمر ٥٥ عاما ، ابن عم المشار إليها آنفا ، يعمل بخدمة دوى أوينوكامى
- ٣ - سانوجو : ابن شقيق المشار إليها آنفا ، مع سايبيي
- ٤ - أداشى جوانزابورو ذكر عنه أنه متدرّب على يد بوکوى الصانع ، خلال عهد هوجو
- ٥ - جينون عم ابنة يوحنا ، يقيم في كاواجو . جاء مرة خلال عهد هوجو ، أقبل مرة أخرى لمقابلة يوحنا في السادس والعشرين من إبريل من عام الجرذ هذا

عام الأنبو الأول أو ثور الماء الصغير

التاسع من نوفمبر لفظ بوکوى أنفاسه الأخيرة ، متاثراً بمرضه ، في السادسة فجرا . قدم للتحري المفتشان كيموارايمون وأوشيدا جينجوي ، ومع كل منها مفتشون مساعدون ، حضر كذلك ضباط الشرطة ، شوزايمون ، دنيمون ، سوبى ، جينسوکوى ، وحضر أيضا رجال الشرطة ، اساتور سابور ويمون ، أراكاوا ، كايزويمون ، كاينون كالينمون ، فوكودا ، هاشير وبي ، هيتوتسوباشى ، مابابى . تم احراق الجثة بمعبد ماربون . الاسم البونى للراحل ، بعد موته ، هو كوجان شوتين زنجومون . قام اندوهايكوبى والرقيب كيكاداجور ايemon بتفتيش امتعة توکزایمون ، خادم بوکوى ، واطلقوا سراحه بعد اختباره بالأيقونة

عام الأنبو الثاني أو نمر الغابة الأكبر

من العشرين من يناير ، وحتى الثامن من فبراير عكف أوکادا سانيمون على كتاب ، يتصل فيه من دينه ، بأمر من توتومينوكامي ، ترتب على هذا أن أوکائی شوزايمون وكایو ونيمون وهو شينوجينسوکى قد ألغوا من واجب رصده

السادس عشر من فبراير عكف أوکادا سانيمون على وضع كتاب ، سيعفى كل من کایو ونيمون وكاواراتجينجوي من واجب ملزمة سانيمون ، من الثامن والعشرين من فبراير ، وحتى الخامس من مارس سيقوم أوکادا سانيمون بكتابة تتصل من دينه ، في الفترة من الرابع عشر من يونيو ، وحتى الرابع والعشرين من يوليو ، في مكتب إدارة الجبل ؛ ومن هنا يعفى من واجب ملazمه کایو ونيمون وكاوارات جنیجوي

الخامس من سبتمبر زج بيوجنا فى السجن ، سيودع هناك لبعض الوقت ، عقابا له على سلوكه الموج ، سيشهد عملية الاستنطاق كل من روكيومون ، شوريomon ، سوبى ونيمون ، جينسوکى كاواراوكامى ، يعهد بالواجب الشهري على تسوكاموتو ، روكيومون ، وكايرو ونيمون

العام الرابع للأنبو أو تنين النار الأكبر

أودع كيشيجورو ، تابع أوكادا سانيمون ، والذى جاء فى أعقابه إلى هنا ، السجن كذلك بسبب سلوكه المريب لدى تفتيشه بمقر الحراس التابع للمقر المسيحى ، عثر على علبة تعويذة تتدلى حول عنقه ، وبها صورة يوقرها المسيحيون ، رسم على أحد وجهيها القديس بولس والقديس بطرس ، وعلى الوجه الآخر كزافيه وأحد الملائكة استدعاى كيشيجورو من السجن ، وسئل عن موطنه وعن أقاربه . إنه من جوتو . وفي الرابعة والخمسين من العمر ، فى عام التنين هذا

ثمة ما يثير الشك فى يقين هيتوتسوباشى ماتابى ، الذى ربطه الود بكيشيجورو ، من هنا أودع ماتابى السجن كذلك ، إلى أن يبين أمر كيشيجورو (تسقط هذه الفقرة) بما أن الصداقة تربط ماتابى بكيشيجورو ، فإن معتقداته تصبح موضوع شك ، ولهذا تم اتخاذ الإجراء السابق ، حينما تم التحقيق مع كوروزايمون وشينبى ، اللذين قيل بأنهما على صلة وثيقة بماتابى ، تم تفتيشهما ذاتيا بدقة ، فى المكتب ، جرى فحص ملابسهما الداخلية والخارجية ، وما بجيوبهما من أوراق ، وما يحتفظان به من تعاويذ ، جميعها دونما استثناء (تسقط هذه الفقرة) جاء توتومينوكامى إلى السجن ، واستدعاى كيشيجورو إلى المكتب ، وسائله عن مصدر التعويذة المسيحية أجاب على هذا بقوله

«إن تابعاً يدعى سايزابورو، كان قد حل بهذا المقر قبل ثلاث سنوات، قد أودعه إياها، وحينما جاء إلى هذا المقر تركها كلية، وعاد لشأنه، هكذا التقظناها، واحتفظنا بها، وتوكييمون الباب يعلم هذا «وهنا تم استدعاء توكييمون وسؤاله، فقال إنه شهد هذا المشهد، ذات يوم من أيام الصيف، لدى تجفيف الملابس. ردًا على سؤال عما إذا لم يكن قد تلقاها من أوكيادا سانيمون، قال كيشيجورو: «ليست هناك فرصة للحصول على أي شيء من سانيمون» الأمر الذي يعني، بحسب ايضاحه، أن انعدام الفرصة يرجع إلى أن حارسين يرافقان سانيمون، دائمًا، حيثما وقعت عليه عين

السابع عشر من سبتمبر، جاء السيد توتومينوكامي بنفسه إلى إدارة الجبل، استدعي ثلاثة أتباع إلى المكتب، ليبحث ما إذا كانوا مسيحيين من عدمه، استدعي كيشيجورو وتوكييمون، عقب ذلك، وتم التحقيق معهما، وأمر كذلك بتفتيش مساكن الحرس جمیعاً بدقة، وكذلك المقار الرسمية الثلاثة، ومقار الاقامة، وحتى الزوجات والأطفال طلب منهم التجدد من ملابسهم الخارجية والداخلية، أمام الضابط، وبالطبع، تم فحص صور بوندا، التي يحتفظون بها، وعند تفتيش سكن سوجياما شيشيروبي وكوبوري جوزايمون اكتشفت ضمن أوراق عتيقة رقعة تضم كلمات مسيحية تحفظ عليها كایونيمون، لرفعها إلى المدير، حيث جاء بها: أب، اسقف، كبير اساقفة، بابا

الثامن عشر من سبتمبر حضر السيد توتومينوكامي بنفسه إلى إدارة الجبل، واستمع لإيضاح الاتباع الثلاثة، في المكتب، استدعي كذلك هيتوتسوباشى ماتابى للتحقيق معه. تم التحقيق مع كيشيجورو وتوكييمون، عقب

ذلك . استدعيت زوجة اوكانادا سانيمون وخدمته ورببه ، حيث جرى التحقيق معهم ، استدعي سانيمون نفسه ، وجرت مساعته عما إذا كان قد حاول اقناع كيشيجورو باعتناق المسيحية ، فرد بأنه لم يحاول تغيير عقيدة المذكور الدينية ، عقب ذلك استدعي سوجياما ، شيشيروبي ، وسئل عن السبب في احتفاظه برقعة ، تضم مناصب مسيحية ، عثر عليها لديه أمس ، فقال : «خلال عهد هوجو اواني كامي ، أمرني كبير وكلائه باستظهار هذه الأسماء ، حيث كنت مسؤولاً عن مثل هذه الأمور ، وهكذا تلقيت هذه الرقعة من هاتوري ساهى ، وهو ضابط بالشرطة ، وقد تبين أن ما أدلني به صحيح ، وأمر بالعودة إلى حيث كان

تم استدعاء كل من تاهى تابع كاساهاراجويمون بمعية الوزير تاتيبايايسى ، وكذلك شنيبى الحارس ، الذي يعمل بوابة بغرفة سايتو تانومو ، وجرت مواجهتهم بكيشيجورو ، للتحقيق فيما يتعلق بالصورة التي التقطاها ، تبين أن شنيبى قد التقاطها بالفعل ، وقال تاهى المذكور أعلاه أنه رأى شنيبى يمسك بها ، وبناء عليه أمر تاهى شنيبى بالعودة إلى حيث كانا

اليوم نفسه علق هيتوتسوباشى ماتابى داخل السجن ، والضباط المسؤولون هم هيسانكى حنيمون ، أوكانادوكوبى ، كاواسى سوبى ، وكاوارا جنيجوبى ، منذ ذلك الوقت تم تعذيب ماتابى مرات عديدة

الثامن عشر من أكتوبر عظيم . حضر الحكم بنفسه إلى إدارة الجيل ، جاء كذلك المفتشان ساياما شوزايمون وتانيجوسار تارويمون ، وعنبا هيتوتسوباشى ماتابى وزوجته ، على الحصان الخشبي ، استدعي نايتوشنيبى إلى المكتب . جرى التحقيق مع ماتسوى كورويمون ، واعترف ، على وجه التقرير

الرابع عشر من نوفمبر تم تعليق البيان المتعلق بالإرشاد عن المسيحيين ، على المدخل الرئيسي لإدارة الجبل . وقام بهذه المهمة كاوارا جنيجوبي اوکای جینجويمون وياماذا جيروبي ، وقد أعدت لوحة البيانات ذاتها بأمر من الحاكم

بيان

«منذ سنوات طويلة ، تم حظر اعتناق المسيحية ، ونهيب بالجميع الإرشاد عن الأشخاص المشتبه بهم ، وسيقدم ما يلى مكافأة للمرشدين :

من يبلغ عن أحد الآباء ٣٠٠ قطعة فضية

من يبلغ عن أحد الأخوة ٢٠٠ قطعة فضية

من يبلغ عن مرتد إلى المسيحية كالسابق

من يبلغ عن ملقن للتلاليم المسيحية أو معتقد له ١٠٠ قطعة فضية

سيمنح المرشد ، حتى وإن كان هو نفسه من ملقني التعاليم المسيحية ، أو من من معتقداتها ، ٣٠٠ قطعة فضية ، أو بحسب وضع المتهم ، وإذا ما قام أحد باليواء مثل هؤلاء الأشخاص ، ثم أفضت معلومات الآخرين لاكتشافهم ، فإن عقاباً قاسياً سيوقع به ، وبعائلته ، واقاربه ، ورئيس حيه ، والعائلات القرية منه . وتحرج ما سبق بياننا منا» .

العاشر من ديسمبر أودع يوحنا السجن ، أرسل الحاكم المديرين تاكوشى نايمون وهاتورى كنيمون ، وبحضور ضباط شرطة من قبل الحاكم سلم يوحنا البيان التالي

«لقد وجه يوحنا ، الذى دأب على اتيان سلوك مخل ، لرهانه إلى كايو جينزايمون وبرهن على أنه شخص سوء السلوك ، وكعقاب على هذا سيتم سجنه، وقد وجه إليه الأمر بتقبل العقاب سالف الذكر»

أجاب يوحنا بأن تلك هي رغبته ، وأنه يقبل العقاب عن طواعية ، وحينما اقتيد إلى السجن ، قدم كيس نقوده للضابط لحفظه ، فأودع بدار الحرس وذج بصاحبه في السجن ، وتم فحص هذا الكيس ذاته ، بحضور المديرين وضباط الشرطة المرسلين من قبل الحكم ، فعثر على سبعة عشر «رايو» ، وبو واحد في شكل عملات معدنية صغيرة ، وجرى فحص باقي أمتعة يوحنا وتسجيلها في الدفتر المخصص لذلك ، وختمه ضابط الشرطة ، وأودعوه داره

كان بين أمتعة يوحنا سلسلة وسوطان ومسبحتان ورسم بياني فلكي
عام الأنبو التاسع أو الديك الذهبي الصغير

الخامس والعشرون من يوليو : توفي أوكادا سانيمون ، متأثراً بمرضه ، فيما بين الثانية والثالثة . بعد ساعة القرد ، توجهت إلى الحكم لإعلانه بهذا ، مع أوكاي جيجومون وناروسى جيزوايمون ارسل المديران تاكاهاش سيكينومو واما جاري جوريomon توا إلى هنا ، من لدى الحكم ، وضع ثلاثة من رجال الشرطة حرساً على جثة سانيمون

السادس والعشرون من يوليو حضر المحققون الستة التالية اسماؤهم إلى إدارة الجبل ، المفتشان أومورا يومون ، مورايا كاكودايو ، المفتشون المساعدون شيمويا ماسوى شIRO ، نومورا راي ، اوشيدا كانجورو ، فورووكاو كايوزایمون ، وبحضور المديرين المرسلين من لدى الحكم سلم البيان التالي للمفتشين :

صورة البيان

لقى أوكادا سانيمون ، الذي كان مودعاً بالمقبرة المسيحية حتفه ، بعد دقائق من انتصف الساعة الرابعة من أصل الخامس والعشرين من يوليو ، وكان سانيمون المولود في البرتغال بأوربا قد وضع تحت اشراف إينوي شيكوجو

نوكامى بداية فى عام الكبش قبل ثلاثين عاما ، ثم جاء إلى المقر هنا ، فأودع النيابة المسيحية ، حيث ظل مقيناً ثلاثين عاما ، حتى عام الديك هذا ، حيث سقط طريح الفراش ، فى بداية الشهر ، وفقد شهيته ، وتدهور به الحال ، على الرغم من علاجه على يد طبيب السجن ايشيودتىكى ، وأخيرا لفظ انفاسه الأخيرة ، وكان فى الرابعة والستين من عمره . وباستثناء هذا ، فليس هناك ما هو غير مألف هنا

السادس والعشرون من يوليو

مجموعة هياشى شينانواوكمى

أوكاما جير ويمون

أوكاي جينجوي مون

كاوارا جنجوبي

كاواسى سوبى

كايو ونيمون

بعد الفحص ، دفن جثمان سانيمون ، فى معبد ماروين بكوشيكاوا ، أقبل من ماروين كاهن يدعى جينشو ، فأرسلت جثة سانيمون إلى هناك بالعربة ، حيث أحرقت ، واسمها البوذى ، بعد موته ، هو مايوسين جوشين شينشى ، تم دفع رايو واحدا واثنين بو ، لخدمة الجنازة ، ومائة بيكيى كتكاليف للإحراق ، وقد دفعت مصاريف الجنازة هذه من النقود التى خلفها سانيمون ورائعه

روايات العلال تقدم

ابنة المماليك

تأليف

محمد فريد أبوحديد

تصدر ١٥ مايو ١٩٩٧

رقم الاليداع ٤٩٩٥ / ١٩٩٧

I S - B N

977 - 07 - 0528 - 4

twitter @baghdad_library